هذيل

في جاهليتها وإسلامها

تأليف

الدكتور عبد الجواد الطيّب

الدار العربية للكتاب

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَۙ ۝ اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِۙ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِؕ ۝ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ

نَسْتَعِينُؕ ۝ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَۙ

صِرَاطَ الَّذِينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْۙ ۝ غَيْرِ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّٓالِّينَ ۝





درج المؤرخون والكتّاب حين يكتبون في تاريخ الأمم وحضارتها أن يدوروا في فلك واحد، فيكرسوا جهدهم جميعاً للكتابة في تاريخها المستقر الذي تحددت معالمه، واستبانت حدوده وأبعاده، فهم يتناولون من تاريخ هذه الأمم ما اتضحت جنباته من شؤون حياتها المادية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والحربية... ويتحدثون عن المشهورين من قادتها وحكامها، واللامعين من رجال الفكر فيها... أمّا ما اكتنفه الغموض من حياة هذه الشعوب فإنهم يتنكبونه، ويضربون عنه صفحاً؛ لأنه ضارب في القدم، أو لأن مادة الكتابة فيه ليست من السهولة بمكان.

ومن ثم لم يتناول هؤلاء المؤرخون والمؤلفون حياة القبائل العربية قبل الإسلام بالبحث الشامل، والمسح الدقيق. فمهما عنّيت نفسك في القراءة والتنقيب فلن تجد من ذلك إلا شذرات منثورة في بطون الكتب والمراجع ليس من شك في أنه لا يمكن الاكتفاء بها في تكوين فكرة عامة شاملة عن هؤلاء العرب في جاهليتهم، وعن قبائلهم المختلفة التي لا ننكر أنه كان يجمع بينها طابع عام، وبيئة عامة، وهذا الطابع العام لا يعدو كونهم بدواً وحضراً، أو أهل وبر، وأهل مدر، وأنهم كانوا يعيشون في شظف من العيش، ولا سيما أولئك البدو أو الأعراب الذين كانوا يضربون بجرانهم في الصحراء، وتقوم حياتهم كلها أو جلها على الرعي، وانتجاع الكلأ والماء، وأن ظروف الحياة في قسوتها وعنتها كانت تدفع قبائلهم إلى أن يَغِير بعضها على بعض في سبيل تنازع البقاء... وأنهم كانوا يتصفون بكذا وكذا من

كريم الأخلاق والصفات، ويوصمون بكيت وكيت من ذميم التقاليد والعادات...

ولكن هل يكفي هذا الطابع العام الذي نجده في عبارات مقتضبة عند القدامى فيما خلفوا لنا من تراث، أو أن هناك بيئة خاصة، وطابعاً خاصاً يميز كل قبيل عربي عن سواه؟ ذلك الطابع الخاص، والدراسات المفصلة المستوعبة لحياة القبائل العربية شيء لا يجد عناية من أحد، فقلما وجدنا - حتى بين المحْدثين - من كرّس جهده، أو وجَّه عنايته للكتابة في تاريخ القبائل العربية، وخصّ هذه القبيلة أو تلك ببحث منفرد يوضح خصائصها وسماتها، ويجلو - في شيء من التفصيل - ما خفي من شؤونها. ويتناول بالحديث من برّزوا من رجالها في جاهلية أو إسلام.

فليت شعري هل أحس أولئك الباحثون أن تاريخ العرب في هذه الحقبة غير جدير بالنظر والبحث وطول الأناة! أو أنهم نكبوا عنه؛ لأن الكتابة فيه ليست بالأمر السهل الهين؛ فلا يمكن أن يطرقوه دون كثير من الكلفة والمشقة والمعاناة!

وسواء صحَّ هذا أم ذاك، فإن من حق البحث في تاريخ أمتنا العربية أن نجلو هذه الحقبة من أحقابها، وهذه الحلقة الضامرة في سلسلة تاريخها؛ فإن المكتبة العربية في أشد الحاجة إلى ما لم يُكتب فيه، لا إلى ما تضافر الناس على الكتابة فيه.

لهذا أخذت نفسي بالبحث في تاريخ ما أهمله التاريخ أو كاد، فبدأت أتجه إلى الكتابة في تاريخ القبائل العربية كتابة تتسم بالبحث العلمي - فيما أرجو - ذلك البحث الذي يحاول صاحبه أن يقدم جديداً في هذا التاريخ القديم الذي لا يكاد يضع الإنسان يده فيه على شيء ذي بال إلا بعد أن يطيل النظر، ويُعمل الفكر، ويبذل من ذات نفسه الشيء الكثير. فكان أن بدأت في دراسة تاريخ إحدى هذه القبائل العربية في محاولة أرجو أن تليها إن شاء الله محاولات مماثلة أدرس فيها غيرها من قبائل العرب.

والقبيلة التي اخترت أن تكون دراستها في طليعة هذه المحاولات هي « قبيلة هذيل » إحدى قبائل الحجاز ومن أقربها إلى قريش جواراً ونسباً وصهراً ، وكان لها دورها في صدر الإسلام صدّاً وإعراضاً ، أو قبولاً وتسليماً ، وكان لبعض رجالها في الجاهلية شأن ، ورجالاتُها في الإسلام لهم كبير خطر ، وكان لشعرها وشعرائها أثرٌ كبير في اللغة والأدب . فقد كان حظ الهذليين ـ فيما يبدو ـ من الشعر والشعراء أكثر من حظ غيرهم من العرب ، فلم يُتح لقبيلة عربية ما أتيح لهم من ذلك ، وترجع أهمية هذا الشعر إلى أنه مجموعة كبيرة انتهت إلينا من شعر قبيلة بأسرها ، وإلى أن هذه المجموعة هي المجموعة الوحيدة التي انحدرت إلينا من دواوين القبائل العربية ، ففيها إذن فرصة سانحة تمكن الباحث من دراسة هذه القبيلة دراسة قد لا تتيسر له إزاء قبيلة أخرى لم يصلنا من تراثها الأدبي ما وصلنا من تراث هذيل .

وقد حاولت جاهداً أن أفيد من هذا المصدر الأصيل في هذه الدراسة ، وإلى جانبه كثير من المراجع الأخرى التي أسهمت في التعرف على أصل هذيل ، ومواطنها ، وبطونها ، وفصائلها ، ومواقع جيرانها من القبائل الأخرى مثل فهم وعَدوان وكنانة ، وغيرها من القبائل التي لها بالهذليين اتصال في السلم أو في الحرب ؛ ولهذا كان من بين مجموعة المراجع التي عنيت بها كتب الجغرافيا والبلدان مثل معجم ما استعجم للبكري ، ومعجم البلدان لياقوت ، وصفة جزيرة العرب للهمْداني ، وكتاب الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري ، والرحلة الحجازية للبتانوني ، وقلب الجزيرة العربية لفؤاد حمزة .

ثم نظرت في كتب الأنساب ، وما يتصل بها مثل « نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب » للقلقشندي ، ونسب عدنان وقحطان للمبرد ، ومعجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة ، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي ، وجمهرة أنساب العرب نشر وتحقيق إليفي بروفنسال .

وقد عنيت بالبحث في كتب التاريخ مثل اليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، والكامل لابن الأثير. وفي كتب السيرة كسيرة ابن هشام، والروض الأُنف للسُّهيلي. وفي كتب الطبقات والتراجم مثل طبقات ابن سعد وطبقات الشعراء لابن سلّام، والشعر والشعراء لابن قتيبة، وإنباه الرواة للقِفطي، وطبقات النحويين واللغويين للزّبَيدي، وبغية الوعاة للسيوطي، وطبقات القراء لابن الجزري، وأسْد الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر، وتجريد أسماء الصحابة للذهبي، والفهرست لابن النديم، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ومعجم الأدباء لياقوت...

هذا، وقد تتبعت الهذليين في المواطن الجديدة التي رحل إليها الكثيرون منهم في ظل الإسلام كمكة والمدينة، ثم العراق والمغرب ومصر؛ ولهذا أضفت إلى المراجع التاريخية السابقة بعض المراجع التي تحدثت عن الفتح الإسلامي لمصر، وعن القبائل العربية، ومواطن إقامتها بها مثل فتوح مصر لابن عبدالحكم، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي، والخطط للمقريزي، والخطط التوفيقية، والبيان والإعراب عمن حلَّ بأرض مصر من الأعراب للمقريزي.

ولم أكتفِ بعد هذا بجمع ما جمعت، ولم آخذه قضية مسلماً بها؛ وإنما وضعته قيد البحث والدراسة؛ ليتميز الطيب والخبيث، ويتضح الصحيح من الزيف على أسس علمية بذلت فيها شيئاً من الجهد.

وقد تضمن موضوع هذا البحث ـ بعد هذه المقدمة ـ أربعة فصول:

الفصل الأول:

وقد تناولت فيه أصل هذيل ونسبها وبطونها، وما تناثر في هذه البطون من مشاهير الهذليين في الجاهلية والإسلام.

وأتبعت هذا الفصل بجدول شجري يوضح أهم البطون المشهورة في هذيل.

الفصل الثاني :

تناولت فيه منازل هذيل ومواطنها ، وقد عرضت ذلك في مبحثين :

أولهما : منازل هذيل في الجاهلية .

ثانيهما : مواطن هذيل في الاسلام .

الفصل الثالث :

حياة الهذليين ، وقد عرضت ذلك في مبحثين :

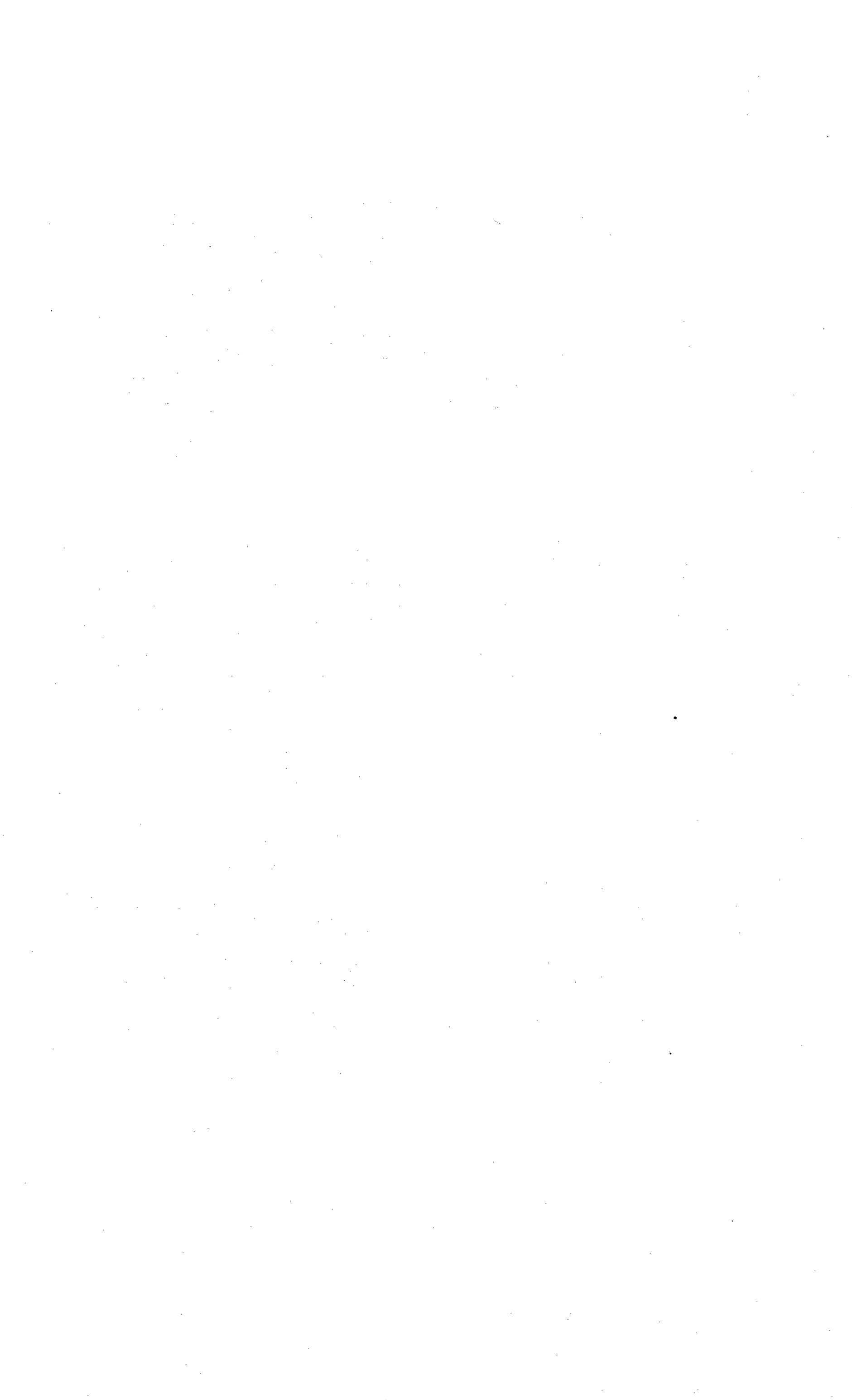
أولهما : حياة هذيل في الجاهلية .

ثانيهما : وضعهم في الإسلام .

الفصل الرابع :

(١) أدب الهذليين من شعر ونثر .

(٢) حول اللهجة الهذلية .



الفصل الأول

أصل هذيل ، ونسبها ، وبطونها



أصلها ونسبها :

البحث في أصل هذه القبيلة ونسبها هو أول ما يتجه إليه الباحث في مثل هذا البحث. والباحث في أصل هذيل ينبغي أن يتجه أول ما يتجه إلى معرفة ما تنتمي إليه من قحطانية أو عدنانية ، فلكل من هذين الأصلين الكبيرين طابعه ، ولهجته التي كان يلهج بها أبناؤه ، لا سيما في العصر الجاهلي ، قبل أن تتغلب العربية الشمالية على لهجات حمير في جنوب الجزيرة العربية.

وإذا كان قد اختلف بعض النسابين في نسب القبائل اليمنية التي نزحت إلى الشمال بعد انهيار سد مأرب ، فاعتبرها بعضهم شمالية لاعتبارات رأوها ، كما اختلفوا من جهة أخرى في نسب تلك القبائل التي كانت تعيش في خصب ودعة مثل حمير ، وكهلان ، ولخم ، وجذام ، وغسان ، وطيء ، وقضاعة ، وإياد[1] - فإنه - مع هذا - لم يحدث خلاف ذو بال في نسب القبائل العدنانية التي استقرت في وسط الجزيرة ، لا سيما ما كان منها موغلاً في البداوة كالهذليين وغيرهم من القبائل البدوية التي كانت تضرب بجرانها في صحراء الجزيرة ، والتي كانت هذه الصحراء من حولها - في عزلتها وشظفها - سياجاً يحفظها من اختلاط الأنساب وتداخلها ، فأنساب هؤلاء

(١) ابن خلدون : المقدمة ص١٢٤ .

كما قال بعض علماء الاجتماع من العرب « صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ، ولا عرف فيهم شوب »[٢].

فهذا الناموس الاجتماعي الذي نبهنا إليه هذا العالم العربي ، فألفيناه مقنعاً معقولاً - نستطيع في ضوئه أن نطمئن إلى ما ذكره النسابون والعلماء العرب من أن هذيلاً قبيلة عربية يرجع أصلها إلى هذيل بن مدركة[٣] بن إلياس[٤] بن مضر[٥]. ومضر هذا ينتهي نسبه سريعاً إلى عدنان[٦] ؛ فهي إذن قبيلة عدنانية مضرية.

وإلى مضر هذا تنتسب أشهر القبائل العُربية من قيس عيلان ، وتميم ، وهذيل ، وكنانة[٧].

وهذيل هذه وإن كانت تعدّ من المضريين بعامة ، فإنها تعد على وجه خاص من المجموعة المضرية التي تسمى قبائل « خِندف » والتي ينتسب إليها ولد إلياس من العرب[٨].

وإذا أردنا أن نحدد مكانها بين العرب على وجه أدق وجدنا أن بطون مدركة بن إلياس أعظمها هذيل هذه ، والقارّة ، وأسد ، وكنانة ، وقريش[٩].

ونسب هذيل بهذه الصورة الواضحة أشار إليه حسان بن ثابت في مطلع قصيدته التي هجا فيها هذيلاً بعامة ، وبني لحيان منهم بخاصة بسبب غدرهم في يوم الرجيع :

---

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص١٢٣.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٠٩ - ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص١٨٧ - تاريخ الطبري ٢/١٨٨ ، ١٨٩ - اليعقوبي ٣١٣ - سيرة ابن هشام ١/٣٢.

(٤) المبرد : نسب عدنان وقحطان ص٦.

(٥) السويدي : سبائك الذهب ، ص٢٢.

(٦) ابن حزم : الجمهرة ص٩.

(٧) أحمد أمين : فجر الإسلام ص٨.

(٨) تاريخ ابن خلدون ٢/٣٠٩.

(٩) تاريخ ابن خلدون ٢/٣٠٩.

لعمري لقد ساءت هذيل بن مدرك أحاديث كانت في خُبيب وعاصم[10]

وألمّ بهذا النسب شعر أبي ذرة الهذلي:

نحن بنو مـــدركـــة بن خنـــدف من يطعنوا في عينـــه لا يطرف[11]

ولا نعدم أن نجده في أشعار بعض الهذليين الآخرين، وعند شرّاح شعر هذيل[12]، وتكاد تجمع عليه المراجع العربية القديمة[13].

والمحدَثون ـ فيما كتبوا من تاريخ العرب وأنسابهم ـ يوافقون القدامى على ما ذهبوا إليه من نسب هذيل، ومن شأن المحدثين عادة تحقيق ما خلفه القدامى في تراثهم من حقائق، وما قرروه في كتبهم من أحكام ـ فقد أشار جورجي زيدان إلى نسب هذيل إشارة لا تخالف ما ذكره القدامى بشأن هذا النسب[14]، كما يشير عمر رضا كحالة في «معجم قبائل العرب»[15] إلى هذا النسب المضري لتلك القبيلة...

وإذا ما أثار بعض الباحثين الشك في نسبة بعض البطون إلى هذيل، فإنه لا يرقى هذا الشك عنده إلى النسب المشهور لهذه القبيلة الأم، فالدكتور جواد علي حينما شكّ في نسب لحيان[16] ظلّ على يقين من نسب هذيل، فشأنه في هذا شأن غيره من المؤرخين، وأصحاب الأنساب في القديم والحديث، وهم يكادون يتفقون جميعاً ـ فيما أعلم ـ على هذا النسب الذي

---

(١٠) ابن حجر: الإصابة ٣/٤.

(١١) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ٢٧٣.

(١٢) المرجع السابق ٢٧٣ ـ البقية ص١٠٤. ديوان الهذليين ١٦٧/١.

(١٣) ابن قتيبة: المعارف ص٢١ ـ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ١٠٦/١.
المقريزي: الخطط ٢٩٨/١ ـ ياقوت: المقتضب من جمهرة أنساب العرب (مخطوط) ٤٣٥.
السيوطي: لب اللباب ص٢٧٨، البغية ص٣٤٦ ـ المسعودي: مروج الذهب ٣٠٩/١.
الآمدي: المؤتلف والمختلف ٩٤، ٩٥. البتاني: محادثة أهل الأدب ص٨٤، ٩٧، ٩٨.

(١٤) العرب قبل الإسلام ص٢٠٢.

(١٥) معجم قبائل العرب ١٣٣/١، ٣٦٢ ـ ٥٢٠/٢، ٦٢٧ ـ ٩٤٤/٣، ١٠١٠، ١٠٦٠.

(١٦) تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٢٩/٣.

عرفت به هذيل بين العرب.

* * *

وقد قصدت من وراء هذا الجمع بين آراء القدامى والمحدثين تقرير نسب هذه القبيلة العدنانية، وبيان مكانها من مضر التي استقرت قبائلها - كما سيأتي - في تهامة والحجاز ونجد، وسيكون لهذا أثره في معرفة ما لهذه القبيلة من صلة بجيرانها في المكان، وشقيقاتها في ذلك النسب المضري الذي اشتهرت به بين أبناء عدنان من العرب.

بطونها:

إذا كان الحديث في نسب هذيل كما رأيناه حديثاً واضحاً، لا يكاد يختلف عليه اثنان من بين المراجع العربية في القديم والحديث، فإن عشائر هذه القبيلة، وفصائلها، وبطونها تختلف فيها - نظراً لكثرتها - وجهات النظر بين أصحاب الأخبار والأنساب اختلافاً هيناً لا يؤثر في جوهر الموضوع، ولا يطمس وجه الحق فيه، فمن المراجع ما يقتصر على ذكر العمائر الكبرى للقبيلة، ويتنكب ما تحت هذه العمائر من بطون، وفصائل، وأفخاذ، ومنها ما يعرض هذه البطون، وتلك الفصائل والأفخاذ عرضاً سريعاً مجملاً ضارباً صفحاً عن التفصيل فيها، والإمعان في تعدادها، وبعضهم يمعن في ذلك إمعاناً قد يوهم القارىء أن بينه وبين غيره من المراجع خلافاً ذا بال. والمسألة - على هذا النحو - لا تعدو أن تكون مسألة تعميم أو تخصيص في ذكر النسب يظهر من ورائه خلاف لفظي بين أصحاب الأنساب.

ولكنّ هناك خلافاً آخر مرده إلى الخطأ في نسبة بعض البطون إلى هذيل أو عدم نسبتها إليها، أو جعل الصلة بينها وبين هذه القبيلة صلة الحلف والجوار لا صلة القرابة والنسب، أو التصحيف والتحريف في أسماء بعض هذه البطون تصحيفاً أو تحريفاً يؤدي إلى التكرار في الاسم الواحد بصور وأشكال متقاربة في الحروف تكراراً يحدث شيئاً من الاضطراب

والخلاف ، ولكن ليس من العسير أن نصل إلى وجه الحق فيه . وسنقصد إلى ذلك كله في شيء من التفصيل بعرض وجهات النظر ، وسرد آراء أصحاب النسب والأخبار وغيرهم ممن أدلوا بدلوهم في الموضوع .

بطون هذيل كما يصورها الشعر :

الحق إن هذيلاً ذات طوائف كثيرة ، وبطون وعشائر متعددة تعدداً يلفت النظر ، ويثير الانتباه ، ولقد أشار إلى هذه الكثرة الكاثرة شعر الشعراء الذين تعرضوا لهذيل مادحين أو قادحين ، بل أشار إليها شعر الهذليين أنفسهم ، ومن ذلك قول مالك بن خالد الخناعي :

فأي هذيل وهي ذات طوائف ... يوازن من أعدائها ما نوازن(١٧)

وكثير من هذه العشائر والفصائل والبطون يأتي ذكره في الشعر الهذلي كلما جدت مناسبة تدعو إلى ذكرها اعتزازاً بها من الشعراء الذين ينتمون إليها ، أو انتقاصاً لشأنها على لسان الشعراء المناهضين لهذيل ، أو على لسان بعض الشعراء الهذليين أنفسهم ممن ينتمون إلى بطون وأفخاذ أخرى قد يكون بينها وبين أبناء عمومتها ما يدعو إلى التعريض بها أو النيل منها .

ومن أهم بطون هذيل التي وردت في الشعر الهذلي لحيان في قول مالك بن خالد الخناعي :

فدى لبني لحيان أمي فإنهم ... أطاعوا رئيساً منهمُ غير عُوّق(١٨)

ومن بينها عمرو ، وقِرْد ، ومازن ، ولحيان هذه في قول صخر الغي ردّاً على أبي المثلم ، وكلاهما هذلي :

أبت ليَ عمرو أن أضام ومازن ... وقرد ولحيان وفهم فسلِّم

---

(١٧) ابن دريد : الجمهرة (زون) ٣/٢١ - البكري : التنبيه ص١٣٠ - شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ١٥٤ .

(١٨) ديوان الهذليين ٣/٢٢٥ .

فقد ذكر السكري أن هذه كلها أسماء قبائل من هذيل[١٩]، ولكن السكري غير موفق في هذا التعميم الذي أوحى به إليه، وورطه فيه ورود هذه الأسماء على لسان شاعر من هذيل، فألقى القول على عواهنه دون تمحيص. والحق أن فهماً ليست من بطون هذيل، ولم يقل بذلك أحد من النسابين، وإنما هي بطن من بطون قيس كانت تجاور هذيلاً، ولها معها وقائع وأيام مشهورة[٢٠] ومن رجالها تأبط شراً ذلك الشاعر الصعلوك الذي كان له مع هذيل شأن أي شأن[٢١].

وقرد ومازن السابقتان وردتا في شعر أبي ذؤيب:

نماه من الحيين قرد ومازن ليوث غداة البأس بيض مصادق[٢٢]

ومن هذه البطون بنو خناعة في قول صخر الغي:

لو أن أصحابي بنو خناعه أهل الندى والجود والبراعه[٢٣]

فخناعة حي من هذيل[٢٤].

وللسكري في هذا البيت رواية أخرى:

لو أن أصحابي بنو خزاعه أهل الندى والمجد والبراعه

وقد أتبع البيتَ على هذه الرواية قوله: «خزاعة حي من هذيل»[٢٥]، ولعل هذا تصحيف وقع فيه.

وإلى جانب ما سبق من بطون: «بنو برد» في قول حذيفة بن أَنَس:

---

(١٩) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٢٢٥.
(٢٠) العرب قبل الإسلام ص١٩١. البقية ص٤٨.
(٢١) البقية ص٤٥.
(٢٢) اللسان (صدق).
(٢٣) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص٢٣٦.
(٢٤) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ١١٦.
(٢٥) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص٢٣٥.

فرّت بنو قرد وبرد ومـــــازن ولحيان والفلح الشفاه الجآنب[٢٦]

ومنهم بنو سهم وجُرَيب ، وعِشرِق ، وخثَيم في قول حُذيفة هذا :

وفرّت بنو سهم يجرّدن ساهفـــــــــــا . . .

وفرّت جريــــب بعـــدمـــا قـــال رَجْلهم . . .

وفرّت خثـــــــــيم يحطمون وعشرق . . .[٢٧]

وخثيم هذه جاءت على لسان أبي ذؤيب :

عـــلى أن الفـــتى الخثمي سلّي بنصل السيف حاجة من يغيب[٢٨]

وفي قول ساعدة بن العَجلان :

ومـالـك إذ عرفـت بـني خثـيم وإيـاهم عـلى عمـد تكيـد[٢٩]

ومن هذه البطون بنو معاوية في قول صخر :

لو أن أصحـــابي بنو معـــاويـــه أهـــل جنوب نخلـــة الشآميـــه

مـــا تركوني للكـــلاب العـــاويـــه ولا لـــبرذون أغر النـــاصيـــه[٣٠]

وقد جاء في شرح أشعار الهذليين أن معاوية هذه حي من هذيل[٣١] .

ومن هذه البطون تميم في قول صخر نفسه رداً على أبي المثلم :

أبـــا المثلَّم إني غـــــير مهتضم إذا دعوت تميماً سالـــــت المسل[٣٢]

وتميم هذه هي تميم هذيل (تنسب إلى تميم بن سعد بن هذيل) ، فهي غير تميم القبيلة الكبيرة المشهورة .

---

(٢٦) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ٢٢٥ .

(٢٧) المرجع السابق ، نفس الورقة .

(٢٨) ديوان الهذليين : القسم الأول ص٩٦ .

(٢٩) المرجع السابق : القسم الثالث ص١٠٥ .

(٣٠) المرجع السابق : القسم الثاني ، ص٢٣٦ .

(٣١) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ، ص٣١ .

(٣٢) المرجع السابق ص٢٤ .

ومنها كبير بن هند في قول المتنخِّل:

لكنْ كبير بن هند يوم ذلكُمُ فتُخ الشمائل في أيمانهم روَح[33]

وفي قول صخر:

أبلغ كبيراً عني مغلغلة تبرُق فيها صحائفٌ جدد[34]

وكاهل في قول أبي ذؤيب:

وإن غلاماً ينيل في عهد كاهل لطرف كنصل المشرفي صريح[35]

وكاهل هذه مع قرد في قول أبي ذؤيب أيضاً:

وقائلة ما كان حذوة بعلها غداتئذٍ من شاء قرد وكاهل[36]

وكاهل ومعها عمرو في قول قيس بن خويلد (ابن العيزارة) الهذلي:

بني كاهل لا تنغلنّ أديمها ودع عنك أفصى ليس منك أديمها

★ ★ ★

جدت بني عمرو على أن تصالحوا وإني سألحي كاهلاً وألومها[37]

وهما معاً في قول أبي قُلابة:

يُصاح بكاهل حولي وعمرو وهم كالضاريات من الكلاب[38]

ومن هذه البطون أيضاً عُجرة في شعر أبي ذؤيب:

ويلُ امّ قتلى فويق القاع من عُشَر من آل عُجرة أمسى جدهم هُصِرا[39]

---

(33) التنبيه، ص80 - ديوان الهذليين: القسم الثاني، ص32.

(34) شرح أشعار الهذليين مخطوط ص13.

(35) ديوان الهذليين: القسم الأول ص114. أساس البلاغة، ص478.

(36) ديوان الهذليين: القسم الأول ص82.

(37) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص295.

(38) ديوان الهذليين: القسم الأول، ص32.

(39) المرجع السابق، ص44.

وجُعثمة في قوله:

كـأن ارتجـاز الجعثميات وسطهم نوائح يجمعن البكا بالأزامل[٤٠]

فيذكر شراح شعر هذيل أن ارتجاز الجعثميات معناه أصوات القسيّ المنسوبة إلى حي من جعثمة من هذيل[٤١] وهناك رواية هي «الخثعميات» بالخاء المعجمة، وهي في الأصل المخطوط الذي أخذ عنه الديوان المطبوع، وهذه الرواية ذكرها صاحب التاج (مادة جعثم) إلا أنه يظهر عدم صحتها، إذ أن خثعم لا تنتسب إلى هذيل، ولا تنسب إليها القسيّ بخلاف «جُعثمة» بضم الجيم والثاء المثلثة إذ هي التي تنتسب إلى هذيل وتنسب إليها القسيّ[٤٢].

ومن تلك البطون «بنو قُريم» في شعر أبي بثينة الهذلي:

ألا أبلـغ لـديـك بـني قريم مغلغلـة يجيء بهـا الخبـير[٤٣]

وفي قول صخر:

لو أن حولي من قريم رَجْـلا بيـض الوجوه يحملون النبـلا
لمنعوني نجـدة ورِسلاً[٤٤]

وبنو زُلَيفة وبنو صُبح في قول أبي جندب:

من مبلـغ مـلائكي حُبْشيّـا أخـا بـني زليفـة الصُّبحيـا[٤٥]

* * *

هكذا يجد الباحث هذا العدد الجم من عشائر هذيل وبطونها ماثلاً في

---

(٤٠) ديوان الهذليين: القسم الأول ص٨٤.
(٤١) المرجع السابق (نفس الصفحة).
(٤٢) أنظر الحاشية رقم ٣ من ديوان الهذليين (طبع دار الكتب) القسم الأول، ص٨٤.
(٤٣) الآمدي: المؤتلف والمختلف ص٣٠. ـ ديوان الهذليين: القسم الثالث، ص٩٥.
(٤٤) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٢٤، ٢٥ ـ الإصابة ٣/٢٥٩.
(٤٥) ديوان الهذليين: القسم الثالث، ص٨٥.

الشعر الهذلي ، وقد سبقت الإشارة إلى أن ذكر هذه البطون في شعر هذيل إنما دفع إليه الفخر والهجاء ، أو ما شابه ذلك من مناسبات . وكثيراً ما نجدها وقد سُرد منها ما جاء في شعرهم سرداً قلما نستطيع معه تحقيق مكان كل من هذه الفصائل والبطون في شجرة القبيلة الأم ، ولكنا نفيد منه شيئاً هو نسبتها إلى هذيل ، كما نفيد شيئاً آخر هو تعدد هذه البطون الهذلية وكثرتها .

أما تنظيم هذه العشائر والفصائل والبطون ، وتنسيقها ، وردّ الفروع منها إلى الأصول ، وإسقاط ما تكرر منها ، أو ما كان دخيلاً عليها ، والتنبيه إلى ما قد نجده في بعضها من تحريف وتصحيف ، والعدول به إلى جادة الصواب ، فكل هذا مردنا فيه إلى المراجع الأخرى مع بذل كل ما نستطيع من جهد في تحقيق ما يتصل من ذلك بالموضوع .

بطون هذيل في المراجع الأخرى :

إذا جاوزنا شعر الهذليين إلى المراجع الأخرى وجدنا أن هذه العشائر والفصائل والبطون التي جاءتنا على لسان شعراء هذيل جاء ذكرها أيضاً في هذه المراجع مضافاً إليها بطون أخرى من الجائز أنها لم ترد في شعر الهذليين أنفسهم ، وقد ورد الكثير منها في كتب الأنساب ، كما جاء ذكر شيء منها في كتب الأدب ، والتاريخ ، والسِيَر ، والطبقات ، والتراجم، وفي معاجم اللغة التي عنيت بذكر أسماء القبائل التي تصادفها في ثنايا الحديث عن مادة لغوية يكون لها صلة بهذا الاسم أو ذاك من أسماء القبائل العربية ، وفي كتب النحو العربي إذا ما تناولت بالشرح والتعليق شاهداً من شواهد النحو والصرف ، وكان قائله من هذه القبيلة أو تلك ، أو ينتسب إلى هذا الفرع أو ذاك من فروع قبيلة بعينها كهذيل .

وإليك أهم القبائل الهذلية ، ورجالاتها المشهورين في الجاهلية والإسلام ، وكل هذه القبائل تؤول في أصلها إلى فرعين كبيرين هما سعد ولحيان .

لحيان :

إحدى القبائل الهذلية الهامة ، مرّ ذكرها في الشعر الهذلي ، كما جاء في كتب الأنساب[٤٦] وغيرها من المراجع الأخرى ، وقد اشتهرت بالشجاعة والبأس والنجدة ، والبغي أيضاً ؛ حتى قال فيهم الجمحي راوية شعر هذيل : «كان من شأن بني لحيان من هذيل أنها كانت شوكة من هذيل ، ومنعة وبغياً[٤٧]. ومنهم أبو ضب الهذلي[٤٨] الذي قيل «إنه لم يقتل قتيل من هذيل إلا قتل قاتله»[٤٩].

وهم الذين باغتوا نفراً من المسلمين ، وغدروا بهم[٥٠] في يوم الرجيع فبعث النبي إليهم بَعثاً[٥١] ، ثم غزاهم فاعتصموا برؤوس الجبال[٥٢]. وقد روي أن الرسول ﷺ كان يلعنهم لبغيهم وعدوانهم ، وعداوتهم لدعوة الإسلام إبان ظهوره[٥٣] ، وقد هجاهم بعض شعراء النبي مثل كعب بن مالك الذي ندد بفرارهم من جيش المسلمين في هذه الغزوة إذ يقول :

لو ان بني لحيان كانوا تناظروا   لقوا عُصبا في دارهم ذات مَصدَق
لقوا سَرَعاناً يملأ السرب روعه   أمام طحون كالمجرة فيلق
ولكنهم كانوا وباراً تتبعت   شعاب حجاز غير ذي متنفق[٥٤]

---

(٤٦) المبرد : نسب عدنان وقحطان ص٦ ، جمهرة أنساب العرب ، ص١٨٥ ، ٤٣٥ .
السيوطي : البغية ص٣٤٦ . الكامل لابن الأثير ، ٧٩/٢ . محادثة أهل الأدب ص٨٤ .

(٤٧) البقية ص١٣ .

(٤٨) ابتهاج النفوس ، ص٥١ .

(٤٩) البقية ص١١ .

(٥٠) الطبري ٢٩/٣ ، ٣٠ . سيرة ابن هشام ١٢٠/٢ . الأغاني ٤٢٨/٤ ، ٤٢٩ .
الكامل لابن الأثير ٧٩/٢ ، ٨٠ ،

(٥١) طبقات ابن سعد ٥٧/٣ ـ صحيح مسلم ٤٢/٦ .

(٥٢) البغية ص٥٦ ـ طبقات ابن سعد ٥٦/٣ ، ٥٧ ، مروج الذهب ٣٠٩/١ .
سيرة ابن هشام ، ١٦٤/٢ .

(٥٣) أسد الغابة ٩٣/٣ . طبقات ابن سعد ٣٧/٣ .

(٥٤) سيرة ابن هشام : القسم الثاني ص٢٨٠ .

وحسان بن ثابت الذي وسمهم بالغدر والخيانة والإثم حيث يقول:

لعمري لقد ساءت هذيل بن مدرك أحاديث كانت في خُبيب وعاصم
أحاديث لحيان صلوا بقبيحها ولحيان ركّانون شر الجرائم[55]

ويبدو أن بني لحيان كانوا متعصبين لوثنيتهم أكثر من سائر هذيل، وقد كان منهم سدنة سواع معبود هذيل في الجاهلية[56]، ومنهم خالد بن سفيان بن نُبَيح الهذلي اللحياني، الذي كان يجمع الجموع - بعد غزوة أُحد - من لحيان وغيرهم بعُرَنة وما والاها لحرب المسلمين؛ فبعث النبي عبد الله بن أُنيس، فاحتال حتى قتله وأراح المسلمين من شره وخطره[57].

بطون لحيان:

يذكر علماء الأنساب وغيرهم من بطون لحيان «طابخة، ودابغة»[58]، ومن رجالات طابخة في الجاهلية المتنخل الهذلي[59] أحد مشاهير هذيل، وعمه أبو قُلابة الهذلي سيد بني هذيل، وأول من قال الشعر فيهم - فيما يقال - وقد روى أن ابنته أميمة هي إحدى جدات النبي البعيدات من قِبَل أمه[60]؛ ولهذا فإن بعض رواة الأخبار كالجمحي يعتبر بني لحيان هؤلاء أخوالاً للنبي[61]، مع أن النسب بينه وبينهم - كما نرى - جد بعيد.

ومن رجالات طابخة في الإسلام أسامة بن عمير، وينتمي إلى كبير بن هند أهم بطون طابخة[62]، وهو - كما يقول البخاري - من أصحاب النبي

---

(55) أسد الغابة ٣/٧٤ - سيرة ابن هشام: القسم الثاني ص١٢٤، ١٧٩. الإصابة ٤/٣.

(56) ابن الكلبي: الأصنام ص٩ - بلوغ الأرب في أحوال العرب ٢/٢١٧.

(57) طبقات ابن سعد ٣/٣٥. سيرة ابن هشام ٣/٨٣. حياة الحيوان ٢/٢٣٤.

(58) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص١٨٥.

(59) اليعقوبي ص٣٠٩ - المؤتلف والمختلف ص١٧٨ - الخزانة ٤/١١٠
الشعر والشعراء ص١٥٦ - اللسان، تاج العروس (نخل).

(60) جمهرة أنساب العرب ص١٨٥. أسد الغابة ٤/٣٦١. طبقات ابن سعد ١/٣٣.
المؤتلف والمختلف ص٢٤٥.

(61) البقية ص٢٨.

(62) الإصابة ١/٣٠ - سيرة ابن هشام (على هامش الروض الأنف) ١/٢٠١.

ﷺ ، وقد روى حديثه أصحاب السنن وغيرهم[٦٣] . وقد أثبت ابن حزم أيضاً صحابته للنبي[٦٤] ، وإلى هذا كان فقيهاً شريفاً في قومه[٦٥] . وابنه أبو المُليح الهذلي الصحابي المحدّث[٦٦] .

ومن كبير بن هند أيضاً حَمَل بن مالك ، وهو من أهل الصحبة ، والرواية عن النبي[٦٧] ، وقيل إن ابن عباس قد روى عنه[٦٨] ، وقد استعمله النبي على صدقات هذيل[٦٩] .

ومن طابخة أيضاً أبو عزة الهذلي الصحابي المحدّث ، وقد روى عنه أبو المليح الهذلي السابق الذكر[٧٠] . ومنهم سلمة بن صخر الذي شهد حُنيناً مع النبي ﷺ ، وشهد أيضاً فتح المدائن مع سعد بن أبي وقاص[٧١] .

أما البطن الآخر « دابغة » فمنه « نُبَيشة الخير » الصحابي ، وابن عمه سلمة بن المحبِّق الهذلي[٧٢] ، وأخوه سنان بن المحبق ، ويذكر ابن حزم أن المحبّق المذكور ، وابناه سلمة وسنان قد روي عنهم الحديث[٧٣] .

وسنان هذا كان من الولاة والقواد الفاتحين أيام معاوية ، وفي ذلك يطالعنا صاحب فتوح البلدان بأنه قد «ولى زياد بن أبي سفيان أيام معاوية سنان بن المحبق الهذلي ، وكان فاضلاً متألهاً ... أتى الثغر ، ففتح مكران

---

(٦٣) الإصابة ١/ ٩ .
(٦٤) جمهرة أنساب العرب ، ص١٨٥ .
(٦٥) سبائك الذهب ص٢٣ .
(٦٦) جمهرة أنساب العرب ص١٨٥ . أسد الغابة ٢/ ٥٢ .
(٦٧) أسد الغابة ٢/ ٥٢ .
(٦٨) تاج العروس (حمل) .
(٦٩) الإصابة ٢/ ٣٨ .
(٧٠) أسد الغابة ٩/ ٢٥٣ .
(٧١) المرجع السابق ، ٢/ ٣٣٨ .
(٧٢) المرجع نفسه ٥/ ١٣ .
(٧٣) جمهرة أنساب العرب ص١٨٥ ، ١٨٦ .

عنوة، ومصَّرها، وأقام بها، وضبط البلاد[٧٤]. ويذكر الزَّبيدي أنه «ولد يوم الفتح فسماه الرسول ﷺ سناناً، وكان شجاعاً، وقد ولي غزو الهند في سنة خمسين هجرية»[٧٥].

ومن رجال لحيان من العلماء العالم اللغوي علي بن المبارك «اللحياني». «أخذ عن الكسائي، وأبي زيد، وأبي عمرو الشيباني، والأصمعي، وأبي عبيدة، وأخذ عنه القاسم بن سلام، وله النوادر المشهورة»[٧٦] في المحيط اللغوي.

★ ★ ★

سعد بن هذيل:

من البطون الهذلية الهامة، وهو نظير لحيان في الانتماء رأساً إلى أصل هذه القبيلة الأم، ويبدو أن سعداً هذا قد سمي تيمناً باسم صنم كانت تعبده هذيل في الجاهلية[٧٧]. وتلك ظاهرة نجدها واضحة في أسماء العرب في العصر الجاهلي.

وسعد هذا كان كثير الأبناء والأحفاد، متعدد البطون والأفخاذ، وإن ذلك ليبدو واضحاً لكل من ألقى نظرة في كتب التاريخ والأخبار والأنساب، ومن ذلك ما يذكره اليعقوبي في تاريخه: «وأما هذيل بن مدركة، فإن العدد منهم في بني سعد بن هذيل، ثم في تميم بن سعد، ثم في معاوية بن تميم، والحارث بن تميم»[٧٨].

وحين يتناول ابن قتيبة أنساب هذيل نرى من ذلك قوله: «فولد

---

(٧٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٣٨.

(٧٥) تاج العروس (سنن).

(٧٦) البغية ص٣٤٦.

(٧٧) اللسان (سعد). المخصص ٨٧/١٣.

(٧٨) اليعقوبي ص٣١٣.

سعد بن هذيل تميم بن سعد ، وحريث بن سعد ، ومنعة بن سعد ، وخزاعة بن سعد ، وجهامة بن سعد ، وغنمة بن سعد » ثم يشير إلى البطون الكثيرة العدد من هؤلاء ، فيقول : « والعدد في تميم ومعاوية والحارث »[٧٩] . وهو في عجز كلامه يوافق اليعقوبي تمام الموافقة .

فمن بطون سعد عند ابن قتيبة ومن وافقه « حُريث »[٨٠] ، وعند ابن حزم « خُريب » ، وقد ذكر أن من ولده أبا كبير الهذلي الشاعر[٨١] . وفي المصادر الأخرى « جُريب »[٨٢] ، وينتسب إليه عبد مناف بن رِبع الهذلي الجربي[٨٣] ، وأبو كبير الهذلي السابق ذكره[٨٤] .

ونجد في بعض المصادر أن من بطون سعد بن هذيل خفاجة ، وإليه ينسب أبو العيال الهذلي الشاعر المعروف[٨٥] .

ومن بطون سعد خُناعة[٨٦] ، وقد جاء في بعض المراجع ـ مصحّفاً ـ خزاعة[٨٧] ، وينتسب إلى خناعة هذا مالك بن خالد الخناعي[٨٨] ، والبُريق الهذلي[٨٩] الشاعران ، ومنهم عامر بن سدوس الذي كان يُعْزى هو ورهطه إلى خزاعة[٩٠] ، وقتادة بن عامر بن سدوس الذي كان عالماً ثقة بأنساب

---

(٧٩) المعارف ص٢٢ .

(٨٠) العقد ٥٧/٢ ـ المعارف ص٢٢ . ديوان الهذليين : القسم الثاني ص١٦٤ .
شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٩ . الرضي : شرح الشافية ، ٢٩/٢ .

(٨١) جمهرة أنساب العرب ص١٨٦ .

(٨٢) البقية ص٩ . الخزانة (السلطية) ١٧٤/٣ .
ديوان الهذليين : القسم الثاني ص٤٣ . ابن سيده : المخصص ٢٣٥/١٣ .

(٨٣) البقية ص٥٦ ـ ديوان الهذليين : القسم الثاني ص٣٨ .

(٨٤) المرجع الأخير ص٨٨ .

(٨٥) حواشي المرجع السابق ص٢٤١ .

(٨٦) اللسان ، وتاج العروس (خنع) . الخزانة ٢٣٣/٤ ـ الشعر والشعراء ص١٥٦ . معجم قبائل العرب ٣٦٢/١ .

(٨٧) العقد ٥٧/٢ ـ المعارف ص٢٢ ـ شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٣٢ .

(٨٨) شرح أشعار الهذليين ص١٤٨ ـ ديوان الهذليين : القسم الثالث ص١ ـ الخزانة ٢٣٣/٤ .

(٨٩) ديوان الهذليين : القسم الثالث ص٥٤ .

(٩٠) المرجع السابق ص٥١ ـ شرح أشعار الهذليين ص٢٧٩ .

العرب وأيامها والذي قال فيه السيوطي: «لم يأتنا عن أحد من علم العرب أصح من شيء أتانا عن قتادة»[٩١]. ومن بطون خناعة هذه بنو أرمداء[٩٢].

ومن بطون سعد كذلك رهم، ومنهم المعطل الهذلي[٩٣] أحد مشاهير شعراء هذيل.

ومن بطونها أيضاً تميم[٩٤]، (وتميم هذه هي غير تميم القبيلة الكبيرة المعروفة). ومن تميم هؤلاء ساعدة بن العجلان الشاعر الهذلي[٩٥].

ومن بطون تميم معاوية[٩٦]، ومن معاوية بنو حُنيف بن معاوية[٩٧]، وبنو قرد[٩٨] بكسر القاف وسكون الراء، وفي اللسان بفتحهما[٩٩]، وقرد هذا هو عمرو بن معاوية[١٠٠] وينسب إليه أبو ذؤيب الهذلي كما جاء في بعض المراجع[١٠١]، وإن كان الراجح غير ذلك كما سيأتي بعد. ومن نسله أبو خراش الهذلي (خُويلد بن مرة)، وهو مخضرم مات في عهد عمر[١٠٢]، وأبو جندب[١٠٣]، وهما أخوان من بني مرة القردي الذين قيل إنهم كانوا

---

(٩١) المزهر ٢١٠/٢.

(٩٢) شرح أشعار الهذليين ص١٢.

(٩٣) الجمهرة ص١٨٦ - شرح أشعار الهذليين ص٢٨٦ - ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٤٠.

(٩٤) الجمهرة ص١٨٦ - نهاية الأرب ص١٨٨ - سمط اللآلي ٢٣٣/١ - أسد الغابة ١٥٧/٤. المعارف ص٢٢.

(٩٥) سمط اللآلي ٢٣٣/١.

(٩٦) الجمهرة ص١٨٦.

(٩٧) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٢٨٨ - البقية ص٥٤.

(٩٨) تاج العروس (قرد).

(٩٩) اللسان (قرد).

(١٠٠) حواشي السمط ٢١٦/١. تاج العروس واللسان (قرد).

(١٠١) الخزانة (السلفية) ٤٠٠/١. ديوان الهذليين: القسم الثاني ص١١٦.

(١٠٢) تاج العروس (خرش). الخزانة ٤٠٠/١. ديوان الهذليين: القسم الثاني ١١٦/٢. الزركلي: الأعلام ٣٠١/١.

(١٠٣) الأصنام ص١٩. ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٨٥.

دهاة شعراء يعدون عدْواً شديداً[١٠٤].

ومن معاوية أيضاً بنو مازن[١٠٥] بن معاوية، ومن هؤلاء أبو شهاب المازني[١٠٦].

ومن معاوية كذلك بنو سهم بن معاوية كما تقول عامة المصادر[١٠٧]، إلا صاحب السمط الذي انفرد بأنه ابن مرة بن معاوية[١٠٨].

وكان بنو سهم أبطالاً مغاوير، فقد دوخوا بعض القبائل المجاورة لهم من خزاعة وغيرها[١٠٩]. وكانت فيهم شهامة ونجدة، وقد أسروا كثيراً من كندة وحمير والحبش الذين كانوا في جيش أصحاب الفيل، ثم فروا - كما قيل - في جبال هذيل، فقتل منهم من قتل، وأسر من أسر، ثم خرج بأسراهم معقل بن خويلد السهمي سيد هذيل آنذاك، وكان - كما ورد في شرح أشعار الهذليين - أحد اثنين كلاهما من هذيل وفدا بهؤلاء الأسرى على النجاشي لافتداء أسرى قومهم العرب[١١٠] وقد نجد في ديوان الهذليين ما يقارب ذلك من أن معقلاً هذا «هو الوافد على النجاشي، وفد عليه في أسرى كانوا من قومه، فكلمه فيهم، فوهبهم له»[١١١].

ويبدو أن كثيرين منهم كانوا سادة في هذيل يتوارثون السيادة كابراً عن كابر، فقد كان خويلد بن واثلة بن مطحل السهمي سيد هذيل في

---

(١٠٤) تاج العروس (خرش).

(١٠٥) الجمهرة، ١٣٦/٢ - تاج العروس (صهل).

(١٠٦) الجمهرة ١٣٦/٢.

(١٠٧) البقية ص٥٤، ٥٦، ٥٧ - ديوان الهذليين ٣٠/٣. شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ١٠٣، ١١٢، ٢٦٣.
الشعر والشعراء ص١٥٧.

(١٠٨) سمط اللآلي ٣٩٩/١.

(١٠٩) البقية ص٥٦.

(١١٠) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص١١٢.

(١١١) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٦٨.

زمانه[١١٢]. وقد كان هو، وسيد كنانة رفيقين لعبدالمطلب بن هاشم في لقاء أبرهة عام الفيل لمفاوضته[١١٣]. وقد ورث السيادة عنه ابنه معقل بن خويلد[١١٤]، وكان حامياً للذمار، وله في ذلك مواقف محمودة، فحين هاجمت سليم بني لحيان من هذيل هبّ في قومه مدافعاً عن بني عمومته على الرغم مما كان بينه وبين سليم من موادعة، فاضطر سليماً إلى أن يولوا مدبرين. وفي ذلك يقول معقل:

تقول سليم سالمونا وحاربوا ... هذيلاً ولم تطمع بذلك مطعما
فأما بنو لحيان فاعلم بأنهم ... بنو عمنا من يرمهم يرمنا معاً[١١٥]

وكثيراً ما كان يخرج معقل هذا في نفر من أشراف بني سهم للصلح بين المتحاربين من قومه[١١٦].

ومن بني سهم هؤلاء بنو مُرمِّض، ويرجع إليهم في النسب أبو صخر الهذلي[١١٧]، وعبدالله بن عتبة ذو المجنين الذي قيل إنه سمي بذلك لأنه كان يحمل ترسين في الحرب[١١٨].

★ ★ ★

والآن - وقد انتهينا من بطون معاوية بن تميم - نعود إلى تميم هذا لنجد من أبنائه أيضاً الحارث بن تميم[١١٩]، وهذا الحارث هو أول من ابتدع - فيما يقال - عبادة سواع في هذيل، ومن جاورها من العرب آخذاً ذلك عن

---

(١١٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ص١٥٧.
(١١٣) تاريخ ابن خلدون ٦٢/٢. بلوغ الأرب ٢٧٢/١.
(١١٤) الشعر والشعراء ص١٥٧.
(١١٥) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ١٠٢.
(١١٦) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٧٠.
(١١٧) البقية ص٧٥.
(١١٨) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٦٥.
(١١٩) اليعقوبي ص٣١٣.

عمرو بن لُحيّ الخزاعي الذي زعموا أنه أول من نصب الأصنام للعرب[١٢٠].

ومن أبناء الحارث بنو مالك بن الحارث بن تميم، ومنهم مالك بن الحارث الشاعر الهذلي[١٢١]، ومن الحارث أيضاً كاهل بن الحارث، بكسر الهاء (وقد يكون بفتحها)[١٢٢]. ومن كاهل هؤلاء قيس بن العَيزارة الهذلي[١٢٣]، وينسب إليهم في بعض المصادر مالك بن الحارث السابق الذكر[١٢٤].

ومن بطون كاهل بنو صاهلة بن كاهل[١٢٥]، وينسب إليهم في بعض المصادر أبو ذؤيب الهذلي[١٢٦].

ومن بطون صاهلة بنو قريم بن صاهلة[١٢٧]، ومنهم غافل بن صخر، وهو سيد من أشرافهم، كان ثاني اثنين من هذيل وفدا على النجاشي - كما سبقت الإشارة - ومعهما أسرى كندة وحمير والحبش لفداء أسرى كنانة[١٢٨]، ومنهم أم عبد والدة عبد الله بن مسعود الصحابي الهذلي المشهور[١٢٩].

ومن أهم بطون صاهلة بنو مسعود أو المسعوديون، ومن هؤلاء المسعوديين كثير من الصحابة والتابعين، وعلماء الإسلام وأعلامه، فينتمي إلى صاهلة عن طريق مسعود هذا عبدالله بن مسعود الصحابي[١٣٠] القارىء

---

(١٢٠) السويدي: سبائك الذهب ص١٠٤.
(١٢١) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٢.
(١٢٢) شرح المفصل ١٠٣/٢.
(١٢٣) المؤتلف والمختلف ص٣٢٦.
(١٢٤) المرجع السابق نفس الموضع.
(١٢٥) تاج العروس (كهل).
(١٢٦) ابن دريد: الملاحن ص٩٣.
(١٢٧) البقية ص٢٧، ٤٩.
(١٢٨) تاج العروس (غفل)، شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص١١٢.
(١٢٩) تاج العروس (غفل)، أسد الغابة ٦٠٠/٥، طبقات ابن سعد ٣٦٦/١٣.
(١٣٠) جمهرة أنساب العرب ص١٨٦ - ابن حجر: الإصابة ١٢٩/٤ - أسد الغابة ٢٥٦/٣ وما =

الفقيه المحدّث ، وأخواه عتبة بن مسعود ، وعميس بن مسعود[١٣١] ، ومن ولد عبد الله بن مسعود عبدالرحمن المكي المحدث[١٣٢] ، والقاسم بن معن بن عبدالرحمن الذي قال عنه السيوطي إنه «كان من علماء الكوفة بالعربية ، واللغة ، والفقه ، والحديث ، والشعر ، والأخبار ؛ ومن الزهاد والثقات . . . »[١٣٣] وابنه عبدالرحمن بن القاسم المحدِّث[١٣٤] ، وأبو عبيدة بن معن بن عبدالرحمن ، وهو قارىء من الثقات[١٣٥]، وكان القاسم السابق ذكره قاضياً للكوفة ، ويقال إنه لم يأخذ للقضاء رزقاً مدة ولايته[١٣٦] . ومن عقب عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود أيضاً المسعودي المؤرخ صاحب مروج الذهب[١٣٧] .

ومن ولد عتبة بن مسعود عبدالله بن عتبة التابعي المحدّث الثقة الرفيع القدر ، روى عن عمر وابن مسعود[١٣٨] ، وقد ولاّه عمر على السوق[١٣٩] ، ثم كان قاضياً لمصعب بن الزبير على الكوفة[١٤٠] . ومنهم عبيدالله بن عبدالله بن عتبة العالم الفقيه الشاعر الذي كان أحد مشاهير فقهاء المدينة[١٤١] ، وكان من العلماء بالأخبار والأنساب[١٤٢] ، وهو من أجلّ شيوخ الزهري ، وكان

= بعدها .
تاج العروس (صهل) . السهيلي : الروض الأنف ١/١٦٦ .

(١٣١) جمهرة أنساب العرب ص١٨٦ .
(١٣٢) ابن الجزري : طبقات القراء ١/٤٨٥ . طبقات ابن سعد ١/١٢٥ . أسد الغابة ٢٥٦ .
(١٣٣) البغية ٣٨١ .
(١٣٤) ابن حجر : تعجيل المنفعة ص٢٥٥ .
(١٣٥) طبقات القراء ١/٦٠٢ .
(١٣٦) شذرات الذهب ١/٢٨٦ .
(١٣٧) الجمهرة ص١٨٦ .
(١٣٨) طبقات ابن سعد ١٠/٨٢ .
(١٣٩) الإصابة ٤/١٠٠ .
(١٤٠) أسد الغابة ٢/٣١٦ ـ طبقات ابن سعد ١٠/٨٢ .
(١٤١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/٢٠٦ .
(١٤٢) الجاحظ : البيان والتبيين ١/٣٦٩ .

أثيراً لدى أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، يقدِّر له علمه، ويعرف له فضله[١٤٣]. وأخوه عون بن عبدالله بن عتبة، وكان خطيباً راوية ناسباً شاعراً[١٤٤].

ومن ولد عُميس بن مسعود عمرو بن عميس، وكان والياً على القطقطانة (قرب الكوفة) أيام علي، فقتله هناك الضحاك بن قيس الفهري عامل معاوية[١٤٥].

* * *

والآن - وقد أتينا على صاهلة بن كاهل وبطونها - نصعد إلى كاهل مرة أخرى لنرى أن من بطون كاهل أيضاً عمرو بن كاهل بن الحارث[١٤٦]، ومن عمرو هؤلاء بنو عامر بن عمرو، وإليهم ينتمي حذيفة بن أنس الهذلي أحد شعراء هذيل[١٤٧]. وقد نسبه بعضهم رأساً إلى عمرو[١٤٨]. وليس هنالك فرق كبير، فأصل النسب في الحالين واحد لم يتغير. ومن بني عمرو أيضاً زهير بن العجوة الهذلي الذي قتله جميل بن معمر الجمحي يوم حنين حين وجده مربوطاً في الأسرى، وكان زهير قد خرج يطلب الغنائم والأسلاب[١٤٩].

ومن بني عمرو خُثيم بن عمرو[١٥٠]، ومن خثيم هؤلاء حبيب بن عبد الله «الأعلم الهذلي»، وأخوه صخر الغي[١٥١]، وينسبان في بعض المصادر رأساً

(١٤٣) العقد ٢٠٦/١.
(١٤٤) البيان والتبيين ٣٤٣/١، ٣٤٤.
(١٤٥) الجمهرة ص١٨٦.
(١٤٦) العقد ١٠٦/٣ - شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص١٠٤.
(١٤٧) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص١٨.
(١٤٨) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٢٢٨.
(١٤٩) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص١٤٨. سيرة ابن هشام ٢١/٣. الأغاني ٥٨/٢١.
(١٥٠) شرح أشعار الهذليين: (مخطوط) ص٧٠. ديوان الهذليين: القسم الأول ص٧٦. تاج العروس (خثم).
(١٥١) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص٥١، ٧٧ (حاشية ١). شرح أشعار الهذليين للسكري =

إلى عمرو[١٥٢]، ولعل هذا من التسامح المعروف حتى الآن من نسبة الحفيد إلى الجد - لا إلى الأب - لا سيما إذا كانت شهرة الجد أكبر.

* * *

ونصعد إلى كاهل مرة ثالثة لنجد من بطونه بني كعب بن كاهل، وممن ينتسبون إلى كعب هذا ساعدة بن جؤية الهذلي[١٥٣] الشاعر المعروف بين شعراء هذيل.

ومن بطون كاهل أيضاً بنو صبح بن كاهل[١٥٤]، وقد كان صبح هذا من سادات هذيل في الجاهلية[١٥٥]. ومن بني صبح هؤلاء أبو بكر الهذلي الفقيه[١٥٦] الإخباري[١٥٧] الذي كان يروي علم الأخبار والأنساب عن قتادة[١٥٨].

وبنو صبح هؤلاء ينحدر منهم بنو زليفة بن صبح[١٥٩] ويذكر ابن حزم أن ديارهم كانت حول مكة، ولهم بها عدد وعدة ومنعة[١٦٠]، كما يذكر المسعودي أن الرياسة في هذيل كانت فيهم[١٦١].

* * *

= (طبع أوروبا) ص٦.

(١٥٢) المؤتلف والمختلف ص٩٤.

(١٥٣) ديوان الهذليين: القسم الأول ص١٦٧ - الخزانة ٣/٧٦. ابن جني: المنصف ٣/٢٣٤.

(١٥٤) نهاية الأرب ص٣١٢. معجم قبائل العرب ٢/٦٣٠ - الجمهرة ص١٨٧.

(١٥٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/٣٠١.

(١٥٦) نهاية الأرب ص٣١٢ - الجمهرة ص١٨٧.

(١٥٧) شذرات الذهب ١/٢٦٤.

(١٥٨) السيوطي: المزهر ١/٢١٠.

(١٥٩) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٩٥.

(١٦٠) الجمهرة ص١٨٧.

(١٦١) مروج الذهب ٢/١٥٥.

تلك هي أهم العشائر والبطون المشهورة في هزيل، ولكننا نجد إلى جانب ذلك اشارات سريعة في الشعر الهذلي، أو في المصادر الأخرى تشير إلى بطون وأفخاذ ليست بذات خطر، فلم تنسب إلا إلى هذيل نسبة عامة دون تخصيص أو تحديد، وقد يحوم حولها بعض الشك ما دامت لا تأخذ مكانها في سلسلة النسب من هذيل. ومن هذه العشائر دهمان(١٦٢) وبعجة(١٦٣)، وجعثمة(١٦٤)، وأسامة بن لُعْط(١٦٥)... الى غير ذلك من الإشارات العابرة التي لا تستحق الوقوف عندها؛ ولهذا نجتزىء منها بهذا العرض السريع.

* * *

هذيل والمراجع الحديثة:

ولكن ينبغي أن نقف وقفة قصيرة عند ما ورد في بعض المراجع الحديثة بشأن هذيل وبطونها حيث يطالعنا صاحب معجم قبائل العرب بأن هذيلاً تنقسم قسمين: شمالي، وجنوبي... ويتألف القسم الشمالي من سبعة أفخاذ: المطارفة، والمساعيد، والسواهر، ولحيان، وعمرو أو عمير، والجنابر. أما القسم الجنوبي فيدعى هذيل اليمن ويتألف من الأفخاذ الآتية: النُّدوبة، ودعد، والسراونة، والعاهلة، وجميل(١٦٦).

وإنا لنجد في كثير من هذه الفروع غرابة تبعد بنا كثيراً عما ذكرنا من بطون هذيل، ولكن واقع الأمر أن هذا كلام منقول بنصه في شيء من الإيجاز - عن بعض مراجع أخرى حديثة، تتحدث عن القبائل العربية التي

---

(١٦٢) اللسان (دهم).

(١٦٣) ديوان الهذليين: القسم الأول ص٨٦.

(١٦٤) اللسان (جعثم).

(١٦٥) تاج العروس (لعط).

(١٦٦) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب ١٢١٣/٣.

تقطن المملكة العربية السعودية الآن[١٦٧]. وليس هنالك من شك يمكن ان يثور حول ما ذكرنا من قبائل هذيل؛ لأن هذه الأزمان المتطاولة، والآماد البعيدة بين العصر الجاهلي، والعصر الحديث لا بد أن يكون لها أثر كبير في تغيير أسماء هذه الفروع التي تشعبت وتشابكت، أو تباعدت ودخلت في غيرها، أو دخل غيرها فيها، فاكتسبت أسماء جديدة قد لا تمتّ الى أصلها القديم بأدنى صلة. هذا الى أن صراحة الأنساب لم تعد لها أصالتها الأولى.

وحسبنا أن نعرف أن صاحب «قلب الجزيرة العربية» حينما يعدد بطون ثقيف في عصرنا هذا يذكر منها بطناً يسمى هذيلاً، وآخر يدعى قريشاً[١٦٨]، فهل هناك صلة تقوم على هذا النحو بين هذيل وثقيف، أو بين قريش وثقيف حتى يكونا بطنين من بطونها؟ فلا يمكن بأية حال تبرير هذا على أساس سليم الا أن تكون هذيل وقريش مجرد اسمين لا يمتان بصلة الى هذيل وقريش المعروفتين منذ العصر الجاهلي، وصدر الاسلام، أو أن يكون بعض أولئك وهؤلاء قد دخلوا بمرور الزمن وبحكم الجوار في ثقيف، حتى نسبوا أخيراً اليها، وذكروا بين بطونها.

فليس غريباً اذن ـ بعد ما رأينا ـ أن نجد إغراباً كهذا في البطون المنسوبة الى هذيل في أمثال هذه المراجع، ويكفينا أن نجد أن بعض هذه البطون لا يزال يحمل الاسم القديم مثل لحيان، وعمرو أو عمير، فقد مرّ بنا لحيان، وعمرو فيما سقنا من حديث حول بطون هذيل، وهما من الشهرة المستفيضة بمكان، كما أن عميراً ـ وإن كان مغموراً ـ قد ذكر في سبائك الذهب بطناً منسوباً الى هذيل[١٦٩].

وحسبنا أيضاً أن بعض الأماكن التي وردت في هذه المراجع مثل وادي فاطمة، وغيره من الأماكن التي تقع حول مكة، أو في أطرافها من جهة الشرق والجنوب هي نفسها منازل هذه القبيلة وبطونها منذ العصر الجاهلي.

★ ★ ★

(١٦٧) ـ (١٦٨) قلب الجزيرة العربية ص٢٠٢.

(١٦٩) السويدي: سبائك الذهب ص٢٤.

نظرة ناقدة:

ولكن ينبغي لنا أن نقف وقفة أخرى عند هذه القبائل الهذلية التي فصّلنا القول فيها، والتي وردت اشارات اليها في الشعر الهذلي، أو طالعتنا بها المصادر القديمة؛ فقد بلغت هذه البطون المختلفة حداً من الكثرة يلفت النظر، وان كانت هذه المراجع تختلف - فيما بينها - فيما تمدنا به من هذه البطون كثرة وقلة، فمنها ما يقتصر على الفروع الكبرى للقبيلة، ومنها ما يمعن في تعداد البطون والأفخاذ والفصائل الصغيرة، ولكن هذه المراجع - في مجموعها - تعطينا عدداً كبيراً من هذه البطون الهذلية.

ويستطيع الباحث - على أساس من المصادر الأصيلة - أن يرد هذه الأشتات من البطون والعشائر الهذلية كلاً الى أصله، ويبعد بها - كما رأينا - عما عساه أن يجده القارىء فيها من شبهة التشويش والاضطراب والخلاف. فالحق أن معظم هذه البطون يرجع بعضها الى بعض في صورة هينة سهلة لا غموض فيها، ولا التواء، فهي تنتهي الى بطون أكبر منها، ثم تنتهي هذه وتلك الى عمائر كبرى تدلي بنسبها رأساً الى هذيل الجد الأكبر لهذه القبيلة الأم.

ومع هذا، فإحقاقاً للحق، نقرر أن هذا الخلاف حول هذا الموضوع لم تسلم منه المراجع المذكورة بصورة قاطعة، شأنها في ذلك هو الشأن في كثير من مسائل التاريخ القديم، الذي لم يؤت هؤلاء العلماء أداة تحقيقه، والوصول دائماً الى وجه الحق فيه.

ومن أمثلة ذلك ما نجده من خلاف حول بعض البطون الهذلية الكبرى مثل لحيان، ونسبتها الى هذيل على أساس من قرابة الدم ولحمة النسب، أو على مجرد الحلف والجوار والولاء، فقد تضافر أغلب كتب الأخبار والأنساب، وسائر المراجع القديمة على نسبتها الى هذيل عن طريق النسب لا عن طريق الجوار، فقد ذكرت هذه المصادر أن لهذيل ولدين من صلبه هما لحيان وسعد كما سبق أن مرّ بنا، ولا نكاد نجد خلافاً في هذا بين

قدمائنا الا ما أورده الهمداني من أنهم كانوا من بقايا جرهم ، ودخلوا في هذيل[١٧٠] أو أنهم من بقايا العماليق الذين هلكوا بتهامة ، وحالفوا هذيلاً[١٧١] .

وأغلب من كتبوا في الأنساب من المحدثين لم يخالفوا جمهرة القدامى في هذا النسب[١٧٢] ، وان كان قد خالف أولئك وهؤلاء فيما اتجهوا اليه الدكتور جواد علي حيث اعتبر بني لحيان هؤلاء من بقايا دولة اللحيانيين القديمة ذات الآثار والنقوش اللحيانية المعروفة . وأنهم بعد ضعفهم ، وسقوط مملكتهم ، وضغط القبائل عليهم اضطروا الى الانتقال من مواطنهم الأصلية في منطقة العلا ، ومدائن صالح ، والاتجاه نحو الجنوب حيث اختلطوا بغيرهم ، وقد كانوا قبل الاسلام في هذيل ، ولهذا عدهم النسابون من بطونها[١٧٢] .

ولعل الرجل متأثر في هذا برأي المستشرقين ، ذلك الرأي الذي لو دلت الدلائل العلمية يقيناً ، أو ظناً على ثبوته وصحته لسلمنا به دون شك أو مراء ، ولكن أغلب الظن أنه رأي أوحى به الاشتراك في الاسم بين بني لحيان هؤلاء ، وبين أولئك اللحيانيين الغابرين .

والحق أن بني لحيان الهذليين هم ـ فيما أرى ـ من هذيل لحماً ودماً ، وهم غير اللحيانيين القدامى ذوي التاريخ العريق المعروف ، فلم يقل أحد بأن الاشتراك في الأسماء يصلح أساساً لإطلاق الأحكام في القضايا العلمية ، فكثيراً ما نجد أن الأسماء تكرر نفسها بين الأشخاص والقبائل العربية ، فمثلاً في العرب سعود كثيرة منها : سعد تميم ، وسعد هذيل ، وسعد قيس ، وسعد بكر[١٧٣] ، وفيهم موازن كثيرة منها : مازن تميم ، ومازن قيس ،

---

(١٧٠) انظر تاج العروس (١٠/٣٢٤) ، تاريخ العرب قبل الاسلام ٣/٤٢٩ .

(١٧١) معجم قبائل العرب ٣/١٠١٠ ـ محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب ص٨٤ ـ المنجد ص٤٦٠ .

(١٧٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ص٤٢٩ .

(١٧٣) الجمهرة (د س ع) ٢/٢٦٢ ـ الصحاح (سعد) .

ومازن اليمن ، ومازن ربيعة[١٧٤] . وهناك تميم القبيلة المعروفة ، وتميم أخرى بطن من هذيل ، وبنو مخزوم في قريش ، وغيرها في هذيل . . وهكذا . بل إنا نجد أن كثيراً من أسماء الأعلام في العبرية القديمة شائعة الاستعمال عند العرب في الجاهلية ، ومن أمثلة ذلك : حفني ، وعلي ، وعبدالله ، والنادي ، والسعد ، وعفراء . ثم انه يوجد كثير من هذه الأعلام العربية في النقوش السبئية ، والثمودية ، ومن يتابع هذه النقوش القديمة في النمارة ، وفي منطقة العلا يجد كثيراً من هذا التكرار في الاسماء[١٧٥] .

ومن حقنا ألا نذهب بعيداً فكثير من أسماء الاشخاص والعائلات اليوم مكرر بين الناس الى حد كبير ، فهم يسمون ـ عن قصد أو غير قصد ـ أسماء متشابهة أو متماثلة ، وقد يتم هذا تيمناً بأسماء ، أو تشبهاً بعظماء ، وهذا مسلك الناس دائماً في كل زمان ومكان .

ثم ان علم الأنساب كان يعتزّ به العرب اعتزازاً بالغاً ، ولهم نسابون قد اشتهر بعضهم بالحفظ والضبط ، فكيف يخفي عليهم أمر لحيان وقد دخلت في هذيل كما يقول الهمداني ، وصاحب صحيح الأخبار من القدامى[١٧٦] ، أو فيما يقول الدكتور جواد علي حين يقرر أنه قد تم ذلك قبيل الاسلام (أي قبله بزمن يسير) ـ كيف يخفى عليهم ذلك؟ وهذا حسان بن ثابت يهجو هذيلاً لأن منها لحيان اثر غدرهم بأهل الرجيع ـ كما سبق أن أشرنا ـ وحسان مخضرم عاش ردحاً طويلاً من عمره في الجاهلية ، فكيف يخفى عليه أمر هؤلاء ؟ ثم كان معه أبو بكر من وراء هجائه ، وقد كان من أعلم الناس بالأنساب كما هو معلوم .

هذا ، وثمة اشارات أوردها الرواة تفيد أن لحيان من هذيل وليسوا بجيران لها أو لإحدى بطونها ، بل قد تصرح تصريحاً بأن لحيان هذا هو

---

(١٧٤) شرح شواهد بن عقيل ص١١٨ .

(١٧٥) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص٨٠ .

(١٧٦) صحيح الأخبار ١٨٦/٢

لحيان بن هذيل[177].

وكذلك شعر معقل بن خويلد السهمي الهذلي صريح في تقرير نسب لحيان حين يقول:

تقول سليم سالمونا وحاربوا هذيلاً ولم تطمع بذلك مطمعاً
فأما بنو لحيان فاعلم بأنهم بنو عمنا من يرمهم يرمنا معاً[178]

ومن الأدلة القاطعة في نسبة لحيان الى هذيل نسبة تقوم على الدم لا على الجوار تلك المفاخرة والمهاجاة التي ثارت بين عمرو بن هُميل اللحياني، وعمرو بن جنادة الخزاعي، وفيها يقول عمرو بن هميل مُندّداً بصاحبه في فخر واعتزاز:

فان بيوتنا شم طوال وبيتك لا يُظل ولا يُبيت
وانا نحن أقدم منك عزاً اذا بنيت بمخلفة البيوت
خزيمة عمنا وأبي هذيل وكلهمُ الى عز وليت
ويمنعك الولاء وأنت عبد وأمنع حيث كنت اذا لقيت
أبَى لي صارخ كالسيل نهد وعز لا يزول لنا ثبيت[179]

فهذا كلام واضح صريح في أن أباه وجدَّه الأكبر هو هذيل بن مدركة، وأن عمه هو خزيمة بن مدركة، وأنه يستمد من هؤلاء العز، والمنعة، والسؤدد، والفخار.

هذا وقد نسب الجمحي بني كاهل أيضاً الى هذيل نسبة الحلف والولاء، لا نسبة القرابة والنسب، وجعل كاهلاً أخا ثقيف[180]، وعلى هذا نجد في بعض المراجع أن عمرا ذا الكلب - وهو من رجالات كاهل - كان جاراً

---

(177) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٨١٨/٢.
(178) المرجع السابق ٣٧٥/٢.
(179) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٨٨٢/٢.
(180) المرجع السابق ٢٣٧/١.

لهذيل[١٨١]، ولم تعده هذه المراجع من هذيل دماً ونسباً. ومعنى هذا أن الشك سيحوم حول نسب جميع الفروع التي تدلي الى هذيل بكاهل هذا مثل بني صبح، وبني زليفة، وبني صاهلة، وبني كعب، وبني مخزوم (مخزوم هذيل)، وجميع من ينسبون الى هؤلاء من بطون كاهل ورجالها.

ولكن يبدو أن كاهلاً من أحفاد هذيل صليبة، وليس مجرد حليف أو جار للهذليين، فان أغلب الكتب التي كتبت في الأنساب وغيرها تقرر ذلك النسب لكاهل ومن يلونه من أبناء وأحفاد. ثم ان القلة القليلة من المراجع التي تقول بهذه المخالفة، أو هذا الجوار ذكرت ذلك مبهماً، ولم تنسب كاهلاً من جهة النسب الى قبيل آخر غير هذيل نسبة صحيحة، وهذا يثير الشك فيما ذكر بشأن هذا النسب، ويقوي الاحتمال الآخر، وهو اعتبار كاهل وبطونها من صميم هذيل.

هذا وعمرو ذو الكلب ـ الذي أشرنا الى انه أحد رجالات كاهل ـ لا تحس في شعره هو الآخر أثراً لهذا الجوار المزعوم، فليس في هذا الشعر تابعاً ولا جاراً ولا حليفاً لهذيل، وانما هو يتسنم الذروة في قومه من هذيل، ويتقدم فتيانهم في غاراتهم:

فـــامـــا تثقفوني فـــاقتلوني	وان أثقــف فسوف ترون بــالي
فـأبرح غـازيـاً أهـدي رعيـلا	أؤم سواد طود ذي نجـــــال
بفتيـان عمـارط من هـذيـل	همُ ينفون آنـــاس الحـــلال

* * *

فهـــذا ثم قـــد علموا مكـــاني	اذا اختضبت من العلق العوالي[١٨٢]

وهذه أخته جنوب تقول في رثائه ما لا يقال الا في سيد جحجاح من سادات قومه:

---

(١٨١) ديوان الهذليين. القسم الثالث ص١١٣.

(١٨٢) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص١١٤ وما بعدها

فـأقسم يـا عمرو لو نبهـاك — اذن نبّهـا منـك داء عضـالا
اذن نبّهـا غـير رعـديـدة — ولا طـائش رعش حين صـالا
اذن نبهـا ليـث عِرّيسة — مفيـداً مفيتـاً نفوساً ومـالا
اذن نبهـا واسعـاً ذرعـه — جميـع السلاح جليـداً بُسالا
هزبرا فروساً لأقرانـه — أبيـا اذا صاول القِرن صـالا

* * *

وقـد علـم الضيـف والمرملون — اذا اغـبر أفـق وهبـت شمالا
وخلّـت عن اولادهـا المرضعـات — فلـم تر عيـن لمزن بـلالا
بـأنـك كنـت الربيـع المَريـع — وكنـت لمن يقتفيـك الثمالا(١٨٣)

ثم نراها تقول في هذا البكاء، وذلك الرثاء:

أبلـغ بـني كـاهـل عـني مغلغلة — والقوم من دونهم سعيـاً ومركوب
ابلـغ هـذيـلاً وأبلـغ من يبلغهـا — عني رسولاً وبعض القول تكذيب
بأن ذا الكلب عمراً خيرهم حسبا — ببطن شريان يعوي حوله الذيب(١٨٤)

ومن هذا كله يمكن أن نستنتج ـ مطمئنين ـ أن عمراً ذا الكلب هذا ليس للهذليين مجرد جار أو حليف بل هو هذلي في أصله ودمه، ثم هو في السنام والذروة من قومه هذيل، ومن أفضلهم في الحسب والنسب والجاه.

* * *

وهكذا نستطيع ـ بعد ما قدمنا ـ أن نرتاح الى ما نقول به من اثبات ذلكم النسب الهذلي لكاهل، وما ينتسب اليه من عشائر هذيل وبطونها، أو من ينتمي اليه من رجالات هذه العشائر والبطون.

هذا الى أن تلك القلة القليلة من المراجع التي تجنح الى القول باستبعاد

---

(١٨٣) المرجع السابق ص١٢١ ـ ١٢٣

(١٨٤) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص١٢٥.

نسبة هذا البطن الى هذيل إلا عن طريق الحلف أو الجوار - تلقي القول على عواهنه، ولا تسلك في ذلك مسلكاً علمياً يؤدي بها الى الحقيقة، ويسْلمها الى الرأي الصحيح، بل تسوق ذلك في إبهام لم تتجشم معه أن تنسب كاهلاً الى قبيلة أخرى غير هذيل نسبة صحيحة، وهذا مما يثير الشك فيما يقولون به من حلف أو جوار، ويزكي الاحتمال الآخر الذي قررناه من اعتبار كاهل وبطونه من صميم هذيل.

وثمة رأي - مرجوح هو الآخر في نظرنا - ينسب عمراً هذا الى لحيان[185]، وعلى أساس من الخلاف الذي سبقت الاشارة اليه في نسب لحيان يعتبرونه من هذه الناحية أيضاً جاراً لهذيل. وقد سبق لي أن فندت ذلك الرأي الذي يقوم عليه هذا الاحتمال.

ومن قبيل الخلاف أن يكون بعض البطون أصلاً من غير هذيل، فينسبها بعض المراجع الى هذيل وهماً منها، واعتماداً على مجرد مجيئها على لسان شعراء هذيل من غير تحقيق أو تمحيص، فقد أورد الزَّبيدي[186] أن ذؤيبة قبيلة من هذيل، وأتبع ذلك قولَ الشاعر الهذلي (أبي خراش):

غدونا غدوة لا شك فيها فخلناهم ذؤيبة أو حبيبا

والحق أن ذؤيبة هذه من هوازن، ويقرر ذلك أبو سعيد السكري في شرح هذا البيت من شعر أبي خراش، فهو يقول في ثنايا ما أورده من كلام: «ذؤيبة وحبيب حيّان من عجز هوازن»[186].

ومن هذا النحو من الخلاف تقريباً ما ثار حول جُعثمة التي ينسب اليها بعض القسيّ، فقد ورد في ديوان الهذليين أنها من هذيل[187]، وفي القاموس: «جعثمة حي من هذيل أو من أزد السراة»[188]، وفي اللسان ما

---

(١٨٥) شرح اشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٢/٥٦٥

(١٨٦) تاج العروس (ذأب).

(١٨٧) ديوان الهذليين: القسم الأول ص٨٤.

(١٨٨) القاموس (جعثم).

يفيد أنها «من هذيل، أو من أزد السراة، أو من أزد شنوءة»[189].

ولعله قد أدى الى هذا الخلط قرب مواطن هذه القبائل التي نسبت جعثمة إليها، ثم ضآلة شأن جعثمة هذه، وأمثالها، وعدم شهرتها، واستفاضة أخبارها.

* * *

وهناك أمثلة من الخلاف قد تؤدي بنا الى تعدد واهم في بطون هذه القبيلة، وذلك ـ فيما أحسب ـ نتيجة لتقارب بعض الحروف، والتباسها على السمع، أو لتشابه هذه الحروف في الرسم، واختلاطها في الكتابة، ومن ذلك خناعة وخزاعة، فقد اتجه معظم ما في يدنا من المراجع الى ان خناعة هو ابن سعد بن هذيل[190] ولكن ورد في بعضها ذكر خزاعة بن سعد بن هذيل[191] بدلاً من خناعة. وقد كان من الممكن وجودهما معاً أخوين من سعد بن هذيل لو قد حدثتنا بذلك المراجع المذكورة، أو دلّت الدلائل عليه، ولكن يبدو أن ذلك تكرار لاسم واحد هو خناعة ذكر صحيحاً مرة، محرفاً مرة أخرى.

وقد يؤيد ما ذهبت اليه اختلاف الرواية في هذا البيت من شعر صخر الهذلي:

لو أن أصحـــابي بنو خنــــاعــه أهــل النــدى والجود والــبراعــه

* * *

فالرواية السائدة فيه خناعة، وقد وليها في ديوان الهذليين أن خناعة

(١٨٩) اللسان (جعثم).

(١٩٠) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص١، ٧٠. القاموس (خنع)، الشعر والشعراء ص١٥٦ ـ نهاية الأرب ص٢٤٧. معجم قبائل العرب ٣٦٢/١. شرح أشعار الهذليين ص١٢، ١١٦، ١٤٨، ٢٧٩.

(١٩١) العقد ٥٧/٢.

حي من هذيل، ثم أعقبتها رواية أخرى على هذا النحو: «وقد أورد السكري البيت هكذا «خزاعة» بدلاً من خناعة، ثم قال: خزاعة حي من هذيل»[١٩٢].

ومما يزيد الأمر وضوحاً اختلاف المراجع في ترجمة واحدة لشاعر هذلي واحد هو «مالك بن خويلد»، فقد جاء في اللسان أنه مالك بن خويلد الخزاعي[١٩٣]، وصاحب اللسان متأخر، وليس بحجة في الأنساب، وانما هو في هذا مجرد ناقل، ولكننا نجد السكري في شرح أشعار الهذليين يقرر أنه خناعي[١٩٤]. ولا يمكن أن ينتهي نسب امرىء الى شخصين مختلفين على هذا النحو الذي نراه، فلا بد أن يكون أحدهما - وأرجح أنه خزاعة - من نسج الوهم والخيال نتيجة للتصحيف الذي وقع فيه.

ومن أمثلة هذا التعدّد الواهم ما أشرنا اليه من ذكر حريث[١٩٥]، وخُريب[١٩٦]، وجُريب[١٩٧]، وحرب[١٩٨] جنباً الى جنب بين البطون الهذلية، وأغلب الظن أنها جميعاً بطن واحد من بطون سعد بن هذيل، وما هذا التعدد إلا نتيجة التصحيف في هذا الاسم.

ومن الغريب أننا نجد أن ذلك التصحيف قد يسبب الاختلاف حتى بين صفحة وأخرى في المرجع الواحد؛ فقد ذكر مثلاً في ديوان الهذليين مرة حُريث، وأخرى جُريب، وربما كان ذلك راجعاً الى إهمال التحقيق

---

(١٩٢) ديوان الهذليين ٢/٢٣٥.

(١٩٣) اللسان (بقل).

(١٩٤) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص١٤٨.

(١٩٥) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص٢٦٤.
شرح أشعار الهذليين ص١٠٩. العقد ٢/٥٧. المعارف ص٢٢.

(١٩٦) جمهرة أنساب العرب ص١٨٦.

(١٩٧) العقد ٢/٥٧. البقية ص٩. المخصص ١٣/٢٣٥. الخزانة ٣/١٧٤. شرح أشعار الهذليين ٢٢٦. ديوان الهذليين: القسم الثاني ص١٤٣ (حاشية ٣).

(١٩٨) ابن جني: المنصف ٣/٢٠٢.

وقصوره. اذا لم يكن خطأ مطبعياً لا يستحق الوقوف عنده.

ومثل هذا يقال في سعد بن هذيل نفسه، فقد ألفيته ـ في ترجمة أبي كبير الهذلي ـ في حاشية «التنبيه على أوهام القالي في أماليه» محرفاً الى سهل بن هذيل[١٩٩]، ولم يمر بنا من أبناء هذيل وأحفاده مَن يسمى سهلاً، ولم نجد في سلسلة نسب أبي كبير من يحمل هذا الاسم، ثم ان سلسلة النسب الواردة في هذا المصدر هي نفسها في المصادر الأخرى مع استبدال سعد بسهل. هذا الى ما نجده من تقارب نبرات الصوت فيهما، وأنهما على وزن واحد مما يوجد اشتباهاً عند من لا يحسنون السماع.

ومع هذا فالأمثلة على هذا التحريف والتصحيف قليلة لا تكاد تجاوز ما ذكرنا.

هذا، ويذكر النسابون أن بعض القبائل العربية، أو بطوناً من هذه القبائل كانت تعيش في جوار هذيل مثل بني الدَّرعاء، وهم حي من عدوان من قيس عيلان، فهناك من يقول بأنهم كانوا حلفاء في بني سهم بن معاوية من هذيل[٢٠٠]، ويطالعنا شراح ديوان هذيل بما يؤكد هذه الحقيقة من أن بني الدرعاء «حي من عدوان بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان... وخلفهم في بني سهم بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل»[٢٠١].

فاذا كنا نجد من هذه الاشارات ـ كما رأينا ـ ما يفيد أن بطوناً من قبائل العرب كانت تعيش في جوار هذيل، فاننا نجد أيضاً أن من بطون هذيل ورجالها من حالفوا غيرهم، أو عاشوا في جواره، بل ان من الأخبار ما ينتهي بنا الى أن بعض هذه البطون الهذلية قد دخلت في غيرها من القبائل، وانتسبت اليها، ولم تعد تذكر في عداد هذيل، فيذكر ابن حزم في جمهرة أنساب العرب أن حُويّة ـ وهم ينتمون في أصلهم الى سعد بن هذيل ـ

---

(١٩٩) البكري: التنبيه ص١٠٠.

(٢٠٠) تاج العروس (درج)

(٢٠١) ديوان الهذليين ٣/٣٠.

دخلوا في بني عبس، وقيل إن الحُطَيئة الشاعر، منهم[٢٠٢]، ويبدو أن عامر بن سدوس قد دخل هو الآخر في خزاعة، فقد ورد في ديوان الهذليين أن عامر بن سدوس الخناعي كان يُعزى هو ورهطه الى خزاعة، وأن المعطل قال شعراً فيه من اللوم ما يسدد سهامه اليهم[٢٠٣]

كما ورد في شرح أشعار الهذليين بصدد الكلام في شعر المعطل نفسه أن الناس يولجون بني سدوس، وأولياء عامر وإخوته الى خزاعة، وقد قال ابن الاعرابي في ذلك ان الناس كانوا يعدلون عامر بن سدوس وبني أبيه الى خزاعة، فقال المعطل في ذلك شعراً[٢٠٤] هو الشعر الذي سبقت الاشارة اليه في ديوان الهذليين[٢٠٥].

★ ★ ★

وهكذا نرى كلاماً حول دخول قوم في هذيل، وخروج آخرين منهم، كما نجد خلافاً حول بعض بطونهم، وفي نسب بعض رجالهم، ولكن ذلك كله ليس بالأمر الجلل الذي يطغى على وضوح هذا النسب واستقامته، وتلك البطون وانتسابها الى أصلها الهذلي؛ ففي شيء يسير من التمحيص قد انتهينا الى وجه الحق في هذا الشأن.

★ ★ ★

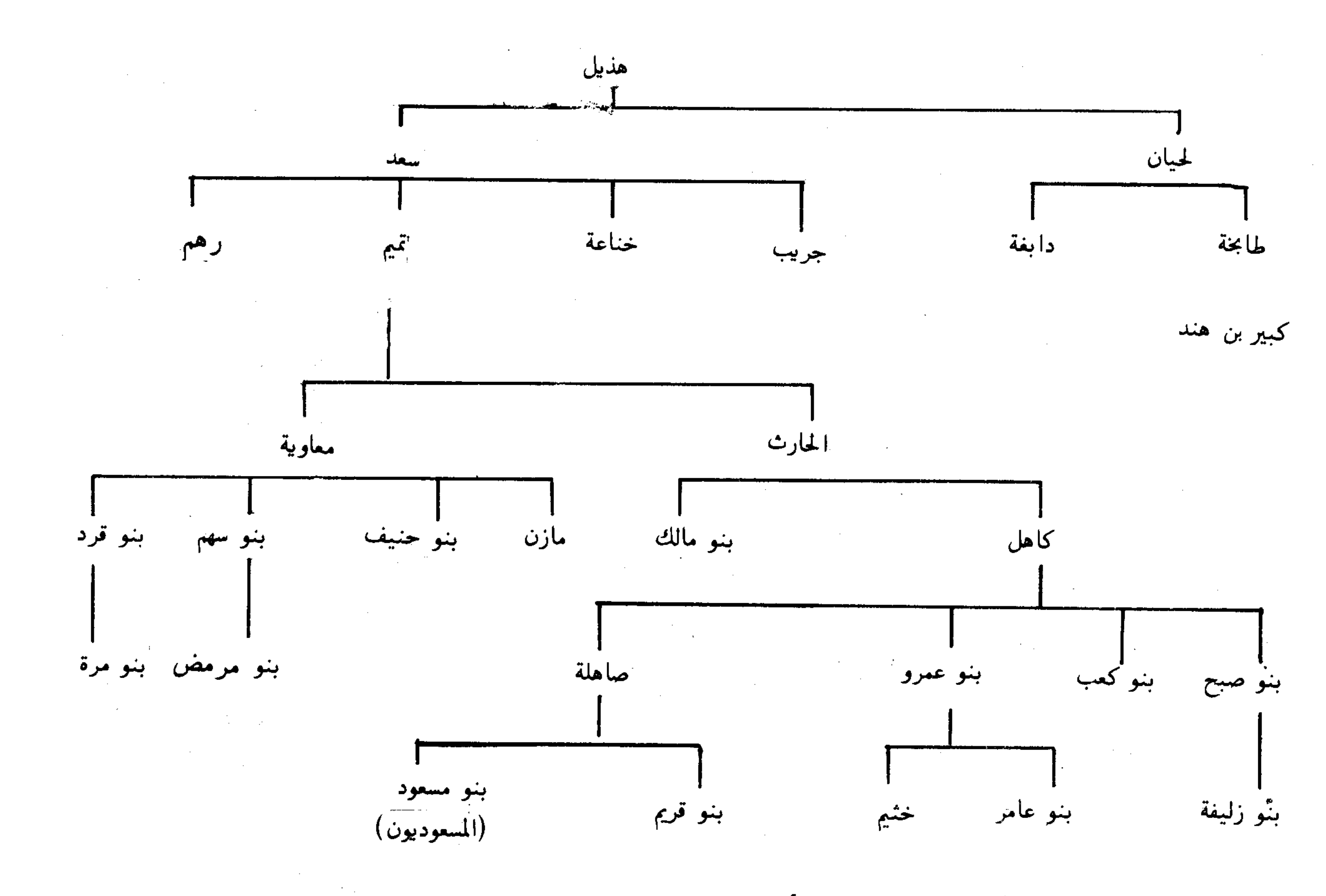
---

(٢٠٢) الجمهرة ص١٨٦

(٢٠٣) ديوان الهذليين ٣/٥١.

(٢٠٤) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٢/٦٣٦.

(٢٠٥) ديوان الهذليين ٣/٥١.


هذيل
لحيان
سعد
طابخة
دابغة
جريب
خناعة
تميم
رهم
كبير بن هند
الحارث
معاوية
كاهل
بنو مالك
مازن
بنو حنيف
بنو سهم
بنو قرد
بنو مرمض
بنو مرة
بنو صبح
بنو كعب
بنو عمرو
صاهلة
بنو زليفة
بنو عامر
خثيم
بنو قريم
بنو مسعود
(المسعوديون)

الفصل الثاني

منازل هذيل ومواطنها



أولاً - منازل هذيل في الجاهلية:

شغلت هذيل ببطونها العديدة رقعة واسعة من إقليم الحجاز في مناطق متعددة حول مكة، وفي أطرافها الجنوبية والشرقية، وفي عرفة وما يتصل بها، وفي أماكن أخرى كثيرة بين مكة والمدينة، وربما كان أغلبها إلى مكة أقرب، وإن كان يحتمل أن يكون بعضها متصلاً بنواحي المدينة كالموازج التي وردت في شعر الهذليين، والتي ذكر البكري أنها من ديارهم[1].

ويهمنا من ذكر هذه المواطن والبقاع أن نوضح مسرح حياة هذه القبيلة التي نتناولها بالدراسة، وما صاقبها من مواطن القبائل التي تجاورها، أو الأماكن التي تَشْركها فيها هذه القبائل كي نستبين في ضوء هذا كله صلة هذه القبيلة بجيرانها من القبائل الأخرى، ومدى تأثرها بهذه القبائل أو تأثيرها فيها؛ لما لهذا التأثير وذلك التأثر من أهمية قصوى في هذه الدراسة.

والمعروف أن هذيلا قبيلة بدوية في طابعها العام، فهي إذن لم يستقر أغلب بطونها وعشائرها في أماكن بعينها؛ لأن الاستقرار في المدن والقرى لم يتح إلا للحضر الذين كانوا يقيمون في مكة، والمدينة، والطائف، ووادي القرى، وما يماثلها في اليمن، وفي الإمارات العربية التي كانت مستقرة في أطراف الجزيرة على حدود الفرس والروم كالمناذرة والغساسنة.

---

(١) معجم ما استعجم ١/٢٨٢.

أما البدو الرحل فهم لا يعرفون هذا الاستقرار ، وإنما كانوا يتنقلون في سبيل النجعة كما هو معلوم.

فهذيل إذن كانت بطونها المختلفة غالباً في حركة وتنقل وراء الخصب والماء والكلأ . ولكن ـ مع هذا ـ كان لمجموع البطون الهذلية مجال تجول في إطاره ، فلا تُبعِد كثيراً عما ألفته من مواطن ، وما تنزل به على مر العام من منازل .

وقد كانت هذه المواطن ، وتلك المنازل كثيرة متعددة تعدد بطون هذه القبيلة وكثرتها ، كما أن الرقعة التي كانت تشغلها ، وتتخذ منها مسرحاً لحياتها لم تكن في مجموعها ذات طبيعة جغرافية واحدة ، فكانت هذيل تسكن الجبال والهضاب والوهاد والوديان في منطقة واسعة من الإقليم .

السراة :

ومن أهم البقاع التي كانت تقطنها بطون هذيل بعض الأجزاء الحجازية من تلك المرتفعات التي تمتد في سلسلة جبلية تخترق إقليم الحجاز ، وتمتد شمالاً حتى بلاد الشام ، وجنوباً حتى بلاد اليمن ، وقد يصل ارتفاعها الى (٢٤٠٠ م) فوق سطح البحر[٢] ، وتسمى هذه السلسلة جبال السراة . وهذه السلاسل الجبلية إذا وصلت الى الطائف مالت شرقاً كأنما هي في زاوية ، وتركت مكة بينها وبين البحر .

ويقول الهمْداني إنه لم يعد يطلق اسم السراة إلا على هذه السلسلة الجبلية بين الطائف وصنعاء ، وقد تغير اسمها فيما دون ذلك[٣] .

وقد كان يشارك هذيلا في هذه السروات جيرانها من القبائل الأخرى

---

(٢) د . الصياد : المملكة العربية السعودية «مذكرات معهد الدراسات العليا ص١١ » .

(٣) صفة جزيرة العرب ص٢٩٧ .

مثل فهم، وعَدوان، وبَجيلة، وثقيف وغيرها، وكلها قبائل عربية فصيحة[٤].

وقد تحمل هذه الجبال عدة أسماء تختلف باختلاف أماكنها، وباختلاف القاطنين فيها. والذي تقطنه هذيل منها ينسب إليها، فيقال سراة هذيل.

وسنرى أن جبال هذيل نفسها تتعدد أسماؤها، وتختلف اختلافاً ملحوظاً فيما بينها.

ويحدد ابن خلدون سراة هذيل هذه بأنها «متصلة بجبل غزوان المحيط بالطائف، ولهم أماكن ومياه في أسفلها من جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة[٥].

وواقع الأمر أن جبل غزوان هذا يقع في الجنوب الشرقي من مكة، وفي ذروته مدينة الطائف، وليست سراة هذيل متصلة به فحسب ـ كما يقول ابن خلدون ـ وإنما هو جزء من هذه السراة التي تتناثر فيها مساكن هذيل ومنازلها[٦].

ومن جبال هذيل أيضاً كُرّ، وكَرَاء، والهَدّة، وكلها سلاسل جبلية متصلة تحيط بالطائف، وتفضي الى باديتها[٧]. ومن بين سلاسل هذه الجبال نجد الشَّفا، وهو الآخر من جبال الطائف[٨].

وفي سفح كرّ نجد موضعاً مشهوراً لهذيل هو عاذ[٩]، وقد يسمى «أنف عاذ»، وهو من ديار هذيل المجاورة لبني سُليم[١٠]، وكان لهذيل فيه محلتان

---

(٤) معجم البلدان ٦٠/٥، ٦١. الألوسي: بلوغ الأرب في أحوال العرب ٩٥/٣. البكري: معجم ما استعجم ٨٨/١.
(٥) تاريخ ابن خلدون ٣٠٩/٢.
(٦) د. هيكل: في منزل الوحي ص٣٦٦.
(٧) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(٨) معجم ما استعجم ٨٠٣/٣. في منزل الوحي ٣٤٧، ٤٣٤.
(٩) معجم البلدان ٩٣/٦.
(١٠) معجم ما استعجم ٢٠١/١.

إحداهما فوق الآخرى ، وبينهما مسافة ميل تقريباً[١١] .

ويذكر ياقوت أن من جبال هذيل القريبة من الطائف جبال الجوز[١٢] ، ويريد الفيروزبادي أن يكون أكثر دقة وتحديداً ، فيقول : إنها لبني صاهلة من هذيل[١٣] ، وهذه الجبال كانت أقصى سروات هذيل نحو الجنوب ، فقد كان بنو صاهلة هؤلاء أقصى بطون هذيل نحو اليمن[١٤] وكانت منازل فهم في هذه الجهات مصاقبة لهم[١٥] ، فقد عاش في جبال يلملم ، وما يقاربها بعض بطون صاهلة كبني قُريم ، وكانت بينهم وبين فهم فيها حروب ومواقع[١٦] .

وإذا اتجهنا نحو الشمال ، وتركنا الطائف وباديتها وجبالها وجدنا جبلي « نَعمان » وهما في جنوبي عرفات ، ويقعان بينها وبين الطائف ، ومن جبال هذيل في هذه الناحية « كبكب » ، وهو جبل مشرف على موقف عرفات[١٧] ، فهو من جبال عرفات ، ومن نواحيه ذو المجاز ، وبه ماء لهذيل باسمه[١٨] ، وكان موضع سوق بعرفة على فرسخ منها[١٩] ، وكانت لهذيل[٢٠] وهي من أشهر أسواق العرب بعد عكاظ .

وقريباً من كبكب نجد « الوصيق » ، وهو جبل كانت تنزل به هذيل وكنانة[٢١] ، وهو الآخر متاخم لوادي عرفة .

---

(١١) معجم البلدان ٣٦١/١ .
(١٢) المرجع السابق ١٦٨/٣ .
(١٣) القاموس (جوز) .
(١٤) البقية ص٢٥ .
(١٥) المرجع السابق ص٥٣ .
(١٦) نفس المرجع ص٣٧ ، ٤٨ .
(١٧) الجبال والأمكنة والمياه ص١٣٧ . صحيح الأخبار ص٣٧١ .
(١٨) بلوغ الأرب في أحوال العرب ١٩٨/١ .
(١٩) ديوان الهذليين : القسم الأول ٤٠/١ . حاشية (٥) .
(٢٠) معجم البلدان ٣٨٥/٧ ـ الجبال والأمكنة والمياه ص٥٨ .
(٢١) معجم البلدان ٤٢٥/٨ .

وإلى الشمال من ذلك نجد من هذه الجبال قرب مكة «دارة»، وهو الجبل الذي يحجز بين نخلة اليمانية، ونخلة الشامية، وقد كانت تنزل على مياهه بنو مرة من هذيل، وبعض بني لحيان منهم[٢٢]، ويمتد الى الشمال منه «شَمَنصير»، وهو جبل شامخ تكثر من حوله العيون التي يفيض منها الماء[٢٣]، وبغربي شمنصير تقع الحديبية، وهناك مسجد الشجرة[٢٤]. ويتصل بهذا الجبل قرية أخرى يقال لها «ضرغاء» كانت بعد الإسلام ذات قصور ومنبر وحصون، وتشترك فيها هذيل وعامر بن صعصعة[٢٥]، ويذكر البكري في معجمه، وينقل عنه البغدادي في خزانته أنها غير ضَرْغد التي قال إنها هي الأخرى لهذيل، وبني غاضرة، وبني عامر بن صعصعة[٢٦]، ويمتد شمنصير نحو الجنوب حتى يجاوره جبل صغير يقال له ضُعاضِع، وعنده سد كبير يجتمع فيه الماء[٢٧]، وبه قرى صغيرة لسعد ومسروح، وفي سعد هذه نشأ النبي ﷺ، وهذيل وفهم تجاوران سعداً في هذا المكان[٢٨].

وجبال السراة سواء ما كان منها في الجنوب، والجنوب الشرقي متصلاً بالطائف وعرفة وما حولهما، أو ما كان منها في الشمال بين مكة والمدينة ـ كلها تخترقها الأودية والشعاب ومسايل الماء التي نجد بعضها في سفوحها الشرقية المواجهة لنجد، وأكثرها في سفوحها الغربية المواجهة للبحر[٢٩].

وفي جنوب مكة، وجنوبها الشرقي، وهو سراة هذيل الجنوبية نجد من هذه الأودية النَّخب، وقد رواه ياقوت عن السَّكّوني بفتح النون وكسر الخاء، وعن الأخفش بفتحهما، وقال إنه واد بأرض هذيل بينه وبين

---

(٢٢) معجم ما استعجم ٥٣٠/٢.
(٢٣) المرجع السابق ٨١٠/٢.
(٢٤) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٢٥) معجم البلدان ٤٢٨/٥.
(٢٦) معجم ما استعجم ٨٥٨/٣.
(٢٧) معجم البلدان ٤٣٥/٥.
(٢٨) معجم ما استعجم ٨١٠/٢.
(٢٩) مجم البلدان ٢٧٢/٨، ٢٧٣.

الطائف ساعة، فهو واد بناحية الطائف، والخارج من الطائف من جهتها الشمالية يبدو له هذا الوادي أول ما تتراءى له باديتها[٣٠]، وقد مرّ به الرسول ﷺ في طريقه إلى الطائف قبل الهجرة يدعو ثقيفاً إلى الاسلام[٣١]، ومن المأثور أن هذا الوادي هو وادي النمل[٣٢] الذي ذكره القرآن الكريم في قصة سليمان عليه السلام[٣٣].

ومن هذه الأودية التي لهذيل وادي عُرَنة[٣٤]، ويقع بين عرفة وجبلين هناك يسميان بالمأزِمين بينهما طريق ضيق يفضي بالحجيج إلى عُرَنة ثم إلى عَرفة. فهذا الوادي هو غير وادي عرفة كما يقول الإصطخري والهمداني[٣٥]، لا عرفة نفسها (كما يقول البكري)[٣٦]، ومع هذا فهما متجاوران غير أن عرفة من الحل، وعرنة من الحرم، وتقع قبل عرفة في طريق القادم من المزدلفة.

وفي عرنة هذه وما والاها كان ينزل سفيان بن خالد بن نُبَيح الهذلي اللحياني في جماعة من لحيان وغيرهم، وكان يجمع الجموع لحرب النبي والمسلمين، وإليها وصلت سَرية عبد الله بن أُنيس لاحباط المؤامرة فقتل زعيمها، وقضى على حركته الآثمة[٣٧] كما سبق أن أشرنا.

ومن أوديتهم في الجنوب أيضاً نَعمان[٣٨]، ويقع بعد عرفة في طريق الذاهب إلى الطائف[٣٩]، ويسلك المتجه إليه طريق مِنًى إلى المزدلفة،

---

(٣٠) في منزل الوحي ٣٥٦، ٣٥٧.

(٣١) معجم البلدان ٢٧٢/٨.

(٣٢) في منزل الوحي ص٣٥٦.

(٣٣) سورة النمل (٢٧) الآيتان ١٨، ١٩.

(٣٤) صفة جزيرة العرب ص١٧٣.

(٣٥) مسالك الممالك ص١٥. صفة جزيرة العرب ص١٧٣.

(٣٦) معجم ما استعجم ٩٣٥/٣.

(٣٧) طبقات ابن سعد ٣٥/٣. الدميري: حياة الحيوان ٢٣٤/٢.

(٣٨) صفة جزيرة العرب ص١٧٣ - شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٥٨.

(٣٩) كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب ص١٧٥. صفة جزيرة العرب ص١٥٣.

فعرفات[٤٠]، ويمتد الطريق بعده إلى شدّاد على سفح جبل كراء الذي يحيط ببادية الطائف كما سبقت الإشارة.

وفي نعمان مكان يسمى القَدُوم، كان من منازل بني واثلة بن مِطْحَل من بني سهم من هذيل، وفيه أغار عليهم بنو ظفر من بني سُلَيم في يوم القدوم[٤١].

وهذا الوادي كان ينزله بعض بني قُرَيم بن صاهلة أيضاً، وقد أغار عليهم فيه بنو مُدْلج، وكان لقريم النصر عليهم[٤٢].

ويذكر الأصمعي أن هذا الوادي يسكنه بنو عمرو بن الحارث بن تميم ابن سعد بن هذيل[٤٣]، وفي شعر حذيفة بن أنس الهذلي - أحد بني عمرو - ما يؤيد ذلك إذ يقول:

كـأن بـني عمرو يراد بـدارهم ... بنعمـان راع في أُدَيمـة مُعْرِب[٤٤]

ويقول:

ومـا نحن إلا أهـل دار مقيمـة ... بنَعمان من عادت من الناس ضرت[٤٥]

وكذلك الشأن في شعر أمية بن أبي عائذ، وهو الآخر أحد بني عمرو هؤلاء. ويبدو أنهم كانوا ذوي منعة في هذا المكان، فلقد نجد صدى ذلك في شعر هذا الشاعر بصورة واضحة[٤٦].

ومن بلاد هذيل وجبالها بهذا الوادي الأصدار، وهو صدور الوادي التي

---

(٤٠) في منزل الوحي ص٢٩٩.
(٤١) البقية ص٤.
(٤٢) المرجع السابق ص٥٠.
(٤٣) المرجع نفسه ص١٣.
(٤٤) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٢٥، ٢٩.
(٤٥) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٢٩.
(٤٦) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ص٢١٤.

يجيء منها العسل إلى مكة[٤٧].

وينبئنا البكري أن بني عمرو كانوا ينزلون من هذا الوادي في موضع يقال له أُدَيمة[٤٨].

ومن أماكن هذيل في وادي نعمان ضِيم، وعَرعَر، وهما مكانان متصلان في هذا الوادي[٤٩].

ومن جبال هذا الوادي يعرُج، وفيه طريق إلى الطائف أسفله لبني المُلْجِم من هذيل، وأعلاه لزُليفة من هذيل أيضاً[٥٠].

ونعمان هذا هو الذي يسمى «نعمان الأكبر»، وهو غير نعمان الأراك بمكة[٥١]، ويقع هذا الأخير في شماليّها، وبه التنعيم الذي يقع بظاهر مكة على طريق القوافل إلى المدينة، وعلى مسافة أربعة أميال من مكة[٥٢]، وبه أقرب أعلام الحرم إليها[٥٣].

وكثيراً ما تخلط المراجع بين واديي نعمان هذين لاشتراكهما في الاسم، والحق أنهما واديان مختلفان يحملان اسماً واحداً[٥٤].

ويذكر ابن حزم أن نعمان هذا الذي في شماليّ مكة هو الآخر من بلاد هذيل، وأن سواعاً صنم هذيل كان في هذا الوادي[٥٥].

ومن أودية هذيل في الجنوب العرج، وهو أحد أودية الطائف مجاور

---

(٤٧) معجم البلدان ٨/٣٠٠، تاج العروس (نعم).

(٤٨) معجم ما استعجم ٤/١١٦٤.

(٤٩) معجم البلدان (عرعر).

(٥٠) معجم البلدان ٨/٥٠٩.

(٥١) اللسان (نعم).

(٥٢) تاج العروس (نعم).

(٥٣) في منزل الوحي ص٢٨٣.

(٥٤) ابن ظهيرة القرشي: الجامع اللطيف ص٣٣٦.

(٥٥) جمهرة أنساب العرب ص٤٥٧ وما بعدها.

لوادي النَّخِب[٥٦] ، فيروي ياقوت عن الأَصمعي أن من أودية الطائف وادياً يقال له العرج ، وهو غير العرج الذي بين مكة والمدينة[٥٧] ، ويقول في موضع آخر من كتابه إن جبل كبكب المعروف قريب من عرفة مشرف على هذا العرج . وهذه الروايات تعطينا صورة عن مكان العرج بين الطائف وعرفة ، وأنه كان من منازل هذيل وبني نصر بن معاوية .

تهامة :

وهذه السلسلة من جبال السراة تتدرج في الانحدار جهة الشرق ، ولكنها تنحدر فجأة جهة الغرب ، وتترك بينها وبين ساحل البحر سهلاً ساحلياً يُعرف بالغور أو تهامة ، ويعرف في الحجاز بتهامة الحجاز . وكانت تهامة الحجاز هي الأخرى من مواطن الهذليين التي انتشرت فيها بطونهم وعشائرهم ، فكانوا يسكنون السفوح الغربية للسراة ، وهي مواجهة لتهامة ، وكانت تجاورهم في هذه الأماكن خزيمة التي كانت تنزل في أسفل هذه السفوح في أماكن تخترقها الشعاب والأودية ، ومسايل الماء في طريقها إلى البحر[٥٨] .

وكانت كنانة ، وهي أهم قبائل خزيمة تعيش في ذلك السهل الساحلي ، وتمتد فيه على شاطىء البحر مسافات طويلة من تهامة الحجاز ، وتشركها هذيل في كثير من هذه الأودية والشعاب[٥٩] ، ومنها « حَلْيَة »[٦٠] وكان ينزل به مع الهذليين بعض بني ثابر وهم حي من الأزد[٦١] . ومنها

---

(٥٦) الألوسي : بلوغ الأرب ١٩٨/١ .

(٥٧) معجم البلدان ١٤٠/٦ .

(٥٨) معجم ما استعجم ٨٨/١ .

(٥٩) المرجع السابق (نفس الموضع) .

(٦٠) الجبال والأمكنة والمياه ص٤١٥ . معجم البلدان ٣١٩/٣ .

(٦١) البقية ص٣٣ ، ٣٤ .

«السِّرَّين»[٦٢]، وبينه وبين مكة تسعة أميال[٦٣]، وتقع به بلدة باسمه قريباً من جُدّة[٦٤].

ومن هذه الأودية «أدام»[٦٥]، وقد قيل إنه أشهر أودية مكة[٦٦]، وبينه وبين مكة اثنا عشر ميلاً[٦٧]. وقد كان ينزل في صدر أدام هذا جماعة من بني صاهلة من هذيل[٦٨].

ومنها «الضجَن»[٦٩]، وكان ينزل به بعض بني لحيان[٧٠]، و«الضَّجْز»[٧١]، و«الحدَثة»[٧٢]، و«مَلكان»[٧٣]، و«ذات البَشام»، وهو من بلاد هذيل بعُرنة[٧٤]، وكان ينزل به بعض بني لحيان، وبني سهم من هذيل[٧٥].

وقريباً من ذلك المكان نجد «الجُرف» القريب من وَدّان، وهو من منازل بني سهم بن معاوية المذكورين، وفيه أوقعت بنو سُليم بهم في إحدى غاراتها عليهم[٧٦].

---

(٦٢) ديوان الهذليين ١٣٩/٢.
(٦٣) تاريخ ابن المجاور ص٤٠، ٤١.
(٦٤) معجم البلدان ٨١/٥.
(٦٥) المرجع السابق ١٥٥/١.
(٦٦) تاج العروس (أدم).
(٦٧) تاريخ ابن المجاور ص٤٠، ٤١.
(٦٨) البقية ص٤٥.
(٦٩) الجبال والأمكنة والمياه ص١٠١. معجم البلدان ٤٤٦/٥.
(٧٠) البقية ص١٣.
(٧١) معجم قبائل العرب ٩٩٧/٣.
(٧٢) معجم البلدان ٣٢٢/٣.
(٧٣) الجبال والأمكنة والمياه ص١٤٤.
(٧٤) معجم البلدان ١٨١/٢.
(٧٥) البقية ص٦١. الخزانة (السلفية) ٤١٧/١.
(٧٦) معجم ما استعجم ٣٨٦/١ ـ معجم البلدان ٨٤/٣.

ومن الأودية المذكورة « سَعْيَا ، ومركوب »[٧٧] ، وقد وردا كثيراً - كما ورد غيرهما - في شعر هذيل ، ومن ذلك قول جنوب أخت عمرو ذي الكلب الهذلي من قصيدة ترثيه :

أبلغ بني كاهل عني مغلغلة ... والقوم من دونهم سعيا ومركوب
أبلغ هذيلاً وأبلغ من يبلّغها ... عني رسولاً وبعض القول تكذيب
بأن ذا الكلب عمراً خيرهم نسبا ... ببطن شِريان يعوي عنده الذيب[٧٨]

وبطن شريان هذا هو الموضع الذي قتل فيه[٧٩].

وربما كان الوادي الأخير - وادي مركوب - من أقصى هذه الأودية نحو الجنوب ، فهو يقع خلف يلملم[٨٠] الذي هو ميقات أهل اليمن.

وهذه الأودية أعلاها لهذيل ، وأسفلها لكنانة.

* * *

ومن جبال تهامة في شمالي مكة ضَجْنان ، وبينه وبين مكة اثنا عشر ميلاً تقريباً ، وهو لأسلم ، وهذيل ، وغاضرة ، وله ذكر في حديث الإسراء[٨١] ، وفي أسفله كُرَاع الغميم ، وهو واد يقع بين ضَجْنان وعُسفان[٨٢] على ثمانية أميال منها[٨٣] ، وعسفان هذه تقع على طريق القوافل بين مكة والمدينة ، وهي إحدى مناهل هذا الطريق بين الجُحفة ومكة على مرحلتين من مكة[٨٤] ، وهي من مساكن بني لحيان[٨٥] ، ويشاركهم فيها بنو المصطلق من

---

(٧٧) الجبال والأمكنة والمياه ص٧٩.
(٧٨) ديوان الهذليين : القسم الثالث ص١٢٥.
(٧٩) المرجع السابق نفس الموضع.
(٨٠) تاج العروس (ركب).
(٨١) معجم البلدان ٤٢٦/٥.
(٨٢) القاضي عياض : مشارق الأنوار ٣٥٠/١.
(٨٣) معجم البلدان ١٢٢/٢.
(٨٤) المرجع السابق ١٧٣/٦. بهجت : الأمكنة والبقاع ص١٥٠
(٨٥) معجم البلدان ١٧٣/٦.

خزاعة[٨٦]، وبالقرب منها من جهة الجنوب ماء الرجيع الذي يقع بينها وبين مكة[٨٧]، وهو من مياه لحيان، وعنده غدرت لحيان برهط من المسلمين، وأوقعوا بهم في يوم الرجيع كما سبقت الإشارة[٨٨].

ومن أودية لحيان في هذه الأماكن قريباً من عسفان وادي رُهاط، وهو واد كبير في غربه تقع الحديبية، وهذا الوادي يجاور نُعمان الشمالي، وقد سبق أن عرضنا لما قيل من أن سواعاً صنم هذيل كان في نعمان، ولكن يذكر ابن الكلبي أنه كان برهاط[٨٩]. ولعل قرب المكانين كان هو السبب في هذا الخلاف.

وفي أطراف وادي رهاط بالقرب من مكة تقع قرية رهاط على ثلاثة أميال منها[٩٠]، ويبدو ـ على الرغم مما هنالك من خلاف ـ أنها كانت مقر هذا الصنم، فقد كان بنو لحيان أهل هذه الناحية هم سدنة سواع في الجاهلية[٩١].

وقد كان يسمى وادي رهاط: وادي غُرَان أيضاً. وهذا الوادي خصيب، وبه عيون جارية، ونخل كثير[٩٢]، وفي رهاط أو غُرَان كانت مساكن بني لحيان كما سبقت الإشارة، وإلى غران انتهى النبي ﷺ في غزوته بعد فتح بني قُريظة يريد بني لحيان هؤلاء مطالباً بأصحاب الرجيع[٩٣].

---

(٨٦) معجم ما استعجم ٩٣٩/٣.
(٨٧) المرجع السابق ٦٤١/٢.
(٨٨) سيرة ابن هشام ٢٧٩/٢ ـ معجم ما استعجم ٦٤١/٢. الطبري ٢٩/٣، ٣٠. في منزل الوحي ص٢٨٤.
(٨٩) الأصنام ص٩، ١٠.
(٩٠) معجم ما استعجم ٦٤٦/٢
(٩١) الأصنام ص٩. بلوغ الأرب ٢١٧/٢.
(٩٢) أخبار مكة ٧٨/١.
(٩٣) معجم ما استعجم ٩٩٢/٣.

وبين هذا الوادي ووادي أَمَج ميل واحد[٩٤]. وأمج وساية متجاوران، أو هما شيء واحد، وهو واد عظيم به أكثر من سبعين عيناً كما يذكر ياقوت في معجمه[٩٥].

وأمج هذا من مساكن خزاعة، فهي إذن كانت تجاور هذيلا بعامة، وبني لحيان منهم بخاصة في بعض هذه الأماكن.

ومن مظاهر المشاركة والمجاورة بين هذيل وخزاعة اشتراكهما في عبادة مناة[٩٦] التي يقال إنها كانت صخرة بقُدَيد، وهو واد بين عُسفان والمدينة[٩٧]، كما يقال إنها صنم في جهة البحر مما يلي قُديداً[٩٨].

ونجد كذلك الكَدِيد، وهي قريبة جداً من عسفان وغران، وكان بعض بني لحيان، وبني جندع بن ليث ينزلون في هذا المكان حين أغارت عليهم جميعاً خيل رسول الله ﷺ بالكديد، بعد أن دلهم عليه رجل من خزاعة، فوجدت عليه بنو بكر، وبنو لحيان[٩٩].

ومن منازل لحيان شمال القديد ذو دَروان، ورسمه في بعض المراجع دوران بتقديم الواو على الراء[١٠٠]، وهو واد يأتي من شمنصير[١٠١].

وبجوار ذي دروان تقع نقْرى، وهي حَرّة من حرار الحجاز كان ينزل بها بنو لحيان، وبنو خزاعة[١٠٢].

---

(٩٤) مشارق الأنوار ٥٨/١. أخبار مكة ٧٩/١.
(٩٥) معجم البلدان ٢٩٦/٥.
(٩٦) الأصنام ص١٤. الزمخشري: الكشاف ١٤٥/٣. الألوسي: بلوغ الأرب ٢٠٢/٢.
(٩٧) الأزرقي: أخبار مكة ٧٤/١.
(٩٨) معجم البلدان ١٦٧/٨.
(٩٩) البقية ص٥٦.
(١٠٠) معجم ما استعجم ٥٦١/٢.
(١٠١) معجم البلدان ٩٦/٤.
(١٠٢) معجم ما استعجم ٣٨٥/٢ ـ مشارق الأنوار ١٦٩/١.

ومن الأماكن المعدودة في هذه الجهة جُمدان ، بين أمج وعسفان[١٠٣] ، وبين قديد وعسفان[١٠٤] ، فهي تقع في مثلث رؤوسه هذه الأماكن الثلاثة ، ويسوق الأزرقي رواية عن مسير تُبّع إلى مكة ، ورد في ثناياها أن تبّعاً هذا نزل في بعض نواحي جمدان ، وهو في طريقه إلى الحرم[١٠٥] . وفي النفس شيء من هذه الرواية ؛ لأن جمدان في شمالي مكة ، وليست في طريق تبع من اليمن إلى البيت الحرام .

ويذكر القاضي عياض أن جمدان من منازل أسلم[١٠٦] ، وأسلم هذه من خزاعة التي أشرنا إلى جوارها لهذيل في هذه الأماكن ، وقد كان بينها وبين هذيل إحن وتارات بقيت مظاهرها إلى فجر الإسلام ، حتى بعد إسلام خزاعة[١٠٧] .

ومن أقرب هذه الأودية إلى مكة وادي سَرِف ، ويقع شمال التنعيم على طريق القوافل الصادرة من مكة إلى المدينة ، وكان ينزل به بعض بني لحيان مجاورين لبني ليث بن بكر[١٠٨] .

وكانت تقع قرية سرف على بضعة أميال من مكة ، وبطن سرف سمي بعد ذلك بالنَّوارِيّة ، ويقع بين التنعيم ، ووادي فاطمة[١٠٩] ، ولفظ سرف اليوم يطلق أغلب ما يطلق على « مسجد ميمونة » ، فأطلاله هي الأثر الوحيد الباقي في هذه الناحية[١١٠] .

وأهم أودية هذيل في شرقي مكة ، وجنوبها الشرقي نخلة اليمانية ، ونخلة

---

(١٠٣) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ١٦٧ .
(١٠٤) أخبار مكة ١/٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٦ .
(١٠٥) المرجع السابق ١/٧٦ .
(١٠٦) مشارق الأنوار ١/١٦٩ .
(١٠٧) أخبار مكة ٢/٩٧ وما بعدها .
(١٠٨) البقية ص٣٨ .
(١٠٩) الجامع اللطيف ص٢٩٥ .
(١١٠) في منزل الوحي ص٢٨٧ .

الشامية، وهما واديان كبيران.

ونخلة اليمانية هي مسلك حجاج جنوبي نجد، والحساء وعمان واليمن.

أما نخلة الشامية النافذة إلى ذاتَ عِرق، فهي مسلك حجاج العراق، وشماليّ نجد.

وسكان هذين الواديين أغلبهم من هذيل[١١١].

وسيول نخلة اليمانية أعلاها من وادي قرَن، قريباً من قرن المنازل ميقات حجاج نجد، والتي تسمى الآن السيل[١١٢].

ومن أودية نخلة اليمانية وادي يَدَعان، وبه مسجد للرسول، وفي هذا الوادي عسكرت هوازن يوم حنين[١١٣]، ويدعان لم يتغير اسمه حتى الآن، وإن كان أهل الحجاز قد أبدلوا ياءه جيماً فقالوا «جدعان»[١١٤].

ومن قرى نخلة اليمانية الزَّيمة[١١٥]، وهي لا تزال قائمة باسمها إلى اليوم في طريق الطائف مجاورة لوادي حنين[١١٦].

ويقول بعض الباحثين إن وادي نخلة هو المسمى الآن بالسيل الكبير[١١٧]. ويبدو أن هذا قد يصدق على جزء من نخلة اليمانية وحدها، فهي الضاربة إلى الجنوب على هذا النحو، ثم إن السيل الكبير يقع في جنوب الزيمة التي سبق القول بأنها من قرى نخلة اليمانية، ومما يؤيد ذلك أيضاً أنه لا يزال الطريق بين الزيمة، وبين السيل الكبير يحمل اسم «درب اليمانية»[١١٨]، وقد مر الرسول بنخلة اليمانية منصرَفه من حنين في طريقه

---

(١١١) صحيح الأخبار ١/٣٥.

(١١٢) أخبار مكة ٢/٢٥١.

(١١٣) معجم البلدان ٨/٢٧٥.

(١١٤) صحيح الأخبار ١/٧٦.

(١١٥) تاج العروس (زيم).

(١١٦) في منزل الوحي ص٣١٦.

(١١٧) المرجع السابق ص١٨٦.

(١١٨) المرجع نفسه ص٣١٨.

الى حصار الطائف[119].

ومن شعاب نخلة اليمانية أُبام وأبيّم، وهما لهذيل[120]، وعُشَر، وهو شِعب لهذيل قرب مكة، يستمد ماءه من جبل داءة الذي يفصل بين وادي نخلة[121] المذكورين.

ومن هذه الشعاب الضَّهيأتان، وهما شعبان آخران تجاه عُشَر، ويجاورهما جبل يسمى المرقبة، كان رقباء هذيل يرقبون فيه أعداءها وضحاياها[122]. ولعله الجبل المسمى الآن بالعرقوب، وهو آخر جبال نخلة اليمانية[123].

ومن جبالها يسومان أو السُّومان كما يسميان عند أعراب هذه الجهات اليوم، وهما جبلان يقعان على جانبي درب اليمانية بين الزيمة والسيل الكبير عند نهايته في طريق الذاهب إلى الطائف[124]. ويفصل بينهما وبين الضهيأتين جبل المرقبة[125] السابق ذكره.

وقريباً من قرن المنازل تقع جبال مرخة التي لا زالت تحمل اسمها إلى هذا العهد[126]، وهما مرختان: شمالية وتسمى بالمرخة الشامية، وجنوبية وتسمى بالمرخة اليمانية، وكان بالشامية منهما بنو قريم بن صاهلة[127] من الهذليين، وبالمرخة اليمانية كان يقيم بنو عضل جيران هذيل[128].

هذا، ومن المراجع مايسوق أن المرختين جميعاً تعدّان من منازل

---

(119) سيرة ابن هشام ٤٨١/٢. صحيح الأخبار ١٣٨/٢.
(120) معجم البلدان ٦٩/١، ١٠١ ـ تاج العروس (أبم).
(21) معجم البلدان ١٨٩/٦. تاج العروس (عشر).
(122) صحيح الأخبار ١٤٨/٢. معجم البلدان ٤٤٣/٥.
(123) صحيح الأخبار ١٤٩/١.
(124) في منزل الوحي ص٣١٩.
(125) معجم البلدان ٤٤٣/٥، ٢٧/٨، ٢٨.
(126) صحيح الأخبار ١٤٨/٢.
(127) معجم البلدان ١٩/٨.
(128) ديوان الهذليين: القسم الثالث ص٤٠.

هذيل[١٢٩] ، وقد ورد في البقية أن نخلة اليمانية عامةً من منازل بني صاهلة[١٣٠] .

أما نخلة الشامية فتقع إلى الشمال من نخلة اليمانية . ولعل سرية عبد الله ابن جحش حين قدم إلى نخلة[١٣١] ، ليترصد بها قريشاً ، ويكون عيناً للمسلمين عليهم ـ كانت مهمتها هذه في نخلة الشامية ؛ فهي أقرب هاتين النخلتين إلى مكة والمدينة معاً .

وتأتي سيول نخلة الشامية هذه من ذات عرق ميقات حجاج العراق التي درَست ، وفي مكانها اليوم « الضَّريبة » التي يحرم منها حجاج العراق الآن[١٣٢] .

والجبال الواقعة في أعالي نخلة الشامية بذات عرق ، وما يقاربها هي من بلاد نصر بن معاوية من هوازن ، ويشاركهم فيها غطفان . وبنو نصر وغطفان أبناء عمومة ينتمون إلى قيس عيلان[١٣٣] . ويجاورهم في أعلى نخلة الشامية هذه أبناء عمومتهم من بني سعد بن بكر الذين كانوا أظآراً للنبي ﷺ[١٣٤] . وبعض بني سعد هؤلاء كانوا جيراناً لبني سهم من هذيل[١٣٥] .

ويسكن في نواحي نخلة الشامية من هذيل أيضاً بنو معاوية[١٣٦] ويؤكد ذلك شعر صخر الغي من شعراء هذيل إذ يقول :

لو أن أصحابي بنو معاويه   أهل جُنوب نخلة الشآميه

---

(١٢٩) العباب الزاخر ورقة ٤٨ .
(١٣٠) البقية ص٣٤ .
(١٣١) صحيح الأخبار ١/٣٥ .
(١٣٢) في منزل الوحي ص٦٨٢ .
(١٣٣) تاج العروس (قيس) .
(١٣٤) معجم البلدان ٨/٢٧٥ .
(١٣٥) البقية ص٥٤ .
(١٣٦) شرح أشعار الهذليين (مخطوط) ٣١ .

ما تركوني للكلاب العاوية ولا لبرذون أغر الناصيه[١٣٧]

ثم إن مالك بن عوف النصري، وهو - كما مرّ - من جيران هذيل، قد أغار على بني معاوية هؤلاء في هذه الأماكن، ولأبي ذؤيب شعر قاله في هذه المناسبة[١٣٨]. ومالك بن عوف هذا كان قائد هوازن يوم حنين، وقد أمر النبي بهدم حصن له، وهو في طريقه إلى الطائف.

وممن كان ينزل أيضاً في نخلة الشامية من الهذليين بعض بني خناعة، ولا سيما بني عامر بن سدوس الخناعي[١٣٩].

وفي شمالي وادي نخلة الشامية تقع صُوائق، وهي جبال حجازية واقعة بين بلاد هذيل، وبلاد بني سليم، وهي باقية على هذا الاسم إلى اليوم[١٤٠].

وتجتمع سيول الواديين جميعاً «نخلة الشامية ونخلة اليمانية» عند المكان المسمى بالسد، أو ببستان ابن معمر الذي يسميه الناس بستان ابن عامر، فهناك يجتمع الواديان في بطن مرّ[١٤١] حيث يكونان وادياً واحداً هو وادي مر، أو مر الظهران الذي أخذ اليوم اسماً جديداً هو «وادي فاطمة»، ويستمر حتى يصب في البحر الأحمر[١٤٢].

ومر الظهران يقع شمالي مكة بينها، وبين عسفان، وهو المرحلة الأولى في الطريق القديم (طريق القوافل) إلى المدينة. ومن مر إلى سرف سبعة أميال، وإلى مكة ثلاثة عشر ميلاً[١٤٣].

وينقل ياقوت عن عرّام أن «مَرًّا» القرية، و«الظهران» الوادي،

---

(١٣٧) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص٢٣٦.

(١٣٨) ديوان الهذليين: القسم الأول ص١٦٤.

(١٣٩) البقية ص٥٨.

(١٤٠) صحيح الأخبار ١/١٧٨، ٣٨٢.

(١٤١) الصحاح (سدد).

(١٤٢) صحيح الأخبار ١/٣٥.

(١٤٣) معجم ما استعجم ٣/٩٥٧.

وأن بمر عيوناً كثيرة ، ونخلاً وجمّيزاً ، وهي لأسلم ، وهذيل ، وغاضرة[١٤٤] .

ومن المراجع ما ينقل إلينا أن مرّ الظهران كان ينزل به بعض كنانة ، ولهم فيه سوق هي لبني الدئل منهم خاصة[١٤٥] ، وبه منازل كعب من خزاعة إلى جانب هذيل[١٤٦] .

وقريباً من مر الظهران يقع وادي الصفراء ، أو الصفراوات[١٤٧] ، وهو الآخر لهذيل[١٤٨] .

وسهل ساية أو (السِّيّ كما يعرف اليوم) هو الآخر قريب من عسفان ، وينحدر ماؤه جهة الغرب ، ويصب في أعلى وادي فاطمة . وبساية نخيل ومزارع ، وسكانه بنو سليم[١٤٩] الذين يجاورون هذيلاً في هذه الأماكن وغيرها ، كما يجاورها غيرهم من القبائل والبطون التي أشرنا إليها .

* * *

وهكذا يتضح مكان هذيل بين القبائل العربية التي تكتنفها في أنحاء الجزيرة ، ثم مكان هذه القبيلة وبطونها المشهورة مع جيرانها الأدْنين ممن تأثرت بهم أو أثرت فيهم من قبائل العرب كخزاعة وكنانة وسعد بن بكر وهوازن وغطفان وغيرها ، وذلك في منطقة من الحجاز ، من حدود عسير تقريباً في الجنوب إلى ما بعد عسفان شمالاً ، وتلك كانت مساكنهم في الجاهلية ، ولكن ينبغي أن نلم بمواطنهم في الإسلام لما لذلك من أهمية في الموضوع .

---

(١٤٤) معجم البلدان ٦/٩٠ ، ٨/٢١ . صحيح الأخبار ٢/١٣٧ . تاج العروس (ظهر) .

(١٤٥) صحيح الأخبار ١/١٢٨ .

(١٤٦) أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ص٣٣٤ . معجم البلدان ٧/٢٨٩ . . القاضي عياض : مشارق الأنوار ١/٣٩٤ .
تاج العروس (طرق) .

(١٤٧) مشارق الأنوار ٢/٣٥ .

(١٤٨) ديوان الهذليين ٣/٦١ .

(١٤٩) صحيح الأخبار ١/١٢٨ .

ثانياً ـ مواطن هذيل في الإسلام :

يذكر بعض المؤرخين أن هذيلا تفرقت بعد الإسلام على الممالك، ولم يبق لهم في الجزيرة العربية حي يطرق(١٥٠).

وهذا كلام فيه كثير من المبالغة والشطط، فالحق أنه إن كان كثير منهم قد فارقوا الحجاز وتهامة إلى بلاد الإسلام الأخرى، فإنه ـ مع هذا ـ قد بقي عدد منهم في منازلهم بالحجاز بعد الإسلام؛ ففي صلة تاريخ الطبري أن الجنّابي زعيم القرامطة صعد إلى سطح الكعبة ليقلع الميزاب؛ فرماه بنو هذيل الأعراب من جبل أبي قبيس بالسهام فأزالوهم عنه(١٥١).

وفي الرحلة الحجازية للبتانوني نجد أن هذيلاً لا تزال تسكن الجبال بين مكة والطائف، وأن عددها الآن يناهز عشرة آلاف نفس، وأن بني لحيان بين مكة وجدة، وعددهم ألف وخمسمائة(١٥٢).

والدكتور هيكل في تطوافه ببادية الطائف يطلعنا على أن بعض الجبال في هذه الجهات ـ ومن بينها جبال الطلحات ـ يقيم فيها قبائل الطلحات إحدى بطون هذيل في هذا العصر(١٥٣).

فالحق أن هذيلاً ـ أو ما بقي منها في بوادي الحجاز بعد الإسلام ـ لا يزالون يسكنون في مواطنهم القديمة منذ العصر الجاهلي، وإن كان من المحتمل أن يكونوا قد انحسروا عن بعض هذه المواطن(١٥٤). ولكنهم مع ذلك لا يزالون يحتلون مواطن كثيرة مما كان لهم منذ الجاهلية الأولى، فيذكر ابن بليهد النجدي أن هذيلاً «باقية في منازلها من العهد الجاهلي إلى هذا العهد في وادي نخلة اليمانية وجبالها، ووادي نخلة الشامية وجبالها،

---

(١٥٠) تاريخ ابن خلدون ٣١٩/٢. معجم القبائل العربية القديمة والحديثة ١٢١٣/٣.
(١٥١) صلة تاريخ الطبري (لعريب بن سعد القرطبي) ص١٧٣.
(١٥٢) الرحلة الحجازية ص٥٢.
(١٥٣) د. هيكل: في منزل الوحي (الطبعة الرابعة) ص٣٧٩.
(١٥٤) انظر الهمداني: صفة جزيرة العرب ص١٧٣.

وتمتد منازلهم إلى عسفان شمالاً ، وإلى وادي حنين جنوباً ، وإن كان يذكر أن بني لحيان منازلهم الآن داخل الحرم من الأميال إلى مكة ، وما بين التنعيم ووادي فاطمة ، ويقرر أن هذه كانت منازلهم منذ العصر الجاهلي(١٥٥). وفي هذا تساهل كبير؛ فما عرف أحد أن بني لحيان كانوا يسكنون داخل الحرم في العصر الجاهلي.

هذا ، وقد نقل عنه الدكتور جواد علي أن مساكن بني لحيان تقع في العصر الحاضر داخل الحرم(١٥٦) ، ولكنه لم يشر إلى أن هذه كانت مساكنهم في الجاهلية.

ويسوق صاحب المنجد أن «مواطنهم في يومنا حول الطائف في جبل قُرّة ، وفي ظواهر مكة»(١٥٧).

والحق أنه ليس هنالك جبل يسمى بهذا الاسم ، وإنما هو جبل «كُرّ» أو «كراء» ، وقد سبقت الإشارة إلى أنهما من سلاسل الجبال المحيطة بالطائف (كرّ وكراء والهدّة)(١٥٨).

ويبدو أن صاحب المنجد قد ترجم عبارته عن مقال «هذيل» في دائرة المعارف الإسلامية ، وملامح عبارته هي ملامح المقال مع الاختصار والإيجاز ، ومن هنا جاء اسم هذا الجبل عنده محرفاً ، إذ حُرّف مرة في الترجمة من العربية إلى الإنجليزية ، وأخرى من الإنجليزية إلى العربية نظراً لاختلاف الأصوات والحروف ، وطبيعة النطق في كل من اللغتين(١٥٩).

---

(١٥٥) صحيح الأخبار ١٨٦/٢ .

(١٥٦) تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٢٩/٢ .

(١٥٧) المنجد ص٥٥٠ .

(١٥٨) انظر (في منزل الوحي) ص٣٦٦ .

(١٥٩) انظر Encyclopedia of Islam Vol 2, Hudhail, 329.

مكة والمدينة:

وقد كانت هذيل في العصر الجاهلي يلم بعض أفرادها بالحضر القريب منها[١٦٠] في مكة والمدينة وغيرهما، كما يفعل الأعراب الآخرون، ولكنها منذ فجر الإسلام لم تعد صِلاتها بالحضر مقصورة على ذلك، وإنما بدأت جماعات من الهذليين تستقر في هذا الحضر، ولا سيما مكة والمدينة، فيذكر ياقوت أنه «لما قدم رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجراً أقطع الناس الدور والرباع، فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخرة المسجد... وجعل لعبدالله وعتبة ابني مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهم عند المسجد[١٦١].

وقد ازداد على الأيام عدد هؤلاء الهذليين بالمدينة سواء من النازحين إليها، أم من أبنائهم وأحفادهم الذين شبوا ونشأوا في ظلال هذا المجتمع الجديد.

فنجد من المسعوديين بالمدينة بعض الأعلام من العلماء والشعراء كعبيدالله بن عبدالله بن عتبة[١٦٢]، ووالده عبدالله بن عتبة العالم المحدّث[١٦٣].

ولم يكن ذلك أمراً مقصوراً على المسعوديين فحسب، بل كان بالمدينة كثير من الهذليين الآخرين منهم مسلم بن جندب الذي كان قاصّ مسجد الرسول، وكان إمامهم وقارئهم[١٦٤]، وهو أستاذ نافع بن أبي نُعيم[١٦٥]؛ وعبد الله بن مسلم بن جندب الذي كان إمام مسجد الأحزاب فيها[١٦٦]، والبُريق

---

(١٦٠) الإصابة ٢/١٥١.

(١٦١) معجم البلدان ٧/٤٣٠. طبقات ابن سعد ٣/١٠٨.

(١٦٢) سمط اللآلي ٢/٧٨١ ـ العقد الفريد ١/٢٠٤.

(١٦٣) شذرات الذهب ١/٨١.

(١٦٤) البيان والتبيين ١/٣٧٧.

(١٦٥) إنباه الرواة ٣/٢٦١.

(١٦٦) معجم البلدان ١/١٣٦.

الهذلي الشاعر[١٦٧] ، وأبو عمرو عبدالله بن الحارث الراوية[١٦٨] ، والنضر بن سفيان الهذلي[١٦٩] وأُصيل بن عبدالله الهذلي[١٧٠] ، وجندب بن سلامة الهذلي الذي أدرك الجاهلية ، وكان تاجراً بالمدينة في عهد عمر[١٧١] .

فالهذليون الذين أقاموا بالمدينة في صدر الإسلام وبعده كثيرون ، وهذه أمثلة لم نقصد منها الحصر والإحصاء .

وقد كان يقيم في مكة أيضاً كثير من الهذليين ، فيذكر صاحب أخبار مكة أنه « كان يقيم في مكة آل أبي طرفة الهذليين ، وكان لهم جانب من رباع بني عامر بن لؤي ، ومن دورهم هناك دار أبي طرفة ، ودار الطلحيين »[١٧٢] .

وقد كان لكثير من هؤلاء الهذليين عطاء في خلافة ابن الزبير ، ومنهم أبو صخر الهذلي الذي كان هواه مع بني أمية ، وكثيراً ما كان يمدحهم[١٧٣] ؛ ولذلك عندما دخل في هذيل منعه ابن الزبير عطاءه فهجاه[١٧٤] . فأمر بحبسه إلى أن شفعت فيه هذيل ، ومن كان له فيهم خئولة من قريش[١٧٥] .

* * *

ولم يكن هذا شأن الهذليين في مدن الحجاز المشهورة وحدها مثل مكة والمدينة ، بل نزح كثيرون منهم إلى الأقاليم الإسلامية الأخرى تحت راية الفتح الإسلامي وفي ظلاله ، شأنهم في ذلك شأن الكثيرين من العرب . ومنهم

---

(١٦٧) البقية ص٧٠ . المؤتلف والمختلف ص٢٦٨ .
(١٦٨) معاهد التنصيص ٢/١٦٨ .
(١٦٩) أسد الغابة ٥/١٨ .
(١٧٠) المرجع السابق ١/١٠١ .
(١٧١) الإصابة ١/٢٧٥ .
(١٧٢) الأزرقي : أخبار مكة ص١١٣ .
(١٧٣) الخزانة (ط بولاق) ٣/٢٣٧ . تاج العروس (ربع) .
(١٧٤) الخزانة (بولاق) ٣/٢٣٧ .
(١٧٥) المرجع السابق ١/٥٥٦ .

من رحل إلى هذه الأقطار بدافع من طلب العلم، أو في ركاب السياسة والحكم، ثم هم في أصل حياتهم بدو رحّل لا يعرفون الاستقرار، وقد كان آباؤهم وأجدادهم يرحلون في بادية كلها أو جلها خشونة وشظف، فلا عليهم أن يرحلوا هم أيضاً إذا كانت رحلاتهم هذه ستنتهي بهم إلى شيء غير قليل من الراحة والدعة في ظل هذا المجتمع الجديد؛ ولهذا كله ألقوا عصاهم في كثير من الأمصار الإسلامية، فمنهم من ذهب إلى نيسابور(١٧٦)، ومنهم من شد الرحال إلى نصيبين(١٧٧)، أو إلى مكران(١٧٨) ثم إلى حلب(١٧٩)، وحمص(١٨٠)، والحلة(١٨١)، واللاذقية(١٨٢) من بلاد الشام، وكذلك بعض بلاد اليمن(١٨٣).

ولكن أهم الأقاليم الإسلامية التي رحلوا إليها، وكان لهم في بعض جوانب الحياة فيها شأن إنما هي العراق والمغرب ومصر.

الهذليون في العراق:

لا تخلو أمصار العراق المعروفة من وجود هذليين يشاركون في مجتمعها. والعراق إقليم إسلامي له من الخصائص ما جعل أفئدة كثيرين من العرب تهوى إليه.

وأهم أمصار العراق، وأجدرها بالنظر في هذا الشأن: الكوفة، والبصرة، وبغداد.

---

(١٧٦) شذرات الذهب ٣/ ٢٠٨.

(١٧٧) البيان والتبيين ١/٣٠٣.

(١٧٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٣٨.

(١٧٩) طبقات القراء ٣/٢٠٠.

(١٨٠) الإصابة ٦/١٨٥.

(١٨١) السيوطي: البغية ص٤١٠.

(١٨٢) طبقات القراء ١/٣٧٧.

(١٨٣) تاج العروس (حجر).

الكوفة :

كانت الكوفة من أكثر الأمصار الإسلامية استقبالاً للوافدين من هذيل ، وربما كانت من أشدها تأثراً بهم ، فقد كان رأس الوافدين إليها من هؤلاء الهذليين عبدالله بن مسعود الذي ولاه عمر بيت المال فيها[١٨٤] ، فنزل بها ، وابتنى فيها داراً إلى جانب المسجد[١٨٥] .

وقد كان لابن مسعود منزلة علمية رفيعة ، فأقبل عليه الكوفيون يأخذون عنه العلم ، وكأنما قد زادهم تحفياً به ، وإقبالاً عليه ما رأوه من تقدير الخلافة له ، وإعظامها لشأنه ، فقد كتب إليهم أمير المؤمنين عمر : « إني بعثت إليكم بعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وآثرتكم به على نفسي فخذوا عنه »[١٨٦] .

وإلى جانب كونه فقيهاً كان محدثاً ، وكان من الأعلام المشهورين في علوم القرآن وقراءاته ، وقد أقبل عليه الكوفيون ، وتلمذوا له في هذا الفرع من الدراسات القرآنية ، وكان كثيرون منهم يفضلون قراءته على غيرها[١٨٧] بل كانوا يتعصبون لها تعصباً شديداً ، وتخرّج منهم على يده ، ويد تلاميذه كثير من مشاهير علماء القراءات في الكوفة من أمثال زِرّ بن حُبيش تلميذ ابن مسعود نفسه ، وأبي بكر بن عياش ، وعاصم بن أبي النَّجود أحد القراء السبعة ، وشيخ الإقراء بالكوفة في عهده[١٨٨] ، ومنهم سليمان بن مهران الأعمش[١٨٩] ، ويحيى بن وثاب ، وأستاذه مسروق[١٩٠] ، وطلحة بن

---

(١٨٤) الأخبار الطوال ص١٢٩ ، الزركلي : الأعلام ٢/٥٨٥ .

(١٨٥) طبقات ابن سعد ١٠/١١ .

(١٨٦) المرجع السابق ٣/١١١ .

(١٨٧) طبقات القراء ٢/٣٨٠ .

(١٨٨) طبقات القراء ١/٣٤٦ .

(١٨٩) المرجع السابق ١/٣١٥ .

(١٩٠) المرجع السابق ٢/٢٩٤ .

مصرِّف[١٩١] ، وغيرهم كثير[١٩٢] . وكذلك الربيع بن خيثم الكوفي التابعي أخذ القراءة عن ابن مسعود[١٩٣] ، وأبو عمرو الشيباني عالم اللغة المشهور بالكوفة ، والذي كان يقرىء الناس بمسجدها له أيضاً رواية عن ابن مسعود[١٩٤] ، ثم إن حمزة وهو أحد القراء السبعة تنتهي قراءته إلى ابن مسعود[١٩٥] ، والمفضل الضبي العالم النحوي اللغوي الراوية كان من القراء الذين أخذوا عن عاصم ، وعن الأعمش[١٩٦] ، وكلاهما ـ كما سبق ـ تنتهي قراءته إلى ابن مسعود[١٩٧] .

وهكذا نجد أن تلاميذ ابن مسعود من قراء الكوفة أكثر من أن نحصيهم عدّاً ، ومن هؤلاء بعض الهذليين أنفسهم مثل أبي عبيدة معن بن عبد الرحمن ابن عبدالله بن مسعود الذي روى القراءة عن الأعمش[١٩٨] ، ومحمد بن أبي عبيدة هذا ، وقد روى القراءة عن حمزة[١٩٩] .

وكثيراً ما نجد أن علماء اللغة والنحو في الكوفة من القراء ، وربما كان كثيرون منهم من مدرسة ابن مسعود نفسه ، كالمفضل الضبي ، وأبي عمرو الشيباني ، وقد سبقت إليهما الإشارة . والفراء النحوي الكوفي المعروف روى القراءة عن أبي بكر بن عياش ، وعلي بن حمزة الكسائي[٢٠٠] ، ومحمد بن الحسن بن يونس أبو العباس الهذلي المعدود في نحاة الكوفة كان هو الآخر

---

(١٩١) المرجع نفسه ١/٣٧٧ .

(١٩٢) المرجع نفسه ١/٣٧٧ ، ٤٥٨ .

(١٩٣) نفس المرجع ١/٢٨٣ .

(١٩٤) شذرات الذهب ١/١١٣ .
طبقات القراء ١/٣٠٣ .

(١٩٥) المرجع الأخير ١/٤٥٨ .

(١٩٦) المرجع السابق ٢/٤٠٣ .

(١٩٧) المرجع نفسه ١/٤٥٨ .

(١٩٨) طبقات القراء ١/٦٠٢ .

(١٩٩) المرجع السابق (نفس الموضوع) .

(٢٠٠) المرجع نفسه ٢/٣٧٠ .

من القراء[٢٠١] بل إن رأس مدرسة الكوفة النحوية، وهو الكسائي هو نفسه من القراء السبعة المعروفين.

ولهذا كانت القراءات بعامة، وقراءة ابن مسعود بخاصة ذات أثر عميق في المدرسة الكوفية، حتى إنهم - على عكس البصريين - يعتدون بها، إلى جانب الشعر، مصدراً هاماً من مصادر النحو الكوفي، فهم من أكثر الناس إدراكاً لفضل هذه القراءات والاعتداد بها في النحو واللغة؛ لما يحوطها من سياج ينأى بها عن الوضع والانتحال اللذين قد يستهدف لهما الشعر، ويبعد بها عن الخطأ الذي يحدث - أحياناً - عند الرواية عن الأعراب الذين قد لا تحسن نيتهم في كل ما يرويه عنهم علماء اللغة ورواتها.

وهكذا نرى أثر ابن مسعود وتلاميذه واضحاً في قراء الكوفة، وفي غيرهم من علماء العربية، وقد يلمس الباحث ذلك بجلاء في منهج النحو والنحاة في مدرسة الكوفة.

هذا، وقد كان من علماء الكوفة الهذليين ذلك النحوي اللغوي علي بن حازم «اللحياني» الذي أخذ عن الكسائي وغيره، وأخذ عنه أبو عبيد القاسم بين سلّام، وهو من بني لحيان بن هذيل[٢٠٢].

ومنهم عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان قاضياً لمصعب بن الزبير على الكوفة[٢٠٣]، وعون بن عبد الله بن عتبة، وكان راوية ناسباً شاعراً[٢٠٤]، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة وكان من المحدثين[٢٠٥]، والقاسم بن معن ابن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود الذي كان من علماء الكوفة بالعربية،

---

(٢٠١) البغية ص٣٦. طبقات القراء ٢٩/٢، ٢٨٩.

(٢٠٢) معجم الأدباء ١٠٦/١٤ - بغية الوعاة ص٣٤٦.
تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٢٩/٣.

(٢٠٣) طبقات ابن سعد ٨٢/١٠ - أسد الغابة ٣١٦/٢ - الإصابة ١٠٠/٤.

(٢٠٤) البيان والتبيين ٤٤٣/١.

(٢٠٥) شذرات الذهب ٢٤٧/١.

والفقه، والحديث، والشعر، والأخبار[٢٠٦]، وكان قد ولي القضاء بالكوفة[٢٠٧]، وهو أستاذ لابن الأعرابي من الكوفيين البارزين[٢٠٨].

فكانت بيئة الكوفة - كما سبق أن أشرنا - غنية بآثار الهذليين وتلاميذهم في اللغة والعلم والأدب جميعاً.

البصرة:

نزل البصرة من الهذليين عددٌ ليس بالقليل ولكن الآثار التي نجدها لهؤلاء الهذليين فيها ربما كانت أقل من نظائرها في الكوفة؛ لأن حظ البصرة من النابهين من هذيل كان - فيما يبدو - أقل من حظ الكوفة منهم.

وقد كانت هذه الآثار - غالباً - في ميدان غير ميدان البحث اللغوي، والنحوي، وقراءات القرآن الكريم، فقد اتفق أن كان أغلب هؤلاء من المحدّثين المقلّين من أمثال أبي المُليح الهذلي[٢٠٩] الذي كان عاملاً على الأُبلة، وكان يشهد الجمعة في البصرة، وهو من المعدودين في البصريين[٢١٠]. ومحمد ابن أبي المليح الذي ذكره ابن حِبّان في الثقات، وذكر أنه قد روى عنه البصريون[٢١١]، وأبو عزة الهذلي[٢١٢]، وهو صحابي من بني طابخة بن لحيان[٢١٣]، ونُبيشة الخير، وهو الآخر صحابي من بني لحيان[٢١٤]، وحمل بن مالك بن النابغة من بني طابخة بين لحيان أيضاً، وهو من أصحاب الرسول، وكان قد استعمله النبي على صدقات هذيل، وقيل إنه روى عنه ابن

---

(٢٠٦) البغية ص٣٨١ - معجم الأدباء ١٧/٥.
(٢٠٧) الزبيدي: الطبقات ص١٤٦ - معجم الأدباء ١٧/٥.
(٢٠٨) معجم الأدباء ١٨/١٨٩.
(٢٠٩) صحيح مسلم ٣/١٥٣.
(٢١٠) طبقات ابن سعد ١١/١٥٩.
(٢١١) ابن حجر: تعجيل المنفعة ص٣٧٨.
(٢١٢) طبقات ابن سعد ١١/٥٦.
(٢١٣) أسد الغابة ٥/٢٥٣.
(٢١٤) أسد الغابة ٥/١٣. الإصابة ٦/٢٣١.

عباس[٢١٥] ، ثم نزل البصرة بعد فتح العراق وأقام فيها[٢١٦] ، وروح بن عبد المؤمن أبو الحسن الهذلي النحوي[٢١٧] الذي قرأ على إمام البصرة يعقوب بن إسحاق الحضرمي ، وكان إماماً ثقة روى عنه البخاري[٢١٨] . ومن هؤلاء الهذليين البصريين أبو بكر الهذلي الذي كان من العلماء بأيام العرب وأنسابها ، وكان يروي هذا العلم عن قتادة[٢١٩] .

وقد كان بالبصرة من القراء صائن الدين الهذلي[٢٢٠] ، وهو ليس - فيما أعلم - من مشاهير القراء المعروفين. وقد ألم بالبصرة أبو القاسم الهذلي صاحب كتاب الكامل في القراءات ، فقرأ على بعض شيوخها[٢٢١] .

وممن نزل البصرة العلاء بن شريك الهذلي ، وكان عبد الملك قد أقطعه أرضاً هناك ، وكان في هذه الأرض نهر صغير سمي باسمه[٢٢٢] .

هذا ، وقد كان للهذليين بالبصرة خطة لسكناهم وإقامتهم ، وفيها درب كان يعرف بدرب الحبش (نسبة إلى حبش أسكنهم عمر بالبصرة) ، وكان يلي هذا الدرب مسجد أبي بكر الهذلي[٢٢٣] .

بغداد :

إذا كان الهذليون أقل انبعاثاً ، وأضعف نشاطاً وآثاراً في البصرة منهم في الكوفة ، فإنهم لكذلك في بغداد ، وربما كان شأن معظمهم فيها أقل من شأنهم في البصرة .

---

(٢١٥) تاج العروس (حمل) .

(٢١٦) الإصابة ٢/٢ .

(٢١٧) مناهل العرفان ص٤٥٦ . طبقات القراء ٢٨٣/١ .

(٢١٨) طبقات القراء ١٨٣/١ .

(٢١٩) المزهر ٢١٠/٢ . إنباه الرواة ٣٥/٣ .

(٢٢٠) طبقات القراء ٢٥٥/٢ .

(٢٢١) المرجع السابق ٤٧٣/١ .

(٢٢٢) البلاذري : فتوح البلدان ص٣٥٤ ، معجم البلدان ٣٤١/٨ .

(٢٢٣) معجم البلدان ٢١٠/٣ .

وأغلب من نزل بغداد ـ في كل حال ـ أصلهم من البصريين أو الكوفيين الذين اجتذبهم مجتمع بغداد، تلك المدينة الناشئة في ظل الخلافة العباسية.

ومن الهذليين النازلين بها أبو بكر الهذلي العالم الإخباري الذي قد سبق الحديث عنه في البصرة، والذي نزل بغداد في خدمة البلاط العباسي على عهد السفاح[٢٢٤]، والمنصور[٢٢٥]. ومنهم أبو معمر الهذلي من المحدثين[٢٢٦]. وقد حدث عنه بعض البغداديين[٢٢٧]. وعبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود الذي ذكر في الكوفيين، ولكنه نزل بغداد، وتوفي بها، وكان ـ كما يقول ابن سعد ثقة كثير الحديث[٢٢٨].

هذا، وقد ألم ببغداد أبو القاسم الهذلي ـ في تطوافه بالأمصار الإسلامية طلباً للعلم ـ فقرأ على بعض شيوخ القراءات فيها[٢٢٩].

ولعل من أهم الهذليين في بغداد المسعودي المؤرخ، الرحالة، البحاثة الذي أقام في مصر مدة[٢٣٠]، وهو من ولد عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وصاحب كتاب «مروج الذهب» المعروف بين كتب التاريخ.

* * *

الهذليون في المغرب:

لعل أول عهد للهذليين بالمغرب هو خروج عدد منهم في جيش عبد الله ابن سعد بن أبي السرح لغزو أفريقية[٢٣١]، وكان من هؤلاء أبو ذؤيب الهذلي

---

(٢٢٤) الأبشيهي: المستطرف ١/١٣٨.

(٢٢٥) المرجع السابق ١/١٣٠، ١٩٨.

(٢٢٦) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٢/٥٦. جولدتسيهر: العقيدة والشريعة ص٣٣١.

(٢٢٧) معجم البلدان ٧/١٣٠.

(٢٢٨) ابن سعد: الطبقات. ١/٢٥٤.

(٢٢٩) طبقات القراء ١/٦٣، ١٤٦.

(٢٣٠) الزركلي: الأعلام ص٦٦٦.

(٢٣١) ابن حجر: الإصابة ٧/٦٤.

الشاعر المخضرم المعروف، وذلك بعد سنة ٢٦ هـ/٦٤٦ م[٢٣٢]. وكان في هذه الغزوة عبد الله بن الزبير، فأرسله القائد إلى عثمان بشيراً بفتح قرطاجنة، وكان في صحبته أبو ذؤيب، فأدركته منيته في مصر[٢٣٣]، أو في المغرب نفسه كما جاء في بعض المصادر[٢٣٤].

هذا شأن الجيش الفاتح في الصدر الأول للإسلام، ومن كان ينضوي تحت لوائه من هذليين وغيرهم. ولكنا بعد هذا نجد في المغرب كثيراً من الهذليين، ومنهم من يرجع نسبه إلى أبي ذؤيب نفسه[٢٣٥]. ويذكر ابن خلدون أنه «كان منهم - في أيامه - قبيلة بنواحي باجة يعسكرون مع جند السلطان، ويؤدون المغرم»[٢٣٦].

فلعل بعض هؤلاء الفاتحين قد بقي منهم من بقي، ونزح إليهم من نزح؛ ولهذا نجد بعض أبناء هؤلاء الهذليين وأحفادهم في مختلف نواحي المغرب.

وتحدثنا المراجع أنه كان من بين هؤلاء الهذليين الأحفاد علماء في النحو واللغة والقراءات وغيرها.

ومن هؤلاء العلماء عيذون الهذلي[٢٣٧]، وحفيده علي بن عبد الجبار بن سلامة بن عيذون الهذلي التونسي، ولد بتونس سنة ثمان وعشرين وأربعمائة[٢٣٨]، وكان إماماً عظيماً في اللغة، حتى قيل إنه لم يكن في زمانه أعلم منه بها[٢٣٩]. رحل إلى صقلية، وأخذ عن ابن القطاع الصقلي، ولقي

---

(٢٣٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ١٦٩/١.
Encyclopedia of Islam Vol 1, P3

(٢٣٣) أسد الغابة ١٨٩/٥.

(٢٣٤) الإصابة ١٨٤/٢ - الشعر والشعراء ص١٥٤. حسن المحاضرة ١٠١/١.

(٢٣٥) معجم البلدان ١٨٢/٢.

(٢٣٦) تاريخ ابن خلدون ٣١٦/٢ - معجم قبائل العرب ٢١٣/٨.

(٢٣٧) تاج العروس (عوذ).

(٢٣٨) معجم الأدباء ٨/١٤ وما بعدها.

(٢٣٩) القفطي: إنباه الرواة ٢٩٢/٢ - السيوطي: البغية ص٢٤٠.

بها ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة، ثم رحل بعدُ إلى الإسكندرية وبها كانت وفاته[٢٤٠].

ومنهم يوسف بن علي بن جُبَارة المغربي البَسْكري النحوي القارىء الرحالة الذي طاف بكثير من البلاد في طلب القراءات[٢٤١]، وهو صاحب كتاب الكامل المشهور عند أهل هذا العلم. ونسبه في طبقات القراء «البشكري» وهو تصحيف، إذ هو منسوب إلى بسكرة التي يذكر ياقوت أنها بلدة بالمغرب من نواحي الزاب.

ومن هذه المدينة أيضاً رُبْلَيس بن هُديد الذي يرجع نسبه إلى أبي ذؤيب الهذلي، وكان من علماء النحو والقراءة، رحل إلى الشرق، وسمع من علمائه[٢٤٢].

ومنهم فضل بن أحمد الهذلي القارىء الذي روى القراءة عن يعقوب الحضرمي[٢٤٣]، ويحيى بن عبد الله التطيلي الأصل، الهذلي، الغرناطي، الأديب الشاعر، وقد ذكر السيوطي أنه كان عالماً بالنحو واللغة، والتاريخ، والعروض[٢٤٤].

وإذا تتبعنا هؤلاء الهذليين من العلماء والأدباء بحثاً واستقصاء، وجدنا منهم بالمغرب العدد الكثير.

★ ★ ★

---

(٢٤٠) إنباه الرواة ٣/٩٠.

(٢٤١) طبقات القراء ١/٦٣، ٣٧٥، ٤١٤، ٥٢٣، ٥٣٥ - ٢/٧٩، ١٣٢.
ابن الجزري: غاية النهاية ٢/٣ - القراءات الشاذة ص١٧.

(٢٤٢) معجم الأدباء ١/١٨٢، ٢٠/٦١، ٦٢.

(٢٤٣) طبقات القراء ٢/٨.

(٢٤٤) بغية الدعاة ص٤٩٢.

الهذليون في مصر:

قدم بعض الهذليين مصر جنداً في الجيش الفاتح بقيادة عمرو بن العاص في عهد عمر[٢٤٥]، وبعد أن تم للمسلمين الفتح أمرهم عمرو بالبناء حول فسطاطه، ففعلوا، واتصلت العمارة بعضها ببعض، وسمي مجموع ذلك الفسطاط[٢٤٦].

وقد كان بالفسطاط خطط وأحياء لمختلف القبائل العربية التي شاركت في الفتح[٢٤٧].

والقبائل التي لم يكن لها عدد يمكن أن يقوم بنفسه في خطة باسمها، وكرهت أن تدعى باسم قبيلة غيرها جعل لهم عمرو بن العاص راية لم ينسبها إلى أحد، فسميت خطتهم مجتمعين بخطة أهل الراية، وهم جماعة من قريش، والأنصار، وخزاعة، وأسلم وغيرهم، ولم يكن من بينهم هذيل، وفي هذا ما يدلّ على أنها وإن فاقها غيرها من بعض القبائل العربية في عدد الفاتحين من أبنائها - لم يكن عدد الفاتحين منها قليلاً، فكان لها وحدها خطة باسمها، ولم تكن من بين أهل الراية هؤلاء[٢٤٨]. وكانت خطة هذيل مجاورة لخطة بني شبابة من قبيلة فهم القيسية[٢٤٩]، ويذكر المقريزي أن من خطط الفسطاط كانت خطط الحمراوات الثلاث، وهي خطط بليّ، وفهم، وعَدْوان، وبعض الأزد، وهذيل وغيرهم.

ثم يذكر أن خطة هذيل كانت من مساكن خطة الحمراء الوسطى بين هذه الحمراوات الثلاث، ويجاورهم فيها خطة بعض الأزد، وخطة عدوان من قيس[٢٥٠].

---

(٢٤٥) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص٢٥٦ - الإصابة ١/٨، ١٢ - ١٤٣/٧.

(٢٤٦) حسن المحاضرة ١/١٠.

(٢٤٧) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٩٨.

(٢٤٨) المقريزي: الخطط ١/٢٩٦.

(٢٤٩) فتوح مصر ص١٢٠.

(٢٥٠) المقريزي: الخطط ١/٢٩٨.

فكما قدّر لهذيل أن تكون مساكنها في الجزيرة العربية مجاورة لبعض القبائل مثل فهم وعدوان وغيرهما، فإنها هنا أيضاً تجاور بعض أولئك وهؤلاء في مساكنهم بالفسطاط، فهل هذا محض اتفاق، أو أن النفوس تهفو دائماً إلى من ألفت كما يقضي بذلك ناموس الحياة؟

ويسوق ابن عبد الحكم في كتابه «فتوح مصر» أنه إذا جاء وقت الربيع واللبن كتب عمرو إلى كل قوم بربيعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا، فكانت هذيل تأخذ في بوصير، وكانت عدوان تأخذ أيضاً في بوصير(٢٥١)، ونجد مثل هذا تماماً عند المقريزي في خططه، وفي الخطط التوفيقية أيضاً نقلاً عن المقريزي(٢٥٢). وهذا يؤكد التجاور بين هذه القبائل المتقاربة في طابعها، وأثرها في البيئة الجديدة.

هذا في إيجاز ما تشير إليه المراجع بشأن منازل الفاتحين من العرب، ومحالّ إقامتهم ونزولهم في مصر.

ولكن يبدو أن العرب الذين شاركوا في الفتح من هذليين، وغير هذليين لم تكن إقامتهم في مصر وقفاً عليهم، وإنما توالت الهجرات إليها إلى قرون متأخرة، فهل كان من هؤلاء العرب المهاجرين بعض الهذليين؟ فقد نجد في أشعارهم ما يشير إلى ذلك كما في قول البريق، (ويرويها الأصمعي لعامر بن سدوس)(٢٥٣)، وكلاهما هذلي:

فإن أمس شيخا بالرجيع وولدة ... ويصبح قومي دون داراهمُ مُصر
أسائل عنهمْ كلما جاء راكب ... مقيماً بأملاح كما ربط اليعْر
فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم ... بستة أبيات كما نبت العتر(٢٥٤)

(٢٥١) فتوح مصر ص١٤١.
(٢٥٢) الخطط التوفيقية ١٠/٩٣.
(٢٥٣) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٢/٨٢٨.
(٢٥٤) ديوان الهذليين القسم الثالث ص٥٨، ٥٩.

فهو يشكو لوعة الأسى لفراق أهله الذين هاجروا إلى مصر كما نرى في شعره، وكما يقول البكري في معجمه[٢٥٥]، فهل يشير البكري إلى الهجرة اللاحقة للفتح؟ أو يقصد أنهم خرجوا إليها في الفتح، وأقاموا بها فهم إذن من المهاجرين إليها؟

الحق أننا لم نجد في كتب التاريخ شيئاً صريحاً عن هجرات هؤلاء الهذليين إلى مصر بعد الفتح، كما نجد عن هجرات قيس[٢٥٦]، وغيرها من قبائل العرب. ولكن لعل هجرات الهذليين لم تكن ذات بال يأبه له هؤلاء المؤرخون؛ فلم يكتبوا عنها كما كتبوا عن غيرها.

وأيّا ما كان الأمر، فإن هؤلاء الهذليين ـ فاتحين أو مهاجرين ـ لم يكن عددهم في مصر وفي غيرها بالعدد القليل؛ حتى أن بعض المؤرخين قد قرر في مبالغة وإسراف ـ كما أشرنا ـ أنهم قد تفرقوا في الإسلام على الممالك، ولم يبق لهم في الجزيرة العربية حي يطرق[٢٥٧].

فإذا كان عدد هؤلاء المهاجرين من الهذليين إلى الأقاليم الإسلامية بعامة هو على درجة من الكثرة تدعو إلى مثل هذا القول، فإنهم في مصر بخاصة كان عددهم ـ في أغلب الظن ـ أكثر منهم في غيرها. وقد رأينا في شعر البريق الهذلي ما يشير إلى ذلك[٢٥٨]. كما نجد في التقديم لشعر بدر بن عامر، وأبي العيال بديوان الهذليين ما يستدل به على خروج جماعة منهم إلى مصر في عهد عمر[٢٥٩].

وهذا أبو صخر الهذلي يذكر ـ في لوعة ـ آل مُحرِّق من قومه وقد خلت

---

(٢٥٥) معجم البلدان (أملاح) ٢٥٥/١ (ط بيروت). شرح أشعار الهذليين ٧٥١/٢.

(٢٥٥) معجم ما استعجم ٢٨٢/١. ٢٥٤/٢.

(٢٥٦) فتوح مصر ص١٤١. المقريزي: الخطط ٨٠/١.

(٢٥٧) تاريخ ابن خلدون ٣١٩/٢. معجم القبائل العربية القديمة والحديثة ١٢١٣/٣. وانظر هذا الفصل ص٧٠.

(٢٥٨) انظر الصفحة السابقة.

(٢٥٩) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص٢٥٦

منهم منازلهم في تهامة، واستبدلوا بها بابليون وغيره في مصر[٢٦٠] حيث يقول:

ومـاذا ترجّـى بعـد آل محرّق عفا منهمُ وادي رُهاط إلى رحُب
خلوا من تهامي أرضنا وتبدلوا بمكة بابليون والرُّبْط بالعَصْب[٢٦١]

وما أحسب إلا أن مثل هذا الجوى هو الذي يحمله على أن ينفث نفثة المصدور حين يقول:

لو أن مـا حُمّلـت حُمّلـه سعفات رضوَى أو ذري بُرْم
لكلَلْن حـتى يختشعن لـه والخلق من عُرب ومن عجم[٢٦٢]

ولم يكن الأمر في ذلك مقصوراً على أبي صخر، فكثيراً ما نجد شعر الهذليين يرثي من ماتوا لهم في مصر، أو يعبر عن شوقهم إلى من نزحوا إليها من أهلهم وذويهم[٢٦٣]، وتلك ظاهرة قلما نجدها في غير مصر من الأقاليم العربية والإسلامية.

وهناك ظاهرة أخرى نحسها في هذيل مصر، تلك أنهم كانوا يشاركون بعض المشاركة في الأحداث الكبرى في المجتمع الإسلامي، وقد كان لهم دور ظهروا فيه على مسرح السياسة مع غيرهم معارضين لسياسة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وشاركوا في الفتنة التي كان من أهم نتائجها مقتل عثمان وما تلاه من أحداث، فكانوا من القبائل الضالعة في قتله من عرب مصر التي ذهبت ثائرة إلى المدينة[٢٦٤].



هذا شأن الهذليين في مصر في الصدر الأول للإسلام من حيث مشاركتهم

(٢٦٠) معجم البلدان (بابليون) ٣١١/١ (ط بيروت).
(٢٦١) نفس المرجع والصفحة.
(٢٦٢) المرجع نفسه (بُرْم) ٤٠٣/١ (ط بيروت).
(٢٦٣) البقية ص٤٢. معجم البلدان ٣٣٧/١ (ط بيروت).
(٢٦٤) معجم ما استعجم ٢٨٢/١، ٤٥٤/٢.

في بعض ما كان يحيط بهم من أحداث، ومن حيث مساكنهم ومحالهم التي كانوا ينزلونها بالفسطاط، والمرابع التي كانوا يرتبعون فيها هم وغيرهم من القبائل العربية في بعض أيام السنة.

وهذه القبائل العربية في مجموعها لم تكن - في أول أمرها - لتُبعد في الريف المصري وقراه للإقامة الدائمة، فقد كان ذلك أمراً محظوراً على هؤلاء المحاربين من العرب الفاتحين؛ حتى لا يذوبوا في غيرهم، ولا يركنوا إلى الدعة والهدوء، فيفقدوا خصائص المحاربين الشجعان.

ولكن بمرور الأيام، وتتابع الأجيال صار هؤلاء العرب من أهل مصر لحماً ودماً بعد أن نزلوا في الأقاليم المختلفة، وأقاموا فيها، وامتزجوا بأهلها. ويذكر المقريزي أن الهذليين كانوا ينزلون في أخميم، وفي طوخ دلكة[٢٦٥]. ويقول صاحب معجم قبائل العرب إنهم «نزلوا بطوخ الجبل من إخميم بالديار المصرية»[٢٦٦].

ومع هذا نجد أن بعض الهذليين كانوا ينزلون بجهات قنا وقوص، ومنهم بعض العلماء، والنابهين من الحكام من أمثال الحسين بن رضوان بن هبة الله... الهذلي الذي كان يلقب بفخر الدين القنائي، وكان حاكماً بقنا، ومن العلماء الممتازين في القرن السابع الهجري[٢٦٧].

ومنهم محمد بن إبراهيم المعروف بابن صالح الهذلي القنائي الذي كان يلقب بالصدر، وكان من المحدثين الذين سمعوا من أبي الفتح القشيري وغيره، وكان من أثرياء قنا المعروفين بالبذل والسخاء، وتولى الحكم في بلده مدة، ثم تركه ليفرغ لشؤونه الخاصة[٢٦٨].

ومنهم أيضاً يونس بن عبد المجيد بن علي بن داود الهذلي القاضي سراج الدين الأرمنتي، كان فقيهاً أديباً شاعراً محمود السيرة في القضاء، وسمع من

---

(٢٦٥) المقريزي: الخطط ٢٩٨/١.

(٢٦٦) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ١٢١٣/٣.

(٢٦٧) الإدفوي: الطالع السعيد ص١١٦.

(٢٦٨) المرجع السابق ص٢٦٤.

كبار المحدثين في مصر[٢٦٩]. وكان يحدث بقوص وغيرها.

لهذا نرى أن الهذليين كان نزولهم في مصر بالصعيد الأعلى: يقيمون فيه، وربما تنقلوا بين أرجائه، ولعل في شعر أبي العيال الهذلي ما يستأنس به في ذلك حين يقول عن قومه:

فاستقبلوا طرف الصعيد إقامة طوراً وطوراً رحلة وتنقل[٢٧٠]

* * *

(٢٦٩) الإدفوي: الطالع السعيد ص٤٢١

(٢٧٠) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص٢٥٥

الفصل الثالث

حياة الهذليين

(١) حياتهم في الجاهلية

(٢) وضعهم في الاسلام



(١) حياتهم في الجاهلية

الحياة المادية:

كانت هذيل - في أغلب أمرها - تعيش عيشة البدو الرحل الذين ينتجعون الماء والكلأ، وتتنقل بطونها المختلفة بحثاً وراء هذين العنصرين اللذين يمثلان أهم مقومات الحياة البدوية في صحراء قلما جادت على أصحابها بمظهر من مظاهر العيش الناعم التي كان يحياها أهل المدر في المدن والقرى المنبثة في كبد الصحراء مثل مكة والمدينة والطائف، أو القابعة في الجنوب كما هو الشأن في بلاد اليمن، أو في أقصى الشمال الشرقي كما في الحيرة، أو الشمال الغربي كما كان عند الغساسنة في بلاد الشام.

الرعي:

لهذا كانت حياة هؤلاء الهذليين تقوم أكثر ما تقوم على رعي الإبل والشاء، والانتفاع بلحومها وألبانها وجلودها، وما يتبع ذلك من منافع أخرى.

وهذه الإبل والشاء كان يرعاها في العادة فقراؤهم، ويقتنيها الأغنياء منهم، وتبدو آثار ذلك واضحة في أشعارهم، وفي أخبار غاراتهم وحروبهم، وأحاديث الكرم عندهم (أي عند القادرين منهم) ومن ذلك قول شاعرهم المشهور أبي ذؤيب:

لنــــا صِرَم ينحرن في كـــل شتوة   اذا ما سماء الناس قل قطارها[1]

فهم ينحرون أعداداً من هذه النَّعم في كل شتاء عندما يقل الغيث، ويكثر الجدب، ويزداد عدد العفاة والمحتاجين من الناس.

وها هو ذا قيس بن العيزارة من بني صاهلة نراه حين يريد أن يفتدي نفسه من الأسر يغري آسريه من قبيلة فهم بأنه سيعطيهم من الإبل والشاء ما يشبعهم، وذلك حين يفكون أسره، ويطلقون سراحه.

فقلت لهم شاء رغيب وجامل   فكُلُّكُمُ من ذلك المال شابع[2]

وهذا هو البُرَيق الهذلي يملأ الجو من حوله فخراً واعتزازاً بأن قومه من «خُناعة» كانوا! أهل غنىً وثروة، فهُم يمتلكون الجمال والنوق، ينزلون بها من المنازل المخصبة، والتلاع المعشبة ما لم يسبق الى رعيه قبلهم أحد:

نشق التـــلاع الحوَّلم تُرعَ قبلنــــا   لناالصارخ الحثحوث والنَعَم الحمر[3]

هذا، ونجد في دواوين شعر هذيل اشارات أخرى كثيرة تدلنا - في وضوح - على أن من هؤلاء الهذليين من كانوا أصحاب ابل كأغلب هؤلاء الذين مرّ ذكرهم، وكذلك بعض بني شمخ ومنهم المسعوديون (رهط عبدالله ابن مسعود)[4]، وغيرهم.

ومنهم من عُرف بأنه صاحب شاء وماعز، كقرْد، وكاهل[5]، وبعض بني قُريم[6].

وليس هنالك ما يمنع من أنْ بعض الأفراد او البطون قد عُرف بالجمع بين هذه الانعام في حوزته كما هو الشأن عند غير هذيل من العرب. وقد

---

(1) شرح أشعار الهذليين ١/٧٨٠. ديوان الهذليين ١/٢٧.
(2) شرح أشعار الهذليين (فراج) ٢/٥٩٠. وانظر ديوان الهذليين ٣/٧٧.
(3) شرح أشعار الهذليين ٢/٧٥٠. وانظر ديوان الهذليين ٣/٦٠.
(4) شرح أشعار الهذليين ٢/٨٠.
(5) ديوان الهذليين ١/٨٢. شرح أشعار الهذليين ١/١٦٠
(6) شرح أشعار الهذليين ٢/٨٠١.

سبقت الاشارة الى أن بني صاهلة أو بعضهم كانوا يُحرزون من هذه الأنعام ما لا يقتصرون فيه على بعضها دون بعض.

ولعل من نافلة القول ان نقول ان هذه النَّعم كانت عند الهذليين ـ كما هو الشأن عند غيرهم من العرب ـ هدفاً من أهم الأهداف، وباعثاً من أقوى البواعث التي تدفع القبائل العربية الى أن يغير بعضها على بعض، لأنها كانت عصب حياة البدوي يعتمد عليها في غذائه وكسائه وخبائه:

وقـائلـة مـا كـان حِـذوة بعْلهـا غـداتئـذ من شاء قرد وكـاهـل[٧]

أي ماذا كان نصيب زوجها من هذه الشاء غنيمةً في هذه الغزوة.

وهكذا نجد أن هذه النَّعم قد احتلت من حياتهم وشعرهم وغزواتهم ـ عادين مهاجمين أو منافحين مدافعين ـ مكانا له قيمته وخطره حتى انه ليبدو أن الإبل والشاء كان لها عند الهذليين المكان الأول الذي لا ينازعها فيه حيوان أليف آخر؛ فالخيل التي يعتمد عليها العربي كثيراً في الحاضرة والبادية لا نكاد نجد ـ فيما يبدو ـ أثراً واضحاً لها في حياة الهذليين، حتى انه ليبالغ بعض الرواة فيُدخلون في روعك أن الخيل كانت معدومة في هذه البيئة الهذلية، وقد يعزون ذلك الى قدرة الهذليين على العدو السريع[٨].

فيقرر الأصمعي ان الهذليين لم يكونوا أصحاب خيل، فهم عراجلة رَجّالة[٩] يخوضون الحرب راجلين، ويفرون حين يفرون شدا على أقدامهم؛ فلا يستطيع اللحاق بهم من يبتغيهم من عدوهم، وعلى هذا الأساس يعللون ما نسبوه الى أبي ذؤيب من خطأ حين يقول في وصف الفرس:

قصر الصَّبُوح لهـــا فشُرِّج لحمهـــا بالنِّيّ فهي تثوخ فيها الاصبع[١٠]

---

(٧) ديوان الهذليين ٨٢/١.

(٨) البيان والتبيين ٣٠٠/١. الأغاني (ساسى) ٣٨/٢١.

(٩) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٣٥/١.

(١٠) شرح أشعار الهذليين ٣٣/١. ديوان الهذليين ١٦/١.

فهو يشير إلى حسن القيام على تغذية هذه الفرس لكرامتها على صاحبها؛ حتى تكاثر عليها من الشحم ما لو غمزت فيه الاصبع لدخلت فيه.

ويروي صاحب الصناعتين في هذا قول الأصمعي: «إن هذه الفرس لا تساوي درهمين؛ لأنه جعلها كثيرة الشحم رخوة، تدخل فيها الاصبع، وانما يوصف بهذا شاء يضحي بها، وجعلها حروناً اذا حركت قامت»[11].

وكذلك يسوق السكري مثل هذا القول عن الأصمعي نفسه حين يقول ـ بحق ـ: «ان هذه لو عدَت ساعة لانقطعت لكثرة شحمها...» ثم يُعقِب هذا قوله: «وأبو ذؤيب ليس صاحب خيل»[12].

ثم ينقدونه كذلك حين يقول في مثل هذا الوصف من قصيدته:

تأبى بدرتها اذا ما استكرهت الا الحميم فانه يتبضع[13].

فالأصمعي يقول بان هذا مما لا توصف به الخيل ويَنسب الى أبي ذؤيب أنه أساء في ذلك، وأنه لا يجيد وصف الخيل، ثم يسوق لذلك علة هي أن هذيلا «كانوا أصحاب جمال، وكانوا يغيرون رجّالةً، ولم تكن لهم خيل»[14].

وهكذا نرى أن علة ذلك في نظر بعض اللغويين والنقاد أن الهذليين ليسوا بأصحاب خيل حتى يعرفوا محاسنها، ويدركوا دقيق صفاتها، فبينا أبو ذؤيب ذاك الهذلي يصفها بهذه النعوت المنتقدة يروُون ان امرأ القيس مثلا ـ وهو معروف بالفروسية شديد البصر بأوصاف الخيل ـ يصف فرسه بالضمور، وبشدة قوائمه التي تشبه ساقي النعامة، وقدرته على الجري في سرعة لا يسبقه معها سابق:

---

(١١) ابو هلال العسكري: الصناعتين ص٨٤.

(١٢) شرح أشعار الهذليين ١/٣٤.

(١٣) نفس المرجع والصفحة.

(١٤) شرح أشعار الهذليين ١/٣٥. وانظر الحاشية رقم ٤ من ديوان الهذليين ١/١٧.

لـه أيطـلا ظـبي وساقـا نعـامـة وإرخاء سرحان وتقريب تتفـل[١٥]

فلعل مرد هذا - عند النقاد كما أشرنا - الى أن امرأ القيس له في الفروسية والدراية بالخيل باع طويل.

وربما الفينا ساعدة بن جؤية قد ألم هو الآخر بشيء من هذا الخطأ الذي تورط فيه أبو ذؤيب، فبينما نجد فرس امرىء القيس «له أيطلا ظبي» نجد ساعدة يصف الفرس بأنه ضخم الوسط، ممتلىء اللحم، عبْل الشّوى، وذلك في قوله:

خـاظـى البضيـع لـه زوافر عبلـة عُوجٌ ومـتن كـالجـديلـة سلهـب[١٦]

فهو بهذا يمتدح امتلاء وسطه، وضخامة هيكله، ولكنه - مع هذا الخطأ - لم يُوجَّه اليه ما وُجه الى أبي ذؤيب من نقد في هذا المجال، فلعلهم قد تجاوزوا عن ذلك حين رأوه قد أتبع هذه النظرة المعيبة نظرة أخرى صائبة تتمثل في قوله:

وحوافرٌ تقـع الـبراح كـأنمـا ألف الزّمـاعَ بهـا سِلامٌ صُلَّبُ[١٧]

فهذا وصف يتجه فيه الى التعبير عن قوة هذا الفرس في جريه، وشدة وقع حوافره على الصخور الصلدة، والحجارة الصماء.

ولكنا نجد أن أبا ذؤيب هو الآخر قد أتبع فكرته المنتقدة فكرة أخرى لا غبار عليها حين يجعل الفرس خفيف القوائم، سريع الجري، كأنه الظباء والوعول في خفة لحمها وسرعة جريها.

يعـدو بـه نِهْشُ المشاش كـأنـه صـدْعٌ سليـمٌ رجعُهُ لا يظلـع[١٨]

ثم إننا نجد أن امرأ القيس، وهو من هو في الفروسية، والاجادة في

(١٥) انظر البيت في معلقته...

(١٦) ديوان الهذليين ١/١٨٦.

(١٧) المرجع السابق: نفس القسم والصفحة.

(١٨) ديوان الهذليين ١/١٨. شرح أشعار الهذليين ١/٣٧.

وصف الخيل ـ كما ألمعنا ـ لم يسلم هو نفسه من هناتٍ أُخذت عليه بصدد وصفه للخيل في أكثر من موطن[١٩].

وهكذا نرى أن الشعراء في هذا المجال ـ وفي غيره ـ قد خلطوا قولا صالحاً وآخر سيئاً فلا يصح على أساس ما رأيناه من خطأ في وصف الخيل عند شعراء هذيل أن نعمم القول بأن الهذليين كانوا لا يعرفون الخيل أصلا ؛ فهذا أمر تأباه طبائع الأشياء في بيئة عربية هي قطعة من البيئة العربية العامة المعروفة بالفروسية وركوب الخيل في كثير من مظاهر حياتها ، في حرب أو سلم.

هذا ، ونجد اشارات واضحة في كتب الأدب تفيد أن أبا كبير الهذلي كان صاحب خيل[٢٠].

ويسوق صاحب الأغاني أن أبا خراش الهذلي دخل مكة وللوليد بن المغيرة المخزومي فرسان يريد أن يرسلهما الى الحلْبة ، فعدا بينهما أبو خراش ، فسبقهما ، فأعطاه الوليد هذين الفرسين هدية له[٢١].

وهكذا لا تخلو المراجع من وجود اشارات تنبىء عن وجود الخيل ـ في قلة بالبيئة الهذلية.

فلعل ما قصده الرواة من أن الهذليين لم يكونوا أصحاب خيل انما هو التغليب فحسب ، فربما يعنون بذلك ان عامة الفقراء والصعاليك من البطون المختلفة في هذه القبيلة لا يحتملون مؤنة الخيل ، وتكاليف عيشها ، وغلاء أثمانها ،وما تتطلبه من ماء قد يعزّ في كثير من بقاع الصحراء التي تتناثر فيها محالّهم ومنازلهم.

أما خاصتهم ، وبعض أغنيائهم فمن المعقول ان يكون لهم من ذلك

---

(١٩) المرزباني : الموشح ص٣٠ ، ٤٢.
الآمدي : الموازنة ٣٦/١.

(٢٠) أبو زيد : النوادر ص١٨٥.

(٢١) الأغاني (ط بيروت) تحقيق عبدالستار فراج ٢٣٣/٢١.

نصيب ، وان يكن أدنى نصيب .

وليس هذا مجرد حدْس أو ظن ، بل هو كلام نجد شواهده في بعض أشعارهم وملابسات حياتهم ، وله أساس من اتجاه البيئة العربية باديها ، وحاضرها الى اقتناء الخيل ـ كما أشرنا ـ والاعتماد عليها في بعض جوانب حياتهم اعتماد يظهر واضحاً عند قبيلة ، ويكون دون ذلك في غيرها حتى يصل الى حد القلة القليلة عند بعض القبائل احياناً كما في هذيل حين دفعت الى ذلك الدوافع التي أشاروا اليها .

ومهما يكن من أمر انعدام الخيل أو ندرتها ، أو قلتها عند هذيل ، فانه مما قد لا يُشك فيه أن أوضح مظاهر الحياة المادية عند الهذليين انما هو رعي الإبل والشاء ، وما كان يتصل بهذا من تنقل ، وانتجاع للكلأ والماء .

* * *

الصيد والطردَ :

وربما كان مناسباً أن نشير بعد أن تناولنا بالحديث رعي هذه النَّعَم باعتباره أول مصدر من مصادر الكسب ، وأبرز مظهر من مظاهر العمل في هذه البيئة الهذلية الصحراوية ـ أن نشير الى وجه آخر من وجوه كسب الرزق هو صيد الحيوان البرّي الذي تزخر به البادية كحمُر الوحش والبقر والثيران البرية ، والزراف ، والغزلان وغيرها .

ولقد نجد ذلك واضحاً في أشعارهم التي يصفون فيها هذه الحيوانات وصيدها وصفاً دقيقاً ، ويتحدثون عنها حديث الخبير بها ، ويضّمنون ذلك أشعارهم حتى ما جاء في ثنايا الغزل أو الرثاء . فهذا أبو ذؤيب في رثاء بنيه يتحدث من خلال هذا الرثاء عن الحمار الوحشي وأُتْنه في نشاطها ومرحها ، وتقلبها بين العشب والكلأ في الأماكن المَريعة الخصيبة التي سقاها الغيث فاعشوشبت ، وظلت هذه في رعيها تأخذ في الجد حيناً ، وفي المرح واللعب حيناً آخر حتى فجأها الصائد ، وأمطرها بوابل من سهامه ، فأوردها حتوفها ، فهي بين هارب بذَمائه ، أو بارك يتشحط في دمه وقد

صرعته السهام[٢٢].

ويترك الشاعر هذه الحُمُر وصائدها وقد قسّم فيها حتوفها، ليُلمّ بالثيران الوحشية، فيعمد الى تصويرها وقد استولى الهلع على قلوبها عندما تصدى لها الصائد في بواكير النهار، فأغرى بها كلابا مدرّبة ضارية، وأخذ يتابع رميها بنصاله وسهامه حتى نال منها غايته[٢٣].

ثم نراه في غزله يتحدث عن الظباء وهي تعطو ثمر الأراك، وتجتذب غضونه[٢٤]، ويشبّه حبيبته في حسن تلفتها بظبية بيضاء تبعها ولدها فهي ترنو اليه في حنان ووله، أو هي تتبع ولدها حين عنّ لها في وادي النّخِب من أودية السراة في بلاد هذيل[٢٥].

وهذا الذي نجده عند أبي ذؤيب نجد نظيره عند ساعدة بن جؤبة[٢٦]، وعند صخر الغي[٢٧] في حديثهما عن الوعل، وعند أبي كبير في حمار الوحش[٢٨]، ومثله عند أبي خراش[٢٩]، ونظيره في البقر عند قيس بن العيزارة[٣٠].

هذا، ونجد في الأغاني، وفي شرح أشعار الهذليين، وغيرهما اشارات تفيد خروج بعض الهذليين للصيد والطرد، فليس الأمر مقصوراً اذن على استنتاج ذلك من أشعارهم. ومن هذه الإشارات ما يسوقه الأصفهاني من خروج أبي خراش وأخيه عروة، وصهيب القردي في بضعة عشر رجلاً من

---

(٢٢) ديوان الهذليين ١/٤ - ٩. شرح أشعار الهذليين ١/١١ - ٢٥.
(٢٣) ديوان الهذليين ١/١٠ - ١٤. شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٦ -٣٢.
(٢٤) انظر ديوان الهذليين ١/٢٢.
(٢٥) المرجع السابق ١/٣٥.
(٢٦) ديوان الهذليين ١٩٣ وما بعدها.
(٢٧) ديوان الهذليين ٢/٥٢. شرح أشعار الهذليين ١/٢٤٧.
(٢٨) ديوان الهذليين ٢/١٠٦، ١٠٧.
(٢٩) المرجع نفسه ٢/١١٧.
(٣٠) شرح أشعار الهذليين ٢/٥٩٩، ٦٠٠. ديوان الهذليين ٣/٧٤.

بني قرد يطلبون الصيد[٣١].

وما يروي الرواة من أن بني عدي بن الدِّيل ألفوا غلامين من بني عمر ابن الحارث - وهما هذليان يريدان الصيد، فشدوا على أحدهما فقتلوه، وأعجزهما الآخر[٣٢].

وقد يصرح بعض الهذليين في شعره تصريحاً بخروجه للصيد، كقول الداخل بن حرام أحد بني سهم بن معاوية عن بقرة وحشية - تتقدم كل البقر هادية له - قد دلف اليها بسهم فصادها.

وهادية توجس كل غيب | اذا سامت لها نفس نشيج
دلفت لها أوائذ بسهم | حليف لم تخوّنه الشروج
فراغت فالتمست به حشاها | فخر كأنه خوط مريج
فظلت وظل أصحابي لديهم | غريض اللحم نيء أو نضيج[٣٣]

شيء من الزراعة:

واذا كان هذا شأن هذيل في باديتها مع بعض الحيوانات الأليفة في رعيها، وانتجاع ما يُصلحها من ماء وكلأ، ثم شأنها مع بعض الحيوانات البرية، والاشتغال في بعض الاحيان بما يتصل بها من صيد وطرَد - فانه لا يخلو الأمر مع هذا من وجود مظهر يسير من مظاهر الزراعة يعتمد على بعض الأودية، ومياه بعض العيون التي كانت تتناثر هنا وهناك في بادية هذيل.

فقد كان «ذو المجاز» من نواحي «نَعمان» في هذه البادية به ماء يحمل اسمه[٣٤] كما كان يوجد في شماليّه قريباً من مكة «داءة» وهو الجبل

---

(٣١) الاغاني (ط اوروبا ٥٩/٢١). (ط بيروت ٢٣٧/٢١). وانظر حاشية ديوان الهذليين ١٣٢/٢.

(٣٢) شرح أشعار الهذليين ٥٤٨/٢.

(٣٣) المرجع السابق ٦١١/٢.

(٣٤) بلوغ الأرب في أحوال العرب ١٩٨/١.

الذي يحجز بين نخلة الشامية، ونخلة اليمانية. وقد كانت تنزل على مياهه «بنو مرّة» من هُذيل، وبعض بني لحيان منهم[٣٥]. ويمتد الى الشمال منه «شمنصير»، وهو جبل شامخ تكثر حوله العيون التي بفيض منها الماء[٣٦]، ويتصل بهذا الجبل قرية يقال لها «ضرغاء» تشترك فيها هذيل وعامر بن صعصعة[٣٧]. ولا توجد القرى كما هو معلوم ـ الا حيث يحل شيء من الاستقرار محل التنقل والترحال، ثم ان هذا المكان كثير الغيث كما يبدو في بعض أشعارهم[٣٨].

وجبال السراة في عمومها تخترقها الأودية، والشعاب ومسايل الماء. ومن هذه الاودية ما كان لهذيل مثل وادي «النخب» بناحية الطائف[٣٩]. ، ووادي «عُرَنة» قرب عرفة[٤٠].

ومن أودية لحيان في الشمال قريباً من «عُسفان» وادي «رُهاط» الذي كان يسمى أيضاً وادي «غُران»، وكان وادياً كبيراً خصيباً به كثير من العيون الجارية والنخيل[٤١].

هذا وجبال السراة كانت تترك بينها وبين ساحل البحر سهلا ساحلياً يعرف بالغور، أو تهامة، وكانت كنانة، وهذيل. وبعض الأزد تشترك في هذه الأماكن من تهامة الحجاز ووديانها[٤٢] التي منها «أدام» وكان ينزل به جماعة من بني صاهلة من هذيل[٤٣].

---

(٣٥) معجم ما استعجم ٢/٥٣٠.
(٣٦) المرجع السابق ٢/٨١٠.
(٣٧) معجم البلدان ٥/٤٢٨.
(٣٨) ديوان الهذليين ٢/٢٠٩.
(٣٩) د. هيكل: في منزل الوحي ص٣٥٦، ٣٥٧.
(٤٠) الهمداني: صفة جزيرة العرب ص١٧٣.
(٤١) الأزرقي: أخبار مكة ١/٧٨.
(٤٢) معجم ما استعجم ١/٨٨.
(٤٣) البقية ص٤٥.

وهكذا نرى أن بعض بطون هذيل كان يكتنفها ، أو يحف بها بعض المياه التي كان منها ما هو صالح لأن يقوم عليه شيء قليل من الزراعة التي كانت في أغلب الظن مقصورة على بعض الحبوب كالقمح والشعير ، وقد وردت اشارات في شعر الهذليين بعضها يشير من بعيد الى ذلك(٤٤) ، وبعضها الآخر ربما كان اكثر دلالة عليه كقول المتنخل الهذلي :

لا دَرَّ دريَّ إن أطعمت نازلكم قِرف الحيِّ وعندي البُرّمكنوز(٤٥)

هذا الى جانب ما كانت تحصل عليه هذيل من ثمار أهمها التمر ، وما عساه أن يوجد أيضاً من ثمار أخرى كالجُمَّيز(٤٦) ، والسِّدر(٤٧) وان كان كلاهما ضعيفاً في قيمته الاقتصادية.

وكان لديهم بعض الاشجار كالأثل ، والسّمُر ، والأراك ، والطلح ، والطّرْفاء ، والسلَم(٤٨)

* * *

اشتيار العسل :

وكان من وجوه التكسب عند هذيل ارتياد أماكن النحل البحري واشتيار العسل ، وقد كان هذا العسل موجوداً ـ في أغلب الأمر ـ في أعالي جبال السراة بين مكة والطائف ، حيث كان النحل يتخيرها لوجود بعض موارد الماء ، وشيء من ألوان الزهر والشجر ، ولأنها ـ الى جانب هذا ـ كانت بعيدة المنال ؛ لارتفاعها ووعورتها .

ففي وادي نعمان ـ الذي يقع بعد عرفة على طريق الذاهب الى الطائف

---

(٤٤) انظر ديوان الهذليين ١٥٤/١ .
(٤٥) المرجع السابق ١٥/٢ .
(٤٦) معجم البلدان ٨٠/٦ . ٢١/٨ . تاج العروس (ظهر).
(٤٧) المرجع السابق.
(٤٨) انظر ديوان الهذليين ١٧٣/١ . ٢٣٩ .
٨/٢ . ١٢/٣ .

ـ كان ينزل بعض بطون هذيل كبني واثلة بن مطحل من بني سهم ، وبني عمرو بن الحارث ، وبعض بني قريم بن صاهلة ، وكان من بلاد هذيل وجبالها بهذا الوادي «الاصدار» وهو صدور الوادي التي يجيء منها العسل الى مكة[٤٩] .

وليس العسل ـ مع هذا ـ مقصوراً على هذه الأماكن ، بل هناك أماكن أخرى كجبال لحيان وغيرها .

فكان من عمل هذه البطون الهذلية قيام بعض أفرادها باشتيار هذا العسل ليتخذوا من بعضهِ طعاماً ، ويبيعوا اكثره فيعينهم على مجابهة هذه الحياة القاسية التي يحياها أمثالهم في البادية ؛ ولهذا كانوا لا يرون مفراً من القيام بهذه المهمة الشاقة ؛ التي كانت تحف بها المخاطر ، وكثيراً ما يصور الشعر الهذلي ذلك تصوراً واضحاً .

فها هوذا أبو ذؤيب الهذلي نجده بعد أن يتحدث عن النحل والعسل في ثنايا الغزل[٥٠] يحدثنا عن مغامرة من مغامرات اشتيار هذا العسل يقوم بها خبير من أولئك الذين يعلمون ان النحل يأتي الجبل فيعسل في ملَقة (صخرة) وسط هذا الجبل ملساء لا تثبت عليها مخالب الغراب فيأتي ذلك الرجل الذي يريد أن يجني هذا العسل ، فيصعد من وراء الجبل حتى يصل الى قمته ، ثم يضرب وتداً هناك ، ويشد الحبل فيه ، ثم يتدلى عليه حتى يصل إلى الصخرة ، فاذا نجح في هذه المخاطرة عمل على اخراج النحل ، وطرده بتصويب الدخان الكثيف نحوه ، وبهذا يستطيع أن يجني العسل الذي يريد[٥١]. وهو في حالهِ تلك يتأبط خريطة فيها سقاء العسل ، فيعود بها وقد ملئت بهذا الرُّضَاب السائغ الشهي[٥٢]، ثم يعود فيخاطر بالصعود عن

---

(٤٩) معجم البلدان ٨/٣٠٠ ، تاج العروس (نعم) .

(٥٠) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ١/٤٨ ـ ٥١ .
ديوان الهذليين : القسم الأول ص٧٥ ـ ٧٧ .

(٥١) ديوان الهذليين : القسم الأول ص٧٩ ، ٨٠ .

(٥٢) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ١/٥١ ـ ٥٣ ،

طريق هذا الحبل ، وقد جنى ثمرة هذا الكد ، وذلك العناء الذي قد تعوّده ، كما درج أمثاله من أولئك المعروقين من أبناء الصحراء .

وهذا ساعدة بن جؤية بعد أن يصف هو الآخر النحل والعسل[٥٣] يتحدث عن هذه المغامرة نفسها حديثاً لا يختلف كثيراً عن حديث صاحبه ، فيصف ذلك المشتار بأن معه سقاء يحافظ على حمله ، ولا يفرط في صحبته ، ومعه شيء كالعَيبة فيه أداته والاعواد التي يُخرج بها العسل ، فيصنع نفس صنيع سابقه ، فيُدْلي الحبال التي ينزل بها الى هذه الصخرة التي لاتستقر بها مخالب العقاب لملامستها ، ثم يرقى أخيراً عن طريق هذه الأسباب بعد أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة[٥٤] .

وقد لا نعدم أن نجد مثل هذه الصور عند غير هذين الشاعرين من شعراء هذيل ، ثم انهم يلمون بذكر النحل والعسل في مواضع أخرى من أشعارهم[٥٥] .

الغارة والسطو :

ولعل من أهم وسائل الحصول على الرزق عند القبائل العربية في العصر الجاهلي ان يغزو بعضها بعضاً ، فكانت الغارات هي وسيلتهم الهامة الى هذا الكسب . تغير القبيلة منهم على جيرانها من القبائل الأخرى طمعاً في مالها وظعائنها . وكانت هذه الغارات التي كانت تهدف غالباً الى طلب العيش تأخذ شكلاً جماعياً ينتظم بعض بطون القبيلة وعشائرها ، وقد تأخذ شكلا فردياً ، أو يشبه ان يكون كذلك ، كما هو الشأن عند صعاليك العرب وذؤبانهم .

ولم تكن هذيل ـ بطبيعة الحال ـ الا احدى هذه القبائل التي اتخذت من

= ديوان الهذليين : القسم الأول ٨٨ ـ ٨٩ .

(٥٣) ديوان الهذليين : القسم الأول ١٨٠ ، ١٨١ .

(٥٤) ديوان الهذليين : القسم الأول ص١٨٠ ، ١٨١ .

(٥٥) انظر شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٧٥٩/٢ ، ٩٢٦ ، ٩٥١ .

شن الغارات مصدراً مهماً من مصادر العيش في شكل جماعي أو في شكل فردي .

فيبدو أن الغزو في أية صورة من صوره كان أمراً عادياً لا فرق فيه بين أن تقوم جماعة منهم بهذا الغزو أو أن ينبعث اليه - في صورة سطو - فرد واحد ، أو أفراد قليلون ما دامت الغاية واحدة ، وهي كسب الرزق ، أو الأخذ بالثأر ، أو كلا الأمرين معاً .

فلعل احساس هذه القبيلة على اختلاف بطونها وعشائرها بضيق العيش ، وقسوة الحياة جعل من هذه الغارات أمراً سائغاً عند الجماعات والأفراد على السواء فكل أولئك وهؤلاء لهم ان يغيرُوا وقتما يشاءون على من يستطيعون الاغارة عليه . ولعل هذا ما حدا ببعضهم الى أن يصر على الغزو ، ولا يُقْصر عنه ما دام ماله عرضة للهلاك والضياع ؛ فهو - لهذا - لا يكف عن الغزو ، ولو تعرض للقتل ما دامت هذه حاله ؛ فان من تقل عنده الابل والضأن من شاء وماعز لا يجد الا الماء القراح غبوقاً ، أما اللبن فضلاً عن غيره - فلا سبيل اليه :

فلست بمقْصر مـــا ساف مـــالي
وان عرضـــت للبّـــتي الرمـــاح
ومن تقلـــل حلوبتـــه وينكـــلُ
عن الأعـــداء يغبُقـــه القَراح(٥٦)

وهكذا نجد أن الغزو كما كان - في الغالب - سدّاً للعوز والفاقة - يكون أحياناً طلباً للغنى والعيش المريح ، وهو - ولا سيا في حال الفقر والضنك - أمر يدفع اليه الطبع في ذلك العصر، بل تصرخ النحيزة إذ ذاك داعية اليه .

---

(٥٦) ديوان الهذليين : القسم الثالث ، ص٨١ ، ٨٢ .
شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ١/ ٢٣٨ .

واذا كانت هذه الغارات الهذلية هدفها غالباً هو القبائل الأخرى ، يحصل الهذليون من ورائها على ما يبتغون اذا كانت الدَّبْرة لهم لا عليهم ، فاننا - مع هذا - قد نجد الرجل منهم يطمع في أخيه أو بني عمومته من الهذليين أنفسهم ، وذلك - في أغلب الظن - لا يكون الا عند الحاجة الملحّة ، والضرورة الملجئة ، أو يدفع اليه طيش الشباب .

فمن ذلك ان الأسود بن مُرة الهذلي (أخا أبي جندب) كان على ماء من « داءة » وهو يومئذ غلام شاب ، فوردت عليه ابل لرئاب بن ناصرة بن مؤمل القردي ، وهو الآخر هذلي ، فرمى الأسود بسهم في ضرع ناقة من ابل رئاب ؛ فضربه بالسيف فقتله ، فغضب إخوته بنو مرّة ، ولا سيما أبو جندب ، وثارت بسبب ذلك الإحن بين الحيين[٥٧] .

ومن ذلك ما ذكر من أن أبا خراش كان أخوه عروة يسطو على شائه ، فلا يهتم لذلك ،ولكنه استمر سادراً في هذا حتى أخذ احدى نوقه فذبحها ، ولطم عبده حين عارضه . ثم عاد الى ذلك حين اجتمع مع شَرب من قومه ، فجاء الى المرعى فأخذ ناقة أخرى لينحرها ، فانتزعها منه ابو خراش ، وساقها ؛ فوثب اليه عروة ، ولطم وجهه ، وأخذ الناقة فعقرها[٥٨] .

ومع هذا قلّ أن نجد عملا عدائياً موجهاً من هذليّ الى أبناء عمومته قصْدَ السطو لذات السطو الا ان تكون حاجة ملحّة ملحفة ، أو أن يكون من ورائه ثأر يطلبه كما فعل أبو جندب مع أبناء عمه من بني لحيان . وسنرى ذلك في غضون حديثنا المنفصل عن حروبهم وغاراتهم ، فاننا اذا كنا قد ألمنا الآن بهذا الغزو والسطو إلمامة سريعة باعتبارها أحد مصادر الرزق عند هذيل ، فان من حق البحث ان نفرد لهذه الغزوات والأيام مبحثاً خاصاً بها من مباحث هذا الكتاب .

---

(٥٧) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٣٤٦/١ .
(٥٨) الاصفهاني ، الأغاني (ط. بولاق) ٦٠/٢١ .
وانظر ديوان الهذليين ١٣٦/٢ ، ١٣٧ ، (الحاشية) .

وقائعهم وأيامهم :

لم ينقل الينا تاريخ العرب في العصر الجاهلي ان هذيلا شاركت في حروب كبرى بالجزيرة العربية تضاهي أو تقارب « حرب البسوس » التي شب أوارها بين بكر وتغلب، واستمرت ـ فيما يقال ـ أربعين عاماً وجرت عليهم الويلات. أو حرب عبس وذبيان التي استشرى شرها، وعركتهم عرك الرحى... فمثل هذه الحروب الكبرى قد دفعت اليها العصبيات الهائلة في شبه الجزيرة، ويبدو ان هذيلا قد نأت عن الايغال في هذه العصبيات، ودفعتها ظروف العيش القاسية في باديتها الى أن تكون حروبها حروباً بعضها داخلي بين بطونها المترامية، والكثير منها بينها وبين جيرانها الأدنين كفهم، وعَدوان وكنانة وسليم وخزاعة، وسعد بن بكر، وغيرها. وكانت حروبها مع هؤلاء جميعاً لا تعدو ان تكون غارات خاطفة تقوم بها عدواناً على غيرها، أو دفاعاً عن النفس حين تبغتها أمثال هذه الغارات.

وقد سبق ان أشرنا الى أن هذه الغارات كانت في بعض الاحيان فردية، يقوم بها فرد واحد أو فردان أو ثلاثة وكانت في أحيان أخرى جماعية، ولكنها ليست في شكل تعبئة عامة في حال من الأحوال، بل تحتفظ بطابع الاغارة والسطو، فقلما تجاوزت العشرات الا نادراً فهم يقومون بعدوة خاطفة مباغتة يعتمدون فيها على كثرة الجبال والوهاد في بيئتهم، وعلى درايتهم ومعرفتهم بالقتال فـي هذه الجبال والشعاب(٥٩).

وكانوا يغيرون مشاة، وكان جل اعتمادهم على سرعة الجري والشدّ على أقدامهم حين تحدق بهم الأخطار، فكأن هذا كان عندهم بديلا للكر والفر الذي يقوم به الفرسان من أصحاب الخيل، والروايات التي حدثتنا عن

---

(٥٩) انظر شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج)، ٢/٨٠٨، ٨٥٤.

أيامهم ووقائعهم قد وافتنا بما يشير الى ذلك[٦٠].

كما أشاروا هم أنفسهم الى هذا في بعض أشعارهم، ومن ذلك قول صخر الغي:

معي صاحب داجن بالغزاة ... ولم يك في القوم وغلا ضعيفا
ويعدو كعدو كُدُرٍّ ترى ... بفائله ونساه نسوفا[٦١]

فهو يشبهه بحمار الوحش في عدوه:

ويعلق أبو سعيد السكري على هذا بقوله: انما قال يعدو؛ لأن هذيلا ليسوا بأصحاب دواب، انما هم رجّالة[٦٢].

ومن ذلك أيضاً قول حبيب بن الأعلم حين يذكر فرّته التي كان قد فرّها من بني عديّ بن الديل بن كنانة حين تعقبوه شدًّا على أقدامهم:

فلا وأبيك لا ينجو نجائي ... غداة لقيتهم بعض الرجال[٦٣]

وقوله:

كأن ملاءتي على هِزَفٍّ ... يعن مع العشية للرئال[٦٤]

فهو يشبه نفسه في سرعة عدوه، بذلك الهزف، وهو الظليم السريع.

وقوله:

بذلت لهم بذي شوطان شدي ... ولم أبذل غداتئذ قتالي[٦٥]

وكانت هذيل في غاراتها ودفاعها ترقب اعداءها، وترصد حركاتهم في

---

(٦٠) انظر شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٣١١/١ . ٦٤٢/٢ . وانظر ديوان الهذليين. ٧٧/٢ (الحاشية).

(٦١) ديوان الهذليين ٧٦/٢ . وانظر شرح أشعار الهذليين ٣٠١/١ (مع خلاف في الرواية).

(٦٢) ديوان الهذليين ٧٦/٢ .

(٦٣) المرجع السابق ٨٣/٢ . شرح أشعار الهذليين ٣١٨/١ .

(٦٤) ديوان الهذليين ٨٣/٢ . شرح أشعار الهذليين ٣١٩/١ .

(٦٥) ديوان الهذليين ٨٥/٢ . شرح أشعار الهذليين ٣٢١/١ (والرواية فيه: بذي وسطان).

مراقب كثيرة منتشرة في قمم الجبال الوعرة، وكان هؤلاء الرقباء من الهذليين يلقون كثيراً من المشقة والعنت في بقائهم بهذه المراقب وقتاً قد يطول، لا يبالون بما يحيط بهم من المتاعب والاخطار في سبيل نجاحهم فيما يقومون به من غارات، ونجاتهم من مباغتة أعدائهم حين يقصدونهم بسوء. وأيام هذيل فيها بعض اشارات الى هذه المراقب[٦٦]. كما ورد في الشعر الهذلي ما يشير اليها. ومن ذلك ما وافانا به شعر أبي المثلم في رثاء صخر الغي:

ربّـــاء مرقبـــة منّـــاع مغلبـــة   ركّـاب سلهبة قطّـاع أقران[٦٧]

فقد كان كثيراً ما يربأ لأصحابه في هذه المرقبة حفاظاً عليهم من أعدائهم.

ومن ذلك أيضاً قول عمرو ذي الكلب:

ومرقبـــة يحـــار الطرف فيهـــا   تُزِل الطـــير مشرفـــة القَـــذَال
أقمـت بريـدهـا يومـاً طويـلا   ولم أُشرِف بهـا مثـل الخيـال[٦٨]

يقول ورب مرقبة يحار الطرف فيها لارتفاعها، ووعورة الصعود اليها، وتزل مخالب الطير عنها لملاستها - وقد أقمت على حافتها كثيراً، وأنا منكبّ في وضع لا يريح؛ لأكون مستتراً، ولم أقم مشرفاً حتى لا يراني الأعداء.

ومثله قول ابن تُرنا (تأبط شراً) يجيب عَمرا هذا:

ومرقبـة نَميـت الى ذُراهـا   تُزِل الطـير مشرفـة القـذال
علوتُ بريـدها طَفَـلا كـأني   حِوال اللّطـف مكسور الشمال
بفتيـــان ذوي كرم وصـــدق   وهم أهل المعصَّب والثُّمال[٦٩]

---

(٦٦) شرح أشعار الهذليين ٣٤٢/١.
(٦٧) المرجع السابق ٢٨٥/١.
(٦٨) المرجع نفسه ٥٧١/٢. ديوان الهذليين ١١٩/١٣.
(٦٩) شرح أشعار الهذليين ٥٧٣/٢.

أي رب مرقبة علوتها ، وصعدت الى ذروتها على الرغم من صعوبتها وعلوّها وملاستها ، وذلك حين تُطفّل الشمس وتدنو من الغروب ، وقد تلطفت في التخفي انا ومن معي من الفتيان الشجعان ، حتى لا يرانا أحد .

والحديث عن هذه المراقب يطول ، فحسبنا ان نشير الى أنه ليس مقصوراً على ما عرضناه ، بل نجده بارزاً في شعر أبي ذؤيب[٧٠] . وفي قصيدة لربيعة بن الكودن[٧١] . وغيرهما من شعراء هذيل . واذا كانت هذه المراقب قد اشتهرت بها هذيل ، فانها ـ مع هذا ـ ديدن اكثر المحاربين في الجبال[٧٢] .

ولعل من نافلة القول ان نقول ان الحروب أو الغارات المشار اليها كانت سجالا بين هذيل وغيرها : يوم لها ، ويوم عليها .

ومنها ما كان ينتهي الى غير نصر أو هزيمة ، وبدون غُرم أو غنيمة ، وذلك حين يهرب أعداؤهم ، ويولون مدبرين قبل أن ينزل بساحتهم مكر هؤلاء الهذليين .

فمن ذلك ما يروي الرواة ان بني صاهلة خرجوا يريدون فهما ، فهربت منهم فهم ، وهرب سيدهم أبو عامر بن ابي الأخنس ، فالتمسوهم في ديارهم ، فوجدوهم قد هربوا ، فرجعوا دون ان يصيبوا في تلك الغزوة شيئاً ، فقال في ذلك قيس بن خويلد (ابن العيزارة) شعراً يندد فيه بفهم وزعيمها[٧٣]

وقد لا يكون الامر متصلا بالهرب أو الفرار كهروب فهم هؤلاء بل يتعلق بنزوح قوم من محالّهم ، وحلول آخرين في منازلهم فتقع فيهم هذيل وهكذا قد يخرج الهذليون للقاء قوم فيخطئون ، ويقعون في آخرين . وفي هذا يقول بعض الرواة[٧٤] . « خرجت بنو عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن

---

(٧٠) المرجع السابق ١٦٩/١ . ديوان الهذليين ٤٩/١ ، ٥٠ .

(٧١) شرح أشعار الهذليين ٦٥٦/٢ .

(٧٢) شرح أشعار الهذليين ٤٥٩/١ .

(٧٣) المرجع السابق ٦٠٣/٢ .

(٧٤) شرح أشعار الهذليين ٤٥٩/٢ .

هذيل مغيرين يريدون بني عبد بن عديّ بن الديل من كنانة، وكانوا قد عهدوهم في منزل، فظعنت بنو عدي من ذلك المنزل، ونزله بنو سعد بن ليث بن بكر؛ فبيّتهم القوم وهم يظنون أنهم بنو عبد بن عدي؛ فأصابوا فيهم، وقتلوا منهم ناساً، وقتلوا غلاماً كان فيهم مسترضعاً، وهو ابن ربيعة ابن الحارث بن عبدالمطلب، وهو الذي وضع رسول الله ﷺ دمه يوم الفتح، فمن خطبته عليه السلام في حجة الوداع: «ان ربا الجاهلية موضوع، وان أول ربا أبدأ به، ربا عمي العباس بن عبدالمطلب، وان دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب»[٧٥].

★ ★ ★

وأيام هذيل هذه كانت من الكثرة بصورة لا يمكن معها أن نلم بها، وليس ثمة كبير نفع يرجى من وراء حصرها.

فحسبنا اذن ان نشير الى أهم هذه الوقائع والأيام استكمالا لما قصدنا اليه من دراسة تاريخ تلك القبيلة، واستيفاء كل جوانب هذه الدراسة بشكل لا اغفال معه ولا ايغال.

من غارات هذيل على غيرها:

غارات للكسب:

★ كان من حديث بني سهم بن معاوية ان معقل بن خويلد غزا بهم خزاعة فأصاب داراً لهم بمكان يدعى «لَفت» وغنم منهم كثيراً من السبي والنَّعم. وخرج ومن معه بذلك يسوقونه حتى شارفوا «الرجيع». وخرج بنو كعب من خزاعة في جمع كبير حتى أدركوهم ببطن الرجيع، وقد اغتروا وأمنوا ووضعوا السلاح، وأخذوا يغتسلون على ماء هناك، فعدت عليهم بنو

---

(٧٥) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر الاسلامي). ص١١٧.

كعب ، وهم على حالهم تلك ، فقتلوا منهم من قتلوا ، ووثبوا على معقل فوائبهم وقتل منهم اخوة ثلاثة ، وارتجعت خزاعة سبيها بعد أن أصيب منهم من أصيب ، وهذا « يوم لفت » أو « يوم الرجيع » .

★ خرج عمرو بن خويلد بن واثلة بن مطحل السهمي في نفر من قومه يقصدون بني عضل بن ديش ، وهم في مكان يدعى بالمرخة القصوى اليمانية حتى قدموا على بعض بني عهم من بني قُريم بن صاهلة مجاورين لبني عضل بالمرخة الشامية فسألهم عمرو عن بني عضل ، فأخبروه بمكانهم ، ونهوه عن مهاجمتهم لقلة عدده ، فأبى ، واتهمهم بممالأة بني عضل هؤلاء ؛ لما بينهم من الجوار والقسامة ، وكان عند القريميين أحد بني عضل ، فخرج الى قومه وأخبرهم . وظل عمرو ومن معه يتأهبون لهم ، واختبأوا في مكان لم يلبث أن عرفه أعداؤهم ، فتغاوث عليهم أكثر من مائة رجل ، وأوسعوهم رمياً بالنبل ، وقتل عمرو بن خويلد واثلة القرمي كما قَتل رجل من قريم سعدً ابن أسعد سيد بني عضل . ويسمى هذا اليوم « يوم المرخة » .

★ خرج نفر من بني مازن بن تميم بن سعد بن هذيل يبتغون بني سُليم ، فأصابوا أهل دار منهم ، فأقامت عليهم سُليم الارصاد والرقباء في بعض شعاب الجبال على طريق الهذليين ، وأقبل هؤلاء المازنيون فبطنوا شعبا من حرّة ذلك الجبل حتى تنكبوا ذلك الشعب . وقال لهم مالك بن خالد الخناعي : يا قوم لتجدُنّ رقيب القوم بالشِّعب ، واني لأخشى عليكم الرقباء ، فلم يستجيبوا الى قوله ، وبعد محاورة بينهم . قال : انظروا نحو الشّرق ، فنظروا فبصروا برأس رجل يرقبهم ، فنصح اليهم مالك بأن يحلّوا أزرَهم ، ويرتدوا بها ، ثم يقف كل فرد منهم في النّبْع يجتنون منه حتى يظن السُّلميون انهم مغترون ، ففعلوا واخذوا يجتلدون بثيابهم ، فلما رآهم رقيب السلميين على هذه الحال ذهب الى قومه يخبرهم بأن القوم مغترين يجتلدون بثيابهم ، فقعدوا برأس الشّعب ينتظرون قدومهم عليهم مغترين ؛ فينقضون عليهم ، ولكن الهذليين ـ وقد فطنوا الى صنيع هؤلاء ـ اخذوا

وجهة أخرى ، ونجوا من مكر بني سليم. وهذا اليوم هو « يوم شِعب بني سليم » :

★ خرج مالك بن خالد الخناعي في بضعة عشر رجلا من قومه ، يبتغون بني سليم ، فلقيهم الجموح الظّفري من بني سليم ، فانهزم أصحاب مالك ، وأعجزوا عدوهم عدْوا ووقف لهم مالك بالسيف ، واتقاهم بالجابهة حتى صدوا عنه ، فلما عاد الجموح قال له قومه : أجبنت عن مالك : وهو واحد برأسه قد خلّفه أصحابه ، ومعك أصحابك. فقال الجموح في ذلك شعرا يشيد فيه بمالك وقومه ، ومن ذلك قوله :

فان تزعموا أني جبنت فانكم   صدقتم فهلا جئتمُ حين ندّعي
عجبت لمن يلحاك في جنب مالك   وأصحابه حين المنية تلمع

★ كان من أمر هذيل وفهم أنهم كان بعضهم لبعض عدواً ، فأصبح بعض الفهميين ـ ومعهم سيد لهم يدعى حبيبا ـ يقيمون في دار لهم بمكان صورة من صدر يلمم ، فعرف خبرهم بنو قريم بن صاهلة ، فبيّتهم بنو قريم ، وقتلوا سيدهم ، وأباحوا دارهم.

★ خرج قوم من بني معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل ، يريدون فهماً بمكان يدعى « اللّيث » ، فلما بلغوا السراة لقيهم رجل منهم ، فسألهم عن وجهتهم ، فقالوا نريد فهما ، فدلهم على بني خوف (بطن من فهم) في مكان يدعى « نِيات » سمي هذا اليوم به ، فبيّتوا بني خوف ، ثم خرجوا ، وقد لصقت سيوفهم ـ من الدم ـ بأغمادها ، فمروا في طريق عودتهم على دار لبني عمومتهم من قريم ، ووجدوا فيها خباء إياس بن المقعد القُرمي ، فقصدوا اليه ، فدعا لهم بطعام ، ثم نصح اليهم بالخروج قبل ان يدركهم الطلب ، وخرج في توديعهم وارشادهم الى طريق النجاة ، ولقيه الفهميون في عودته ، فقالوا : هل رأيت القوم؟ فأضلهم حتى نجت هذه الغازية من قومه.

★ خرجت بنو صاهلة وعلى رأسهم غافل بن صخر القُرمي ، فأصابوا نفراً من بني ظفر ، وأسروا كبيرين منهم هما العائذان : عائذ وعُويّذ ،

فكان أحدهما في بني قريم ، والآخر في بني مخزوم (مخزوم هذيل). وقتلت بنو قريم أسيرهم ، ولم يقبلوا فيه الفداء. وكان العجلان بن خويلد قد أمرهم ألا يقتلوهما ، وكان دليل القوم في هذه الغارة على الرغم من وجود قسامة بينه وبين هؤلاء الظفريين.

غارات للثأر:

★ خرج بنو سليم بن منصور يريدون بني عامر بن صعصعة ، ثم انصرفوا الى الطائف فاشتروا زاداً وخمراً ، وكانوا قرابة ستين رجلاً ، فعلم بأمرهم بنو قريم بن صاهلة ، وكانوا يطلبون فيهم وِترا ، فخرج من بني قريم عصبة ، فتقدموا لرجل من ثقيف ، فجعلوا له على أن يخبرهم بالثنية التي يخرج فيها هؤلاء السلميون ، فأخبرهم ، فخرجوا حتى كمنوا لهم بثنية اسفل العقيق ، وما ان بصرُوا بهم حتى كان ضرب ورمي ، فقتلتهم بنو قريم ، وعقروا خيولهم ، ولم ينج منهم - فيمنا تقول الرواية - الا ثلاثة نفر لاذوا بالفرار ، وسمي هذا اليوم «يوم ثنية العقيق».

★ أغارت بنو خناعة بن سعد بن هذيل على ذؤيبة من بني سعد بن بكر في ثأر لقومهم عند ذؤيبة ، وفي هذه الغارة أسروا «ربيعا» سيد بني ذؤيبة ، فباعوه بمكة. فقال معقل بن خويلد في ذلك:

فدي لبني خناعة يوم لاقوا ... ذؤيبة ما أراح وما أساما
ثأرتم قومكم لما رأيتم ... عدوّا واترين لهم خِذاما

ويستمر معقل ، فيقول في رُبيع هذا:

جمدت الله أن أمسى ربيع ... بدار الهون ملحيا ملاما
فعالج ما تعالج ثم حربا ... إذا فارقت غُلك أو سلاما
فانك قد شُريت فعدت عبدا ... بمكة حيث ترتمّ العظاما[٧٦]

★ أغارت بنو لحيان على خزاعة وبني بكر ، فأوقعت بهم لحيان في يوم

---

(٧٦) شرح أشعار الهذليين ٣٩٤/١ ، ٣٩٥.

يدعى بيوم غزال أدركوا فيه ثأرهم عما أصابهم في يوم العرج وفيه يقول عمرو بن هُميل اللحياني :

أبأنا بيوم العرج يوماً بمثله غداة غَزال بالخليط المزيَّل(٧٧)

وفيه أيضاً يقول مالك بن خالد الخناعي :

أبأنا بيوم العرج يوماً بمثله غداة عكاظ بالخليط المزَّق
فقتلى بقتلانا وسبي بسبينا ومال بمال عاهن لم يفرّق(٧٨)

★ ويروى ان أبا ضبّ اللحياني جاءته امرأة من أبناء عمومته بني سهم بن معاوية ، قتل أخ لها يلقبونه « عصمة الاضياف » قتلته أسلم من جهينة ، وطلبت اليه ان يثأر لقتيلها ، وكان أبو ضب هذا ـ فيما يقال ـ لا يقتل من هذيل قتيل الا قتل قاتله ، فخرج هو وابن اخت له ، وبيّت القوم ، وأصابا أهل الدار التي قصدا اليها ، وقتلا سيد القوم ، ثم قفلا عائدين

★ ★ ★

هذه الغارات التي عرضناها منها ما يعد مورداً من موارد الكسب عند هذه القبيلة ـ كما أشرنا ـ ومنها ما يقصد به الثأر من أعدائها ؛ لسبق غاراتهم عليها . ولكن هذه الغارات التي كان يقصد بها الى الثأر ليست كلها ردّاً على غارات وقعت عليها من أعدائها . بل ان منها ما يعد تغطية لاخفاقها في غارة شنتها على بعض أعدائها ، فنال منها عدوها ، ودارت الدائرة عليها . ومن ذلك ما حدثنا به أبو سعيد السكري ـ رواية شعر هذيل وأخبارهم ـ من ان بني صاهلة غزا منهم سبعة نفر يريدون حيا من الأزد « بجَلْية » يقال لهم « بنو ثابر » فأوقعت بهم ثابر ، ولم يفلت الا أحدهم ، فعلم بذلك بنو صاهلة ، فغضب سلمي بن المقعد القرمي الصاهلي ،

---

(٧٧) المرجع السابق ٨١٥/٢ .

(٧٨) المرجع نفسه ٤٧١/١ .

وحلف الاّ يمس رأسه غِسل ولا دُهن حتى يثأر لقومه ، فغزا ثابراً ببني صاهلة ، فنكلّ بهم ، وأباح هو وقومه ديارهم .

من غارات غيرها عليها :

★ من قصصهم في ذلك أن بني مُدْلج من كنانة غزا منهم ثلاثون فارساً فساروا حتى « نَعمان » يريدون هذيلا ، فألْفوا دارا من بني قُريم بن صاهلة ، فأغاروا عليهم ، فاستشرفتهم بنو قُريم بالنّبل ؛ فقتلوهم الا رجلا واحدا ـ فيما يقال ـ أعجز على فرسه في مؤخر سرجه أكثر من عشرين سهماً في خلال مطاردته ، ورجع الى قومه ، فغضبت بنو مدلج ، وجمعوا لهم ، ولكن بني قُريم غادروا مكانهم ، فخرجت بنو مدلج بخيلهم ورجلهم فلم يجدوهم .

★ خرج رجل من خزاعة في عدد من قومه واسمه عامر بن عُبيد وكان يدعى « مجمِّعا » لأنه جمع خزاعة من افناء القبائل فغزّاهم ـ ومعه ابن أخ له ـ حتى صبّحوا داراً من بني سهم بن معاوية ، وأخرى من بني سعد بن بكر ، وفي هذه الغارة قتل عامر بن عبيد صاحب راية خزاعة .

بيّت حي من بني سليم قوماً من هذيل ، فقتلوهم قتلاً شديداً فسمع الهاتفة في آخر الليل من كانوا أسفل من الدار التي أصيبت فأتوهم وعلى رأسهم « أبو ماعز » وكان بطلاً شجاعاً ولكنهم وجدوا القوم قد قتلوا .

★ خرج عُمير بن الجعد بمائة من كعب بن عمرو (من خزاعة) حتى صبّحوا بني لحيان في مكان يدعى « الْحُشاش » فاقتتلوا ، فقتلتهم لحيان ، وأنزلت بهم هزيمة نكراء ، وسمي هذا اليوم « يوم حشاش » .

★ أغارت جعثمة ـ وهم حي من أزد شنوءة حلفاء في بني عدي ابن الديل بن بكر ـ على بني قريم بن صاهلة ، فطوّقتهم بنو قريم ، وأوقعت بهم .

★ كانت بنو ظفر من سليم، وبنو خناعة حربا ، فأغارت بنو ظفر على بني واثلة بن مطحل ، وهم في مكان يسمى القَدوم في وادي نَعمان ، فقتلوا بني واثلة وبعض الصِّبية .

★ كان من أمر معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل أن صارت بنو كاهل ابن عامر بن برد بظاهر البوباة ، ومعهم بنو جُريب بن سعد بن هذيل ، نزلوا هنالك في اثر غيث كان في هذا المكان ، وعندما عرفت هوازن غِرتهم وقلة عددهم جمعت لهم جموعها ، وأقبلوا في عدد كبير ، وعليهم مالك بن عوف النصري (الذي كان بعدُ صاحب جيش المشركين يوم حنين ، وقد هدم النبي الكريم حصنا له وهو في طريقه الى حصار الطائف) أوقع بهم مالك هذا ، واستولى على كل مال يملكونه ، وجاء الصريخ الى بني قرد بن معاوية ، وبني مازن فخرجوا لنصرة قومهم والايقاع بعدوهم ، وأحكموا لذلك خطّتهم ، فتقدمت بنو مازن واكتنفوا الاعداء من أمامهم ، وتأخرت قرد وأتتهم من ورائهم ، وهكذا أطبقوا عليهم ، فلم يفلت منهم أحد الا مالك بن عوف الذي نجا بنفسه ، وأفلت شدّا على قدميه.

★ وخرج مالك بن عرف في العام المقبل على رأس قومه هوازن فغزا هؤلاء الهذليين بالرجيع ، فهُزم هو وقومه هزيمة نكراء ، وعُقر فرسه ، وقتل أخوه ، أما هو فقد أفلت اجرياً على قدميه ، ولم يكن بينهم بعد هذا قتال حتى جاء الاسلام ، وكان مطلع فجره غير بعيد.

أيام في اطار القبيلة:

★ كان الأسود بن مرة القردي أخو أبي جندب ، وأبي خراش على ماء من «داءة» ، فوردت عليه ابل لشيخ قردي ايضاً هو رئاب بن ناصرة ، وكان الأسود شاباً استخفه الشباب ، فأصاب ناقة من ابل الشيخ ، فاستفزه الغضب ، فضرب الاسود بسيفه فقتله ، فغضب اخوته بنو مرة ، ولا سيما أبو جندب ، فاجتمع اليه بعض القوم ، وكلموه في ان يأخذ دية أخيه ، ويستبقي ابن عمه ، ويؤثر مصلحة قومه ، فلم يزالوا به حتى قبل ذلك كارهاً ، فجمعوا الدية وأتوه بها ، فصمت طويلا ، فأعادوا عليه مقالتهم ، ورجوه في أن يأخذ العقل منهم ، فأجابهم انه يريد ان يعْتمر وان يحفظوه لديهم حتى يعود ، فان هلك فلا عليهم ، وان رجع فسيرى في ذلك

رأيه ، وخرج موليا وجهه شطر الحرم ، وهو يقول :

فمن كان يرجو الصلح فيه فانه   كأحمر عاد أو كليب لوائل

يقول لا نصالح أبداً ، وستكون ويلات وويلات كشأن عاقر ناقة صالح ، أو كليب وائل فيما جلبه كل منهما على قومه .

★ ويروى ان أبا جندب كان له جار من خزاعة يدعى « حاطم بن هاجر بن عبد مناف » فقتله بنو لحيان ـ قبل أن يُبل أبو جندب من مرضه وقتلوا زوجته واخذوا مالا له كان قد كلم أبو جندب قومه فجمعوه له ، فلما تماثل أبو جندب للشفاء قدم مكة ، واستلم الركن ، وطاف بالكعبة في حال عرف الناس منها أنه قد أتى بشر ، ثم صاح ، فأخذ يقول :

اني امرؤ أبكي على جاريّه   أبكي على الكعبي والكعبية
ولو هلكت بكيا عليه   كانا مكان الثوب من حقويه[٧٩] .

فلما فرغ من طوافه ، وقضى نسكه جمع الخلعاء من بكر وخزاعة ، فخرجوا معه حتى صبّح بهم بني لحيان ، فقتل منهم ، وسبَى من نسائهم وذرياتهم .

★ ويبدو أن العداوة بين أبي جندب وبني عمومته من لحيان كانت شديدة ، فقد سبق عدوانهم عليه وعلى جيرانه ، وقومه من بني قرد ، وهذا شعره ينبىء أنهم قد أغاروا على ابل له ولقومه ، فأوقع بهم في العرج بعد أن قصد منهم ناساً في جهة وادى غُران ؛ ففروا في بلاد الحجاز هرباً منه .

لقد أمسى بنو لحيان مني   بحمد الله في خزي مبين
جزيتهمُ بما أخذوا تلادي   بني لحيان كلا فاحرُبوني
تخذت غُران اثرهم دليلاً   وفروا في الحجاز ليعجزوني
وقد عصّبت أهل العرج منهم   بأهل صوائق إذ عصّبوني

---

(٧٩) شرح أشعار الهذليين ١/٣٤٩ .

★ هذا ، ويروي الأصمعي انه قد « تحاربت بنو لحيان بن هذيل ، وبنو خناعة بن سعد بن هذيل ، فكانوا لا يزالون متحاربين ، فاذا أصابت بنو خناعة من بني لحيان أحداً قتلوه ، وإذا أصابت بنو لحيان من بني خناعة أحداً باعوه ، فأخذت بنو خناعة عمراً ومؤملاً (رجلين من خناعة) ، فأسروهما ، وأرادوا قتلهما ؛ فخرج معقل بن خويلد بن واثلة بن مطحل السهمي في نفر من أشراف قومه يبغي الصلح بينهما وكان سيداً مطاعاً في قومه ـ فكلم بني خناعة في اطلاق أسيريهما ، فأطلقوهما . وذهب الى بني لحيان سعياً فيما بدأ السير فيه من أجل الصلح ، ولكنه بلغه أنهم يريدون الغدر به على الرغم من أنه لم يكن يبغي من وراء ذلك الا الخير وحقن الدماء .

وهكذا نجد ان حياة هذيل كانت مليئة بالغارات والقتل والثأر والغدْر ، وقد جعل هذا حياتَها مصبوغة بالدم ؛ ولهذا كثر شعر الرثاء بين شعرائها كثرة غير مألوفة في غيرها من القبائل ، وان كانت الحروب والغارات أمراً مشتركاً في حياة العرب في الجاهلية . ولكن يبدو أن هذيلا كانت أشد مراساً من كثيرين من العرب حتى انه ليقال (ان هذيلا أكراد العرب) بسبب طباعهم وصبرهم على تحمل القتال[٨٠] .

الحياة الاجتماعية :

الفقراء :

كوّنت هذيل في عمومها مجتمعاً فقيراً يحيا حياة خشنة في هذه الصحراء الشاسعة التي كانت تتمثل فيها حياة البدو في قسوتها وشدتها . وكانت بطونها المتعددة في مواطنها المترامية تتخذ لها علاقات خاصة مع القبائل المجاورة ما بين عداء أو ولاء ، ولكنها ـ بطبيعة الظروف ـ كانت أقرب الى العداء في كثير من الأحوال ـ كما رأينا ـ بل اننا نجد في بعض الاحيان تمرداً من

---

(٨٠) رسائل الجاحظ ١/ ١٠ ، ٧١ (مناقب الترك) .

الجماعة الفقيرة على بعض الأغنياء فيها ممن كانوا يمثلون قلة قليلة منبثة في بطون هذه القبيلة ، وافخاذها ، وعشائرها .

فأغلب أفراد هذه القبيلة كانوا من الدهماء الذين يعيشون عيش الكفاف قانعين به احياناً ، ساخطين عليه أحياناً أخرى . وبعضهم ـ أو كثير منهم ـ كان يعدّ من الصعاليك والنؤبان كالأعلم ، وصخر الغيّ ، وأبي جندب وغيرهم . ولكن يبدو ـ مع هذا ـ أن الخلعاء في هذيل كانوا أقل منهم في غيرها ؛ فهم لم يتعرضوا للسخط الكثير من مجتمعهم الذي ربما سخط على الحياة من حولهم أكثر من سخطه على هذا الشغْب والعدوان الذي يقوم به أفرادهم . فقد كان ذلك لا يختلف كثيراً ـ في نظرهم ـ عما تقوم به جماعاتهم من غارات في سبيل الحصول على العيش ، والحفاظ على الحياة .

وقد ساعدهم على هذا ـ كما أشرنا ـ تلك الطبيعة الجبلية للأماكن التي كانت مسرحاً لحياتهم في الحجاز ، فقد كانت عوناً لهم على الانقضاض ، والاختفاء ، ومراقبة الأعداء ، كما جعلت منهم أبطالاً محاربين فيهم جرأة وشدة ، ولهم على الجري قدرة نادرة ، فحين تحدق بهم الأخطار يطلقون سيقانهم للريح ، فلا يلحقهم لاحق ، ولا يسبقهم سابق(٨١)، وقد سبق ان رأينا صوراً لذلك .

الأغنياء :

واذا كان هذا الفقر ، وتلك الفاقة هما شأن الكثيرين من أبناء هذه القبيلة ، فليس معنى هذا أن الأغنياء لا وجود لهم أصلاً بين هذا المجتمع الهذلي ، فقد نلمح اشارات كثيرة في أشعارهم ، وفيما رواه الرواة من أخبارهم تفيد وجود شيء من اليسار يتفاوت قلة أو كثرة عند بعض أولئك الهذليين على اختلاف بطونهم وعشائرهم .

فها هو ذا المتنخل الهذلي من بني طابخة نراه يُخزن الكثير من البُرّ لسدّ

---

(٨١) أنظر شرح أشعار الهذليين ٢/٧٧٢ .

حاجته ، وحاجة من ينزل بساحته من الأضياف ، ومن حوله من المعوزين والفقراء ، وحسبنا اشارة الى ذلك قوله :

لا درّ درّي ان أطعمت نازلكم قرف الحيّ وعندي البر مكنوز[٨٢]

وها هو ذا قيس بن العيزارة من بني صاهلة يمتلك قطعان الابل والشاء ، ويغري من وقع في أسرهم من قبيلة فهم الفقيرة هي الأخرى بأنه سيعطيهم ـ اذا فكوا أسره ـ من هذه الابل والشاء ما يسد حاجتهم ، ويشبع جائعهم :

فقلت لهم شاء رغيب وجامل وكلكمُ من ذلك المال شابع[٨٣]

ولذلك نجد البريق الهذلي الخناعي يعتزّ بأن قومه من خناعة كانوا ذوي غنى ويسار ، وينزلون بإبلهم وشائهم في المنازل المخصبة ، والمراعي التي لم يسبقهم اليها أحد :

نشقّ التلاع الحُوّ لم ترعَ قبلنا
لنا الصارخ الحثحوث والنَعم الكُدر[٨٤]

وكذلك نجد اشارات اخرى كثيرة تنبئنا ان من بين هؤلاء الهذليين من كانوا أصحاب ابل غير من ذكرنا كالمسعوديين قوم عبدالله بن مسعود ، وغيرهم من بني شمخ[٨٥] . ومنهم من اشتهر بأنه صاحب شاء وماعز كقرد

---

(٨٢) ديوان الهذليين ٢/١٥ .

(٨٣) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٢/٥٩٠ .
وانظر ديوان الهذليين ٣/٧٧ .

(٨٤) شرح أشعار الهذليين ٢/٧٥٠ . وانظر ديوان الهذليين ٣/٦٠ .

(٨٥) شرح أشعار الهذليين ٢/٨٠٠ .

وكاهل[٨٦] وبعض بني قُريم[٨٧]، وبعض بني عمرو بن الحارث[٨٨] وغيرهم.

وربما كثر الغنى عند بعض هؤلاء حتى يبلغ حداً غير مألوف لدى قومه، كهذا الهذلي الذي كانوا يسمونه «النويعم» لوافر نعمته، وكثرة النَّعَم لديه[٨٩].

وكان مثل هذا اليسار عند هؤلاء الاغنياء يوفر لهم - على تفاوت بينهم - قدراً من الراحة والدعَة لا يتوافر لغيرهم ممن لم يؤتوا حظاً من هذا الغنى الذي حازوه[٩٠]. ولعل هذا - كما سبق ان أشرنا - مما دعا بعضهم كمالك بن الحارث التميمي الهذلي لا يكتفي من الغارة على أعدائه بما يسدّ الحاجة، ويذهب الفاقة بل يعمل جاهداً للحصول على المال الوفير يعوّض به ما يهلك له من مال، ويعرّض نفسه في هذا السبيل للكثير من الأخطار.

انظر اليه في قوله:

فلست بمقْصر ما ساف مالي	ولو عرضت للبّتي الرماح
فلوموا ما بدا لكم فاني	سأعتبكم اذا انفسح المُراح
ومن تقلل حلوبته وينكل	عن الأعداء يغبقه القَراح
رأيت معاشراً يثني عليهم	اذا شبعوا وأوجههم قباح
يظل المصرمون لهم سجوداً	ولو لم يُسق عندهم ضياح[٩١]

(٨٦) المرجع السابق ١/ ١٦٠، ٣٢٦. ديوان الهذليين ٨٢/١.
(٨٧) شرح أشعار الهذليين ٨٠١/٢.
(٨٨) المرجع السابق ٨٥٨/٢، ٨٥٩.
(٨٩) البقية ص٤٩.
(٩٠) انظر شعر الاعلم: شرح أشعار الهذليين ٣٢٦/١.
(٩١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٨، ٢٣٩.
وانظر ديوان الهذليين (مع خلاف طفيف في الرواية) ٨١/٣، ٨٢.
والشعر والشعراء (مع خلاف طفيف أيضاً في الرواية) ٥٥٧/٢.

فالغني زين يخفي عيوب الناس، ويستر سوءاتهم، ويجعل المقلّين يمالئونهم حتى وان كانوا باخلين أشحاء لا ينال منهم أحد شيئاً، ولو كان شربة من لبن.

ولهذا قد نجد منهم من يوالي بعض القبائل الأخرى حفاظاً على ماله من النَّعم، ومن ذلك ما رووا من أن أحد بني سهم كانت له ابل أوارك، وكان يقيم بها في خزاعة، فلما شب أوار الحرب بين خزاعة وبين قومه من هذيل قيل له ارجع الى قومك. قال: وكيف أصنع بابلي، فأشاروا عليه ببيعها، فقال: لا والله لا أفعل، ولكني اواليهم عليها(٩٢).

هكذا كان شأن فقراء هذيل في كثرتهم، وأغنيائهم في قلة عددهم. فاذا ساغ لنا ان نجعل من أولئك وهؤلاء طبقتين متايزتين في مجتمعات هذيل كانت الطبقة الفقيرة هي السواد الأعظم منهم، أما الطبقة الغنية فانها تمثل القلة من هذه البطون والعشائر الهذلية.

السادة:

وهناك طبقة ثالثة تتمثل في القلة القليلة من رجالات هذيل، وسادتها الذين يتحملون الكثير من اعبائها كدفع المغارم والديات، والسعي في اصلاح ذات البين، وغير ذلك من تكاليف السيادة.

وقد مرّ بنا بعض هؤلاء مروراً عابراً سريعاً عند الحديث عن بطون هذيل وأفخاذها وعشائرها.

ومن هؤلاء السادة أبو قلابة الهذلي، وهو من رجالات طابخة بن لحيان ابن هذيل، وكان سيد قومه بني لحيان، بل وصفه الرواة وأصحاب الانساب بأنه كان سيد بني هذيل، وأول من نبغ في الشعر منهم، وان ابنته كانت احدى الجدات البعيدات للرسول الكريم من قِبَل أمه(٩٣).

---

(٩٢) شرح أشعار الهذليين ١/٣٩٩.

(٩٣) طبقات ابن سعد ١/٣٣. اسد الغابة ٤/٣٦١. جمهرة أنساب العرب ص١٨٥. المؤتلف المختلف ص٢٤٥.

ومن هؤلاء السادة خويلد بن واثلة بن مطحل السهميّ ، وقد وصف بأنه سيد هذيل في زمانه[٩٤] . كان هو وعمرو بن نُفَاثة سيد كنانة رفيقين لعبدالمطلب بن هاشم في مفاوضة أبرهة عام الفيل[٩٥] .

وقد ورث السيادة عنه ابنه معقل بن خويلد[٩٦] وهو من مشاهير شعراء هذيل ، وكان من ذوي البأس والنجدة ، حامياً للذمار ، وقد أشرنا الى أنه عندما همّت سليم بالاغارة على بني لحيان ، هب في قومه من بني سهم مدافعاً عن بني عمومته هؤلاء على ما كان بينه وبين سليم من موادعة ، فرجعت سليم عن عزمها بعدما رأت ألا قبَل لها بمعاداة معقل وقومه من بني سهم[٩٧] .

وكثيراً ما خرج معقل هذا في عدد من أشراف قومه للصلح بين المتحاربين من أبناء عمومته في هذيل[٩٨] .

وعندما أسر بنو سهم كثيراً من كندة وحمير والحبش الذين كانوا في جيش أصحاب الفيل ، ثم فروا ـ كما تحدثنا الروايات ـ في جبال هذيل كان معقل بن خويلد بماله من سيادة هو الذي خرج بهؤلاء الأسرى الى الحبشة ، أو كان أحد اثنين كلاهما من هذيل ، وفدا بهؤلاء الأسرى على النجاشي لافتداء أسرى بني كنانة ومن كان قد سُبي من أهل نجد حين أقدم أصحاب الفيل يريدون الحرم[٩٩] .

ومن هؤلاء السادة غافل بن صخر[١٠٠] ، وكان سيداً في بني قُريم بن صاهلة ، وهو ثاني اثنين من هذيل وفدا على النجاشي بالأسرى اذ كان

---

(٩٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص١٥٧ .

(٩٥) تاريخ ابن خلدون ٢/٦٢ . بلوغ الادب ١/٢٧٢ .

(٩٦) الشعر والشعراء ص١٥٧ .

(٩٧) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ١/٣٧٥ .

(٩٨) ديوان الهذليين ٣/٧٠ . شرح أشعار الهذليين ١/٣٧٣ .

(٩٩) شرح أشعار الهذليين ١/٣٩٠

(١٠٠) تاج العروس (غفل) .

رفيقاً لمعقل بن خويلد السهميّ في هذه الرحلة كما أشرنا.

ومن سادتهم أيضاً صُبح بن كاهل[١٠١].

وبنو صبح هذا منهم بنو زُليفة بن صبح، ويذكر ابن حزم أن ديارهم كانت حول مكة، ولهم بها عدد وعدة ومنعة[١٠٢]، ويذكر المسعودي أن الرياسة في هذيل كانت فيهم[١٠٣].

الموالاة والجوار:

كانت الموالاة والجوار شيئاً بارزاً في حياة العرب، وكأنما كان رد فعل يخفف بعض التخفيف من شرور العدوان، ويبعث شيئاً من الطمأنينة في هذه النفوس القلقة، وان كان الغدر يلاحق أصحابها في كثير من الأحيان.

وقد كان ثمة شيء من هذه الموادعة بين بعض هذيل، ومن حولهم من العرب. فها قد رأينا ذلك السهمي الذي والى خزاعة على ابله، وأقام بين ظهرانيها أملا في أن تسلم له نفسه وماله.

وهذا أبو جندب ظل حيناً من الدهر جاراً لبني نُفاثة بن عدي بن الديل بن بكر حتى أحس بالغدر منهم فنجا بنفسه وماله[١٠٤].

وأبو جندب نفسه كان له جار من خزاعة، فوقعت به بنو لحيان فقتلوه، وقتلوا امرأته، واستاقوا أمواله، وكان أبو جندب مريضاً، فلما أبلّ من مرضه خرج في الخلعاء من بكر وخزاعة، وأغار بهم على بني لحيان أخذاً بثأر هذا الجار الخزاعيّ الذي عدا عليه أبناء عمومته هؤلاء، ولم يرعوا حرمة هذا الجوار[١٠٥].

---

(١٠١) نهاية الادب ص٣١٢. معجم قبائل العرب ٦٣٠/٢ ـ الجمهرة ص١٨٧.

(١٠٢) المرجع الاخير (الصفحة نفسها).

(١٠٣) مروج الذهب ١٥٥/٢.

(١٠٤) شرح أشعار الهذليين ٣٦٢/١.

(١٠٥) المرجع السابق ٣٤٩/١، ٣٥١. ٨١٠/٢.

هذا ، وقد كان لبني لحيان هؤلاء جار ، فعَدا عليه رجل من خزيمة بن صاهلة فباعه ، فغضبت لذلك بنو لحيان وطارت الحرب بينهما .

وكان لمعقل بن خُويلد السهمّي جار حدثٌ فغدر به عاسل بن قميئة من بني حُريث بن سعد بن هذيل ، فقتله .

وقد كان هنالك حِلف وجوار بين مسعود بن غافل الشمخي الصاهلي ـ والد عبدالله بن مسعود ـ وبين الحارث بن زهرة القرشي . هذا الى ما كان بينهما من مصاهرة كانت ـ هي وأمثالها ـ من الصلات التي قرّبت ما بين هذيل وقريش .

ولم تكن هذه الأحلاف وقفاً على كونها وُصلة بين الأفراد فحسب ، بل تتعداهم الى الجماعات من بطون وأفخاذ وعشائر ، فقد كان بين قوم من بني قُريم بن صاهلة بالمرخة الشامية وبين بني عضل بن ديش بالمرخة اليمانية جوار وقسامة ، لا يعدو بعضهم على بعض على الرغم مما كان بين قوم كل منهما من حروب ومصاولات(١٠٦) .

وكذلك كان بين بني سُليم وبين بني سهم بن معاوية من هذيل موادعة ، ولكن هذه الموادعة لم تمنع بني سهم هؤلاء من نجدة قومهم والانتصار لهم ، فقد همت سليم بغزو بني لحيان ، فلما بلغ ذلك معقل بن خويلد السهميّ - زعيم القوم يومئذ ـ جمع لبني لحيان من يشدون أزرهم من بني سهم ، فقالت سليم لمعقل : أتريد ان تنتصر لبني لحيان وبيننا وبينكم ما قد علمتم؟ فقال لهم معقل : وهل يُسلِم القوم بني عمهم؟ ان تقصروا عنهم فنحن على ما كنا عليه ، وان تحاربوهم لا نخذلهم ، فعدلت سليم عن حربهم ، وفي هذا يقول معقل قصيدة مطلعها :

تقول سليم سالمونا وحاربوا	هذيلا ولم تطمع بذلك مطمعا
فاما بنو لحيان فاعلم بأنهم	بنو عمنا من يرمهم يرمنا معا(١٠٧)

(١٠٦) شرح أشعار الهذليين ٦٣١/٢ .

(١٠٧) شرح أشعار الهذليين ٣٧٥/٢ .

وكذلك كان بين بني لحيان وبني المصطلق موالاة وقسامة[١٠٨].

هذا ، وقد سبقت الاشارة قبل ان ننهي حديثنا في بطون هذيل ان من الروايات ما يطالعنا بأن بعض العشائر ، والاحياء العربية كان يعيش في جوار هذيل ، ومن هؤلاء بنو الدَّرعاء ، وهم حيّ من عَدوان من قيس عَيلان ، فتحدثنا هذه الروايات بأنهم كانوا حلفاء في بني سهم بن معاوية الهذليين[١٠٩].

ونجد كذلك من هذه الاشارات ما ينبئنا ان بعض بطون هذيل ورجالها حالفوا غيرهم أو عاشوا في جواره ، بل ان من هذه الروايات ما يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، فيشير الى أن بعض العشائر الهذلية قد دخلت في قبائل أخرى ، وانتسبت اليها ، فلم تعد تذكر في عداد هذيل ، ومن هؤلاء « حُوَيَّة » الذين ينتمون في أصلهم الى سعد بن هذيل ، ولكنهم دخلوا في بني عبس ، ويقال ان منهم الحطيئة الشاعر الهجّاء المعروف[١١٠].

ولعل من هؤلاء أيضاً عامر بن سدوس الخناعي الذي دخل هو الآخر في خزاعة ، فقد جاء في ديوان الهذليين أن عامر بن سدوس الخناعي كان يُعزى هو ورهطة الى خزاعة ، وان المعطل الهذلي يوجه اليهم اللوم في بعض قصائده[١١١].

★ ★ ★

تلك اشارة الى صلات هذيل بمن جاورها من قبائل العرب . ويجدر بنا ان نشير الآن الى بعض صفات الهذليين وسلوكهم في داخل مجتمعاتهم .

صفاتها وعاداتها :

لا ريب في أنهم كانوا يتصفون ـ بوجه عام ـ بما يتصف به العربي من

---

(١٠٨) المرجع السابق ١/٤٦٨ .

(١٠٩) تاج العروس (درج).

(١١٠) الجمهرة ص ١٨٦ .

(١١١) ديوان الهذليين ٣/٥١ . شرح أشعار الهذليين ٢/٨٣٨ .

صفات ، وافتنا بها أشعار العرب ، وأحاديث الرواة ، ومن هذه الخلال ما أقره الاسلام ، ومنها ما أبطله.

ولكن هذه الدراسة تملي علينا ان نجمع شتات ما كتب عن هذيل في هذا الصدد من شذرات منثورة هنا وهناك ، وان نستوحي شعر الهذليين حتى نخرج من وراء ذلك بما نؤكد به اتصاف هذه القبيلة بهذه الصفات أو تلك ، ونخلص من هذا التعميم الذي يَسِمون به القبائل العربية في مجموعها الى تخصيص هذه القبيلة بما عساه ان يكون واضحاً فيها ، بارزاً في سلوك أبنائها.

الشجاعة والنجدة :

تتسم هذيل بالشجاعة والنجدة ، ولهم في ذلك مواقف مشهودة ـ مع الأعداء والأولياء ـ مرّ بنا شيء منها في غضون البحث.

ومن مواقفهم مع أعدائهم ان قبيلة فهم ـ العدو الألدّ للهذليين ـ أجدبت بلادهم ، وتعجّفت أموالهم ، حتى خشوا الهلكة على أنفسهم وأهليهم ، فلما دخل رجب الأصم ، وكانت له حرمته بين الأشهر الحرم ، خرج جم غفير من أشراف فهم الى بني صاهلة من هذيل ، وشكوا اليهم ما حل بهم من جدب وقحط ، فكان ان قبلت هذيل رجاءهم وجوارهم وأرعوهم من أرضهم ما شاءوا . وهذا أمر قد يكون نادراً بين الخصوم والأعداء في جاهلية العرب.

ومن مواقف نجدتهم لأبناء عمومتهم ما رأيناه من معقل بن خويلد وقومه من بني سهم في انتصارهم لبني لحيان ، وما كان له من أثر في دفع غائلة المعتدين من سُليم.

ومثل هذا ما مرّ بنا في غارات هذيل ووقائعها من نصرة بني مازن وبني قرد لابناء عمومتهم ضد هوازن وعلى رأسهم مالك بن عوف النصْري الذي اضطر ـ بعد انتصاره أول الأمر ـ ان ينجو بنفسه شدّاً على قدميه.

وهذا أبو ضب الهذلي الذي كانت تختلط الحمية والنجدة عنده

بالامعان في طلب الثأر حتى انه ليذكر الرواة أنه لم يقتل من هذيل قتيل الا قتل قاتلة[١١٢].

ولهذا كان يلجأ اليه كثير من المظلومين لنصرتهم ، ومن أخباره في ذلك ما سبق من انه جاءته امرأة من بني سهم ، قتل أخ لها يقال له عصمة الأضياف ، قتله بعض بني جهينة ، فخرج منتصراً لها ، حتى أصاب أهل هذه الدار الباغية ، وقتل زعيمها ، ثم قفل راجعاً الى ديار قومه[١١٣].

وأبو ضب هذا لحياني ، ولحيان اشتهرت بالبأس والنجدة والثأر ، وان كان فيها أيضاً غدر وبغي ، حتى قال فيهم بعض الاخباريين والرواة : «كان من شأن بني لحيان انها كانت شوكة من هذيل ، ومنعة وبغيا »[١١٤].

الكرم :

وحديثنا عن شجاعة الهذليين وبأسهم ونجدتهم يذكّرنا بالجانب الآخر الذي يعتز به العربي بعامة ، وهو الكرم والجود فليس الكرم بأقل أثراً ، وأدنى منزلة من الشجاعة ، فكلاهما له منزلته العظيمة ، وأثره العميق في حياة العرب ، وانا لنجد من مظاهر الجود والسخاء عند هذه القبيلة ما تحدثنا به أشعارهم على درجة تلي في الكثرة والاهتام حديثهم عن الشجاعة والبأس ذلك الحديث الذي ملأ عليهم أشعارهم. وليس حديث الكرم والجود بغريب على مثل هذه البيئات التي تتصف بشظف العيش وخشونة الحياة ، لذلك لا ننتظر ممن أوتوا حظاً من لين العيش الا أن يكونوا على درجة من السماحة والسخاء يستطيعون معها التخفيف عمن ينزلون بهم أو يجتدون نوالهم وعطاءهم. ولهذا تراهم حين يفخرون أو يتغزلون يتمدحون بالكرم ، ويعطونه من عنايتهم ما ينبىء عن عظيم قيمته عندهم. انظر الى قول المتنخل :

---

(١١٢) البقية ص١١ . شرح أشعار الهذليين ٧٠٣/٢ .
(١١٣) المرجع السابق (الصفحة نفسها).
(١١٤) البقية ص١٣ .

لا درّ درّيَ ان أطعمت نازلكم قرف الحيّ وعندي البر مكنوز[115]

وانظر الى أبي ذؤيب في قوله:

فانك لو ساءلت عنا فتخبرى اذا البزل راحت لا تُدّر عشارها
لانبئت أنا نجتدي الحمد انما تَكلفة من النفوس خيارها
لنا صِرَم ينحرن في كل شتوة اذا ما سماء الناس قل قطارها[116]

ونرى مثل ذلك في رثاء موتاهم، وما اكثر الرثاء في أشعارهم، فكما يصفون هؤلاء بالشجاعة، يصفونهم بالكرم ومن ذلك قول معقل بن خُويلد يرثي أخاه عمرو بن خويلد:

لعمري لقد أعلنتَ خِرقاً مبرأ من التَّغْب جوّاب المهالك أروعا
جواداً اذا ما الناس قل جوادهم وسِفًّا اذا ما صارخ القوم أفزعا[117]

وقول عَمرة أخت عمرو ذي الكلب ترثيه:

وقد علم الضيف والمجتدون اذا اغبرّ أفق وهبّت شمالا
وخلّت عن أولادها المرضعات ولم تر عين لمزن بلالا
بأنك كنتَ الربيع المغيث لمن يعتريك وكنت الثمالا[118]

والأمثلة على هذا كثيرة في شعرهم.

هذا، ولا ننسى أننا ـ الى جانب دوافع الكرم التي أشرنا اليها ـ نجده عند القوم مظهراً من مظاهر السيادة، ويصور لنا ذلك قول الأعلم:

فان السيّد المعلوم فينا يجود بما يضن به البخيل
وان سيادة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلعها طويل[119]

* * *

(١١٥) ديوان الهذليين ١٥/٢.
(١١٦) ديوان الهذليين ٢٦/١، ٢٧. شرح أشعار الهذليين ٧٨/١.
(١١٧) المرجع الاخير (الصفحة نفسها).
(١١٨) المرجع نفسه ٥٨٥/٢. ويروى لجنون اخته في ديوان الهذليين ١٢٢/٣.
(١١٩) هو نفسه ٣٢٣/١. ديوان الهذليين ٨٧/٢.

وأد البنات :

من عادات هذيل المذمومة التي نسبت إليها ، وإلى كثيرين غيرها من قبائل العرب «وأد البنات» يدفعها إلى ذلك دافع الفقر ، وخشية العار ، فيذكر الأخباريون أنه كان في قبيلة كندة ، وقيس ، وهذيل ، وأسد ، وبكر ابن وائل ، وخزاعة ومضر(١٢٠) . وقيل إنه كان في تميم ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر وائل ، وهم من مضر ، فهي عادة في قبائل مضر دون غيرهم ، وقيل إنها كانت في مضر وغيرها من العرب الذين يتسمون بالبداوة . وهذا الرأي عندي له وجاهته ؛ لأن البداوة - بما يكتنفها من ظروف خاصة - هي أشبه ما تكون بهذه العادة الجافية التي توصم بالغلظة والقسوة .

أما القبائل التي كانت تعيش في القرى فربما كانت تستروح شيئاً من نعومة العيش ينأى بها قليلاً أو كثيراً عن التورط في مثل هذه الجريمة الشنعاء . ومع هذا فلا يخلو الأمر من وقوع مثل ذلك فيها ، فقد وافتنا الروايات بأن عمر بن الخطاب وأد بنتاً له في الجاهلية .

* * *

الفاحشة :

وإذا كانت القبائل العربية لا يخلو شعر بعض شعرائها من غزل وتشبيب قد يكون بعضه مادياً مكشوفاً يتناول العورات ، وينبىء عما وراءه من فجور أحياناً كما عند امرىء القيس في شعره ، وفيما وافانا الرواة به من سيرته - فإننا مع هذا لا نكاد نجد شعراً يتناول المرأة بالصورة التي نراها في شعر هذيل ، ذلك الشعر الذي يتضافر مع أقوال الرواة في إقناعنا بأن المجتمع الهذلي كان كثير من أفراده - ولا سيما من يجد منهم في حياته شيئاً من الدعة - تشيع فيهم الفاحشة ، وتنتهك بينهم الحرمات ،

---

(١٢٠) القرطبي ، الجامع ١١٦/١٠ . المبرد ، الكامل ٢٨٨/١ .

وتكثر المخاللة بين الرجال والنساء، بل قد نجد المنافسة بين رجل ورجل على امرأة واحدة. وإليك بعض ما يرويه الرواة من ذلك:

كان أبو ذؤيب يهوى امرأة من قومه، وكان رسوله إليها هو ابن أخته خالد بن زهير، فخانه فيها، فقال أبو ذؤيب[١٢١]:

تريدين كيما تجمعيني وخالدا وهل يُجمع السيفان ويحك في غمد؟
أخالد ما راعيت مني قرابة فتحفظني بالغيب أو بعض ما تبدي

وكان أبو ذؤيب قد خان فيها ابن عم له يقال له مالك بن عويمر، فقال خالد يرد على أبي ذؤيب[١٢٢]:

فلا تَجزعنْ من سنة أنت سرتها وأول راضٍ سنةً من يسيرها
وكنت إماماً للعشيرة تنتهي إليك إذا ضاقت بأمر صدورها
ألم تتنقذها من ابن عويمرٍ وأنت صفي النفس منه وخيرها؟

وأدهى من ذلك أن الرجل منهم قد يجمع بين المرأة وابنتها فيتصل بهما جميعاً، وهذا منتهى الإسفاف في مثل هذه الصلات الآثمة بين قوم مهما يكن أمرهم من جاهلية أو غيرها.

يروي الرواة أن خالد بن زهير خالّ امرأة وابنتها في الجاهلية، فبلغ ذلك معقل بن خويلد، وهو سيد قومه، فقال معقل[١٢٣]:

أتاني ولم أشعر به أن خالداً يعطّف أبكاراً على أمهاتها
يعطّف طولاها سناماً وحاركاً ومثلكِ أغنت طِلْبها عن بناتها

---

(١٢١) ديوان الهذليين ١٥٩/١.
(١٢٢) المرجع السابق ١٥٧/١:
وانظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٥٤٨/٢.
(١٢٣) شرح أشعار الهذليين ٣٩٧/١. ديوان الهذليين ١٦١/١.

فأجابه خالد بن زهير[١٢٤]:

إذا ما رأيت نسوة عند سوءة ... فإن نساء معقل أخواتها
فكن معقلاً في قومك ابن خويلد ... ومسّك بأسباب أضاع رعاتها

وهذا رد إن يكن ظاهره فيه إقذاع، فإنه لا يعدو الحق، ولا يتجافى عن الواقع. فإن لهؤلاء النسوة مواقف غير محمودة، فقد كان معقل هذا ـ وهو سيد من سادات هذيل كما أسلفنا ـ له امرأتان أطبقتا على حب رجل جميل من أشجع قيس يقال له عُشّ بن جابر، وكانتا تؤمانه بين الفينة والفينة إلى أن علم معقل فقتل إحداهما، وضرب الأخرى بالسيف فقطع يدها وأنشأ يقول قصيدة في اللّوم مطلعها[١٢٥]:

ألم تخشي خليلك أو تُجلي ... أباك هُضيبَ عن بعض الخطاب؟

وكثيراً ما توافينا الروايات بأمثال هذه المخالّة الفاضحة بين الرجال والنساء، وقد يقوم بدور القوادين فيها رجال أو نساء، وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان بين أبي ذؤيب وخليلته، وما كان من أمرهما مع مالك بن عويمر، وخالد بن زهير. وإليك رواية أخرى أشد نكراً من هذه:

يروي أبو سعيد السكري راوية شعر هذيل وأخبارها أن رجلاً هذلياً يدعى عامر بن العجلان كان صديقاً لجارة لأبي المثلّم الهذلي، فكان الرجل إذا أراد صديقته عمدت امرأة أبي المثلّم إلى جارتها، فجمعت بينها وبينه ثم انصرفت عنهما، ثم إن عامراً هذا أقبل ذات يوم زائراً لصديقته، وأقبلت امرأة أبي المثلّم بجارتها، وما لبثت أن نهشت عامر بن العجلان حية، فعمدت صديقته، وامرأة أبي المثلّم، فجعلتا له من الشجر خيمة تَكُنه من الشمس، وأخذتا تأتيانه وتختلفان إليه بطعام وشراب حتى برأ[١٢٦].

---

(١٢٤) المرجع السابق ١٦٢/١ شرح أشعار الهذليين ٣٩٨/١.
(١٢٥) شرح أشعار الهذليين ٣٨٧/١.
(١٢٦) المرجع السابق ٣٠٣/١.

ولم يقف الأمر عند هذا بل إن الروايات لتنطق في صراحة بمقارفة هذا الفحش ، فخليلة أبي ذؤيب بعد أن كبر تراود رسوله خالداً عن نفسه فيستجيب لذلك[١٢٧] .

ومن قبل هؤلاء جميعاً نُسبت هذه السوءة إلى قِرد بن معاوية ، ويقال إنــه أسرف في ذلـك إسرافـاً جعلـه مضرب المثـل فقيـل : « أزنـى من قرد »[١٢٨] .

وكذلك سار المثل « أقود من ظلمة » معبراً أصدق التعبير عن « ظلمة الهذلية » ، فقد كانت فاجرة كأشد ما يكون الفجور ، فلما أسنّت ظلت تعيش في هذه الذكرى ، وعز عليها نسيانها ، فاشترت تَيْساً ؛ لأنها كانت ترتاح لنبيبه[١٢٩] .

هذا ، وقد بلغ الأمر ببعض هذيل أن يسألوا الرسول الكريم في أن يبيح لهم الزنى . ونجد صدى ذلك في شعر حسّان بن ثابت شاعر النبي حين يهجو هذيلاً لغدرها بالمسلمين في غزوة الرجيع :

سالت هذيل رسول الله فاحشة	ضلت هذيل بما سالت ولم تُصِب
سالوا رسولهمُ مـــا ليس معطيهم	حتى الممات وكانوا سبة العرب[١٣٠]

ويقال إن الذي سأل الرسول ذلك هو أبو كبير الهذلي ، « فقد روي أنه أدرك الإسلام ، ثم أتى النبي فقال له : أحلّ لي الزنا ، فقال : أتحب أن يؤتى إليك مثل ذلك؟ قال : لا ، قال : فارض لأخيك ما ترضى لنفسك. قال : فادع الله أن يذهب عني[١٣١] .

---

(١٢٧) شرح أشعار الهذليين ٢٠٧/١ .

(١٢٨) الميداني : مجمع الأمثال ٢٨٧/١ .

(١٢٩) القاموس وتاج العروس (ظلم) .

(١٣٠) المخصص ٢١٨/١٢ .

(١٣١) الاصابة ١٦٥/٤ . وانظر الدكتور جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٩٣/٩ .

ويستبعد الدكتور جواد على نسبة هذه القصة إلى أبي كبير؛ لأن الأصح عنده أنه جاهلي لم يدرك الإسلام، وإن كان لم يشر إلى السند الذي بنى عليه قوله.

ومع ذلك، فإن هذا السؤال قد صدر - في أغلب الظن - عن قوم من هذيل لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام بعد، وإلاّ ما كان لحسّان أن يعرِّض برجل مسلم قد تاب وأناب، وصار في عداد صحابة الرسول؛ فهذا أمر مستبعد.

تلك أهم الصفات والعادات التي ألفيناها بارزة عند هذيل.

* * *

الخمر:

ولكن هنالك بعض عادات أخرى لا تستحق الوقوف عندها طويلاً كشرب الخمر الذي يعد أمراً مشتركاً بين العرب في الجاهلية، ولعلّه في هذيل أقل منه في غيرها، فربما كان الكدح في سبيل العيش عند عامة أبناء هذه القبيلة وصعاليكها أمراً لا يترك لهم فرصة لحياة الشرب واللهو التي قد نجدها عند القلة القليلة من هذيل. وقد نجد في أشعارهم إشارات عابرة إلى الخمر في ثنايا الغزل كقول أبي ذؤيب[١٣٢]:

كأن على فيها عقاراً مُدامة سلافة راحٍ عتّقتها تجارها

ولكن أمثال هذه الإشارات ليست دليلاً على إثبات أو نفي، فالخمر - في كل حال - معروفة عند العرب، فلا يغيب ذكرها عن شعراء هذيل شربوا أو لم يشربوا.

ومع هذا فهناك إشارات في هذا الشعر - لا تبلغ حد التواتر - تثبت معاقرة بعض الهذليين للخمر، كقول أبي ذؤيب نفسه:

---

(١٣٢) ديوان الهذليين ١/٢٤.

رأتني صريع الخمر يوماً فسؤتها بقُرّان إن الخمر شعث صحابها[١٣٣]

وقوله :

رويت ولم يغرم ندمي وحاولت بني عمها أسماء أن يفعلوا فعلي[١٣٤]

هكذا نجد أن قوماً من هذيل كانوا يعاقرون الخمر . وأغلب الظن أنهم ـ كما أشرنا ـ من الميسورين الذين يجدون وقتاً للهو والشرب في حين أنك تجد غيرهم من الكادحين يحترقون .

ولكنا ـ مع هذا قد نجد في بعض الأحيان ـ من هؤلاء الكادحين المعوزين من يشرب الخمر ، ويروي ندماءه مبالغاً في ذلك أشد المبالغة ، فهو يسقيهم مهما بلغ بهم السكر مبلغه مع أن ثوبه بال وملبسه خلق (وهذه صورة من صور الكرم إلى جانب الخمر) :

يُروي النديم إذا تناشى صحبه أم الصبيّ وثوبه مخلوق[١٣٥]

وليس شأن الهذليين مع الخمر مقصوراً على ما ورد من ذلك في أشعارهم بل إن روايات الرواة تساند شعر الشعراء في هذا الصدد .

فمن ذلك ما رووا من أن عروة بن مرة كان يجتمع مع شَرْب من قومه وينحر لهم من إبل أبي خراش[١٣٦] .

وقد لا ينسى بعضهم حظه منها حتى في حال خروجهم للغارة على أعدائهم ، وهكذا لا يكون أمرها مقصوراً على وقت الراحة والدعة[١٣٧] .

---

(١٣٣) المرجع السابق ٨١/١ .

(١٣٤) المرجع نفسه ٣٩/١ .

(١٣٥) شرح أشعار الهذليين ٤٦٤/١ .

(١٣٦) الاصفهاني ، الاغاني (ط بولاق) ٦٠/٢١ .

(١٣٧) شرح أشعار الهذليين ٨٥١/٢ .

عاداتها في التشاؤم:

كانت هنالك عادات أخرى - ليست بذات بال - نشير إليها إشارة عابرة.

كانت هذيل تتفاءل وتتشاءم كغيرها من قبائل العرب. والعرب كان أكثرهم يتفاءلون بالسانح، وهو الطائر والوحش يمر من بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، وتتشاءم بالبارح، وهو ما مر من يمينك إلى يسارك.

وثمة خلاف غير قليل في موقف العرب - على اختلاف قبائلهم - من السانح والبارح(١٣٨)، ولكن يهمنا من ذلك أن هذيلاً كانت تتشاءم بالسنيح (أي السانح) على عكس كثيرين من غيرها. وقد وافتنا بذلك أخبارها(١٣٩) وأشعارها(١٤٠).

اللَّطم بالنعل:

من هذه العادات أن النساء عندهم كنَّ إذا مات الرجل منهم يضربن صدورهن (بالسِّبت) أي النعل، وهي طريقة من طرق اللَّطم بدلا من لطم الخدود. ومن ذلك قول أبي ذؤيب(١٤١):

وقـــام بنـــاتي بـــالنعـــال حواسرا   فألصقن وقع السِّبت تحت القلائد

وقول عبد مناف بن ربع:

إذا تجرد نَوْح قـــامتـــا معـــه   ضربا أليماً بسِبت يلعج الجلدا(١٤٢)

وقول ساعدة بن جؤبة:

---

(١٣٨) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٩٧٠.

(١٣٩) المرجع السابق الصفحة نفسها

(١٤٠) أشعار الهذليين ١/٤٢. ديوان الهذليين ٦/٧٩٠.

(١٤١) شرح أشعار الهذليين ١/١٩١.

(١٤٢) ديوان الهذليين، ٢/٣٩.

فقامت بسِبت يلعج الجلدَ مارنٍ وعزَّ عليها هُلْكه وغبورها[١٤٣]

وقول ساعدة بن جؤية:

فقامت بسِبت يلعج الجلد وقعه يقبّض أحشاء الفؤاد ألـيم[١٤٤]

ولا أدري هل هذه عادة في نساء هذيل وحدها، أو هي عادة عربية جاهلية، فقد نجد في شرح أشعار الهذليين ما يفيد التعميم، وينبىء عن أن هذا من صنيع المصابات في الجاهلية[١٤٥].

ومع هذا فإني لم أقع على مثل ذلك في غير شعر هذيل.

* * *

الحياة الروحية:

كانت الوثنية هي الديانة الغالبة على شبه الجزيرة العربية، وإن كان من بينها بعض القبائل التي كانت تدين باليهودية أوالنصرانية، وبعض الحنفاء الذين وصلوا بعقولهم إلى التوحيد. وآمنوا بالله على فترة من الرسل.

وهذيل إحدى هذه القبائل الوثنية التي أخلصت لوثنيتها، وتعصبت لها أشد التعصب، ويدلنا على ذلك موقف العداء الشديد الذي وقفته من الإسلام إبان ظهوره، ولعلّ بني لحيان كان تعصبهم أشد من غيرهم من سائر هذيل، وكثيراً ما سجل التاريخ عليهم غدرهم بالمسلمين، وكيدهم للإسلام[١٤٦].

---

(١٤٣) ديوان الهذليين ٢١٨/٢.

(١٤٤) المرجع السابق، ٢٣٣/١.

(١٤٥) شرح أشعار الهذليين ١٩١/١.

(١٤٦) ابن سعد، الطبقات ٣٥/٣. ابن هشام، السيرة ٨٣/٣. الدميري، حياة الحيوان ٢٣٤/٢.

أصنامها :

وكان سواع - فيما يبدو - أهم معبودات هذيل ، وكان سدنته في أشهر الأقوال من بني لحيان[١٤٧] وإن كان هناك من يقول بأنهم من بني صاهلة[١٤٨] ، وكلاهما من هذيل. وأول من ابتدع عبادة هذا الصنم للهذليين - فيما يقال - هو الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل متأثراً في ذلك بعمرو بن لُحيّ الذي قيل إنه أول من نَصب الأصنام للعرب[١٤٩] .

وعلى الرغم من شهرة هذيل بعبادة هذا الصنم ، فإنه لم يرد له ذكر فيما بين أيدينا من أشعارها ، ولكن وردت إشارة في شعر بعض شعراء اليمن في قوله :

تراهم حول قَيلهمُ عكوفـــــا كما عكفت هذيل على سواع[١٥٠]

وينقل إلينا الدكتور جواد علي كثيراً من الروايات حول مكان هذا الصنم ، ومن شارك هذيلاً في عبادته من العرب .

ومن هذه الروايات ما يذكره ابن حبيب من أن هذا الصنم كان بنَعمان ، وأن عبدَتَه هم بنو كنانة ، وهذيل ، ومزينة ، وعمرو بن قيس عيلان .

وثمة رواية أخرى ترجع إلى ابن الكلبي تجعل مكانه «رُهاط» من أرض نخلة يعبده من يليه من مضر[١٥١] .

والروايات في هذا كثيرة ، ولكنها تكاد تتضافر على أن سواعاً كان لهذيل ، وإذا شاركها فيه غيرها ، فهذا أمر طبيعي عند قبائل العرب التي كان لا يعنيها غالباً أن تقصر نفسها على صنم بعينه ، فقد تشتهر القبيلة

---

(١٤٧) بلوغ الأرب في أحوال العرب ٢١٧/٢ . الأصنام ص٩ .

(١٤٨) ابن حبيب ، المحبر ٣١٥ .

(١٤٩) السويدي ، سبائك الذهب ص ١٠٤ . د. جواد علي ، المفصل ٢١٤/٦ .

(١٥٠) الأصنام ص١٠ .

(١٥١) انظر الدكتور جواد علي ، المفصل ٢٥٧/٦ وما بعدها .

بأحد هذه الأصنام أو بعضها. ولكنها تشترك مع غيرها من جيرانها أو المحيطين بها في تعظيم أصنامهم.

فإذا كانت «مناة» يعظمها أهل يثرب، ومن إليهم من عرب المدينة والأزد وغسان - فإن القبائل الأخرى كانت تعظمها أيضاً، ومن بينها قريش[١٥٢]، وهذيل وكنانة[١٥٣].

وكانت هذيل كذلك إحدى القبائل التي تعبد «ود» ويشركها فيه - كما تقول الرواية - بعض تميم، وطيء والخزرج ولخم[١٥٤].

طقوسها:

ومن طقوسهم الدينية أنهم كانوا يقولون في استسقائهم واستمطارهم: «اللَّهم هذا عشية قسْم من عندك، فقد تلوّحت الأرض، فهي مثل مجر الثوب تعوي وتنبح»[١٥٥].

وكانت تلبيتهم في الحج: «لبيك عن هذيل. قد أدلجوا بليل»[١٥٦].

وينسب لهذيل وغيرها من عبدة سواع تلبية خاصة فحواها: لبّيك اللهم لبيك، أبنا إليك، إن سواع طلبنا إليك»[١٥٧].

وإذا كان بين العرب من يتشدّدون في دينهم وحجهم ويسمون بالحُمس، ومنهم قريش وكنانة وفهم وعدوان، وعامر بن صعصعة، وخزاعة، ومن تابعهم في الجاهلية فإننا لا نجد هذيلاً في عداد هؤلاء، بل هي من الحلة الذين كانوا لا يتشددون هذا التشدد الذي كان يتسم به هؤلاء الحمس حين

---

(١٥٢) الاصنام ص١٣، ١٥.
(١٥٣) البلدان ١٦٩/٨.
(١٥٤) د. جواد علي، المفصل ٢٥٦/٦.
(١٥٥) الزمخشري، أساس البلاغة ص٣٦٦. تاج العروس (قسم).
(١٥٦) تاريخ اليعقوبي ص٣٩٩.
(١٥٧) ابن حبيب، المحبر، ٣١٢.

يخصون أنفسهم باتجاه غير اتجاه سائر العرب ، فلا يخرجون أيام الموسم إلى عرفات ؛ لأنها من الحل ، وإنما يقفون بالمزدلفة ، ويقولون نحن أهل الله ولا نخرج من الحرم. وهذا أمر أبطله الإسلام.

وإذا وجدنا أن كثيراً من الجاهليين كانوا يستحلون المظالم ، ويعتدون في الأشهر الحرم ، وإذا شهدوا الأسواق أباحوا لأنفسهم الاعتداء فيها على أموال الناس فسموا (المحلون) لأنهم يبيحون لأنفسهم انتهاك هذه الحرمات ـ فإنا نجد من العرب من ينكرون ذلك ، وينصبون أنفسهم لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء ، وارتكاب المنكر ، فيسمون الذادة (المحرمين) ومن هؤلاء قوم من هذيل[158].

وليس من ريب في أن هذه عاطفة دينية ، وليست مجرد نخوة عربية ، ولا سيما فيما يتصل بتقديس الأشهر الحرم. فإذا كانت العاطفة الدينية إذن من أهم الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك ، فإن هذه العاطفة ذاتها هي التي دفعتهم إلى مشاركة قريش وكنانة في مفاوضة أبرهة ، وقبل هذا في محاولة حربه[159] ، فليس من دافع إلى ذلك إلا حماية الحرم ، والحفاظ على الكعبة من عدوان هؤلاء المعتدين.

* * *

(٣) وضعهم في الإسلام

عرفنا أن هذيلاً بعامة ، وبني لحيان منهم بخاصة كانوا معادين للدعوة الإسلامية ، وأنه كان منهم بغي وعدوان على المسلمين ، وغدر بهم. وقد قضى الرسول على فتنة خالد بن سفيان بن نبيح قبل أن يستفحل أمره ، ثم غزا لحيان عقاباً لهم على ما بيتوا من غدر في موقعة الرجيع ؛ فهربوا ،

(١٥٨) د. جواد علي ، المفصل ٦/٢٢٣.

(١٥٩) د. حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسي ١/٥٠.

واعتصموا برءوس الجبال، وكثيراً ما هجاهم شعراء الرسول كحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك رَدّاً على بغيهم، وتنديداً بفرارهم.. فلا ننتظر بعد هذا أن تكون لهذيل سابقة إلى الإسلام، فقد كانت تحطب في حبل قريش، ومن والاها من قبائل العرب.

ويمكن أن نستثني من هذيل بيتاً كان له السبق إلى الإسلام هو بيت المسعوديين أبناء مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ من صاهلة، فلم يكن من هؤلاء المسعوديين إيذاء للدعوة، ولا معارضة لها، بل كان لهم سبق إلى الإسلام، وكانوا ثلاثة من الإخوة: عبد الله، وعتبة، وعميس.

وكان أسبقهم إلى الإسلام عبد الله، وله قدم صدق في دعوة الإسلام، وقد أسلم قبل دخول الرسول (ﷺ) دار الأرقم، ويقول هو عن نفسه: «لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا».

وأمهم (أم عبد) كانت ممن بايع الرسول وروى عنه.

وعتبة يعرف عنه التاريخ أكثر مما يعرف عن عُميس، ولكن حسبهم جميعاً أنهم كانوا من أصحاب الرسول الكريم.

ويبدو أن كثيراً من الهذليين حين بدأوا يدخلون في الإسلام منذ عصر الرسول ظلوا في البادية دون أن يكون لهم ـ على الراجح ـ فضل صحبة أو هجرة، ولكنهم عُدّوا من المخضرمين، ومن هؤلاء أبو ذؤيب الهذلي الذي لم يقدم إلى المدينة إلا غداة وفاة الرسول.

ولكن يحدثنا التاريخ عن هذليين آخرين ـ غير المسعوديين ـ كان لهم فضل الصحبة، ومنهم أصيل بن عبد الله الذي قدم من مكة ـ أو من موطنه حول مكة ـ فسأله الرسول عنها، فذكر كلاماً أثار أشجانه، وهاج في نفسه كامن الشوق إليها[١٦٠].

ولا ريب في أن هناك غيره قد أسلم ولقي الرسول وثبتت له

---

(١٦٠) أسد الغابة ١٠١/٤.

الصحبة[١٦١].

وهؤلاء الهذليون من المسلمين كانت لهم مشاركة ذات بال في الدولة الإسلامية من حيث الجهاد، وسياسة الدولة، وخدمة العلم والدين.

المشاركة في الجهاد:

لعل عنوان الهذليين المسلمين في مجاهدة المشركين هو عبد الله بن مسعود، فقد كان يَجْبه قريشاً بما يكرهون، ويعلن بين ظهرانيهم إسلامه، وشعائر دينه، وكان أول من جهر بالقرآن من المسلمين، لا يخشى في ذلك بطش أحد من صناديد قريش على الرغم من أنه ليس له عشيرة تمنعه. هذا إلى مشاركته في الغزوات، وحرصه على أن يبذل قصارى جهده في الجهاد، وقد أخزى الله به أبا جهل حين وضع رجله على مذمره، وأجهز عليه بعد أن أثبته ابنا عفراء في غزوة بدر[١٦٢].

وقد أبلى في الجهاد مع الرسول من الهذليين بعض من كان قد أسلم منهم غير المسعوديين، ومنهم سلمة بن صخر الذي شهد حنيناً مع جيش المسلمين، (وسنراه أيضاً يشهد فتح المدائن مع سعد بن أبي وقاص)[١٦٣].

وكثير من الهذليين كان يخرج للجهاد في جيش المسلمين على عهد عمر، وها قد أشرنا إلى سلمة بن صخر الذي شهد فتح المدائن، ولا شك أنه قد كان معه كثيرون غيره من هذيل كخراش بن أبي خراش الذي أمعن في الغزو، فشكا أبوه إلى عمر أمير المؤمنين شوقه إليه، وحاجته في شيخوخته إلى مساعدته بعد انقراض أهله وذويه، فردّه إليه[١٦٤].

هذا، وقد كان كثير من الهذليين جنداً في فتح مصر إلى جانب أبناء

---

(١٦١) المرجع السابق ٤/١٥٧. الاصابة ٥/٢٧. صحيح مسلم ٥/١١.

(١٦٢) ابن الاثير، الكامل (طـ بيروت) ٢/٧٣.

(١٦٣) اسد الغابة ٩/٢٥٣.

(١٦٤) الاغاني ٢١/٤٧.

القبائل الأخرى بقيادة عمرو بن العاص.

وقد جعل عمرو بالفسطاط خططاً وأحياءً لمختلف القبائل المشاركة في الفتح، والقبائل ذوات العدد القليل أشركها في خطة واحدة. وكانت لهذيل خطة منفردة بين غيرها من خطط القبائل ذوات العدد[165].

وفي عهد عثمان رضي الله عنه كان أبو ذؤيب الهذلي وغيره بين الجيش الذي أعد لفتح افريقية، وكان في هذه الغزوة عبدالله بن الزبير، فأرسله القائد (عبدالله بن سعد بن أبي السرح) إلى عثمان بشيراً بفتح قرطاجنة، وكان في صحبته أبو ذؤيب فأدركته منيته في مصر[166] أو في المغرب نفسه كما في بعض المصادر[167].

اتصل أمر الفتح وانخرط كثير من المسلمين في الجند الفاتحين، وكان بينهم من الهذليين كثيرون في عهد معاوية ومن بينهم أبو العيال الهذلي الذي حُصر في بلاد الروم زمناً وأرسل قصيدة شعرية إلى معاوية في شكل كتاب يعلن فيه حاله، وحال من معه[168].

ومن قوادهم الفاتحين سنان بن المحبّق الهذلي الذي يذكر الزَّبيدي أنه «ولد يوم الفتح، فسماه الرسول (ﷺ) سنانا، وكان شجاعاً، وقد ولي غزو الهند سنة خمسين هجرية»[169]، ويسوق البلاذري أن زياد بن أبي سفيان ولّى «أيام معاوية سنان بن المحبّق الهذلي، وكان فاضلاً متألهاً... أتى الثغر، ففتح مكران عنوة، ومصّرها، وأقام بها، وضبط البلاد»[170].

وإذا تتبعنا وجود هؤلاء الهذليين المحاربين في البلاد المفتوحة وجدنا أثارة منهم حتى في عهود متأخرة. ومن أمثلة ذلك ما يذكره ابن خلدون من

---

(١٦٥) المقريزي، الخطط، ٢٩٨/١.

(١٦٦) اسد الغابة ١٨٩/٥.

(١٦٧) الاصابة ١٨٤/٢. الشعر والشعراء ص١٥٤.

(١٦٨) ديوان الهذليين ٢٥٢/٢.

(١٦٩) تاج العروس (سن).

(١٧٠) فتوح البلدان ص٤٣٨.

أنه كان منهم - في أيامه - قبيلة بنواحي باجة يعسكرون مع جند السلطان، ويؤدون المغرم[١٧١].

وهذيل المحاربة هذه التي اشتهرت بصلابة عودها منذ العصر الجاهلي، والتي أكسبتها عقيدة الإيمان قوة على قوة - نراها لا تقف مظاهر الجهاد فيها عند خروج أبنائها مجاهدين في بلاد الفرس والروم والمغرب ومصر. بل إن البقية الباقية منهم في البادية لا تنسى نصيبها من الجهاد في صورة من صوره، وعنوان ذلك أنه عندما صَعد الجنابي زعيم القرامطة إلى سطح الكعبة ليقلع الميزاب «رماه بنو هذيل الأعراب من جبل أبي قبيس بالسهام فأزالوهم عنه»[١٧٢].

المشاركة في الجانب السياسي:

شارك عدد غير قليل من الهذليين في جوانب من سياسة الدولة، وتولوا بعض الأعمال فيها، وذلك في حدود ما سمحت به ظروفهم في هذه الجوانب، ولكنها ذات شأن في مجموعها؛ فهي قطعة من التاريخ لا يسوغ إهمالها.

فمن هؤلاء حمل بن مالك، وهو صحابيّ استعمله الرسول على صدقات هذيل[١٧٣].

وعبد الله بن مسعود، وقد ولاه عمر بيت مال الكوفة[١٧٤]، أو ولّاه - كما يقول البلاذري، قضاءها وبيت مالها.

وسنان بن المحبق الهذلي الذي «مصّر مكران، وأقام بها، وضبط البلاد»[١٧٥].

---

(١٧١) تاريخ ابن خلدون، ٣١٦/٢.
(١٧٢) صلة تاريخ الطبري ص١٧٣.
(١٧٣) الاصابة ٣٨/٢.
(١٧٤) انظر الدينوري، الأخبار الطوال ص٢٩. وفتوح البلدان ٢٦٩.
(١٧٥) فتوح البلدان ص٤٣٨.

وعبدالله بن عتبة بن مسعود ، وقد ولاّه عمر على السوق حقبة من خلافته[١٧٦] ، ثم كان قاضياً لمصعب بن الزبير على الكوفة[١٧٧].

وأبو المُليح الهذلي ، وهو صحابي نزح إلى البصرة بعد الفتح ، وكان عاملاً على الأُبُلة (قرب البصرة)[١٧٨].

وعمرو بن عُميس بن مسعود ، وكان والياً على القطقطانة (قرب الكوفة) في خلافة علي ، فقتله هناك الضحّاك بن قيس الفهري عامل معاوية[١٧٩].

والقاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود الذي ولّي القضاء بالكوفة عصر الرشيد ، ويقال إنه لم يأخذ للقضاء رزقاً مدة ولايته[١٨٠].

وإذا تابعنا البحث إلى عصور متأخرة وجدنا من نسل هؤلاء الهذليين وأحفادهم رجالاً كانوا حكاماً إقليميين أو قضاة في بعض البلاد الإسلامية ومنهم على سبيل المثال في بلد كمصر:

الحسين بن رضوان بن هبة الله الهذلي الذي كان يلقب بفخر الدين القنائي ، ويصفه الأدفوي بأنه من الحكام النابهين. كان حاكماً بقنا في القرن السابع الهجري[١٨١].

ومحمد بن إبراهيم المعروف بابن صالح الهذلي القنائي ، وكان يلقب بالصدر. تولى الحكم في بلده قنا مدة ، وكان من أثرياء قنا المعروفين بالبذل والسخاء ، فترك الحكم ليفرغ لشؤونه الخاصة[١٨٢].

---

(١٧٦) الاصابة ٤/١٠٠.

(١٧٧) ابن سعد ، الطبقات ١٠/٨٢. اسد الغابة ٢/٣١٦.

(١٧٨) الطبقات ١١/١٥٩.

(١٧٩) ابن حزم ، الجمهرة ص١٨٦.

(١٨٠) شذرات الذهب ١/٢٨٦.

(١٨١) الطالع السعيد ص١١٦.

(١٨٢) المرجع السابق ص٢٦٤.

ويونس بن عبد المجيد أبي علي بن داود الهذلي القاضي سراج الدين الأرمنتي ، وكان محمود السيرة في القضاء(١٨٣) .

* * *

هذا ما يتصل بإسهامهم في الجانب البنائي عن طريق الولاية والحكم والقضاء .

أما الرأي ، والميل العاطفي ، والاتجاه السياسي فنجد لهم فيه شيئاً تراءى في شكل ظاهرة أحسسناها في هذيل مصر ، فإنهم أسهموا في بعض الأحداث الكبرى في المجتمع الإسلامي ، وكان لهم دور ظهروا فيه على مسرح السياسة - مع غيرهم - معارضين لسياسة عثمان رضي الله عنه ، وشاركوا في الفتنة التي كان من أهم نتائجها مقتل عثمان ، وما تلاه من أحداث ، فكانوا من القبائل الضالعة في قتله مع عرب مصر الآخرين الذين ذهبوا إلى المدينة ثائرين(١٨٤) .

ولعلّ دور هذيل في هذا كان واضحاً ؛ فإن نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان حين أرسلت إلى معاوية تشكو عليّاً ذكرت أن هذيلاً كانت بين الثائرين(١٨٥) .

وقد يبدو الاتجاه السياسي عند الهذليين في شكل فردي يقوم به فرد منهم ، ومن ذلك ما عرف به أبو صخر الهذلي من ميل شديد لبني أميّة ، لا سيما عبد الملك بن مروان وآله ، وبعض عماله مثل عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد والي مكة حينذاك(١٨٦) . هذا في حين أن أبا صخر كان يقلب ظهر المجن لعبد الله بن الزبير بصورة أدت إلى سجنه ، وقد حفظ له عبد الملك صنيعه ، وأحسن مكافأته . وليس من ريب في أن أبا صخر يعد

---

(١٨٣) المرجع نفسه ص٤٢١ .

(١٨٤) معجم ما استعجم ٢٨٢/١ ، ٤٥٤/٢ .

(١٨٥) الاغاني ٦٨/١٥ .

(١٨٦) أبو صخر الهذلي (للمؤلف) ط ١٩٨٠ ص٥ وما بعدها .

بهذا من شعراء الحزب الأموي[187].

المشاركة في العلوم الدينية واللِّسانية:

كان كثير من علماء المسلمين في الصدر الأول من أصل هذلي، وكان في طليعتهم عبدالله بن مسعود، وهو من علماء الصحابة الأفذاذ في الفقه والحديث والتفسير وعلوم القرآن وقراءاته.

ومنهم حمل بن مالك، وأبو عزة، وأسامة بن عمير، وابنه أبو المُليح، وسلمة بن المحبّق، وأخوه سنان وأبوهما المحبّق الهذلي، وغيرهم. وهؤلاء جميعاً من رواة الحديث.

ومن التابعين، ومن يلونهم علماء كثيرون.

منهم في علم الحديث وروايته:

محمد بن أبي المليح، وعبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود المكي المحدث، والقاسم بن معن بن عبد الرحمن، وابنه عبد الرحمن بن القاسم. وعبدالله ابن عتبة، وعبد الرحمن بن عبدالله بن عتبة، وأبو معمر، وغيرهم.

ومن العلماء في القراءات:

أبو عبيدة بن معن بن عبد الرحمن الذي روى القراءة عن الأعمش، ومحمد بن أبي عبيدة هذا، وقد روى القراءة عن حمزة، ورَوح بن عبد المؤمن الذي قرأ على إمام البصرة يعقوب بن إسحاق الحضرمي، وفضل بن أحمد الهذلي الذي روى القراءة أيضاً عن يعقوب. وأبو القاسم الهذلي صاحب كتاب الكامل وهو من أشهر قرائهم.

ومن العلماء في الفقه:

القاسم بن معن بن عبدالرحمن، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة أحد

---

(187) المرجع السابق ص٧٢، ٧٣.

فقهاء المدينة السبعة المشهورين ، وهو من أجلّ شيوخ الزهري ، وكان أثيراً لدى عمر بن عبد العزيز يقدر له فضله وعلمه[١٨٨].

ومن علماء اللغة والنحو:

القاسم بن معن بن عبد الرحمن الذي كان من علماء الكوفة في العربية[١٨٩]، وهو شيخ ابن الأعرابي من الكوفيين المعروفين[١٩٠].

واللحياني العالم اللغوي (علي بن المبارك). أخذ عن الكسائي ، وأبي زيد ، والأصمعي ، وأبي عبيده ، وأبي عمرو الشيباني ، وأخذ عنه القاسم بن سلاّم[١٩١].

ومحمد بن الحسن بن يونس المعدود في نحاة الكوفة[١٩٢].

وروح بن محبد المؤمن أبو الحسن الهذلي النحوي[١٩٠].

وعلي بن عبد الجبار بن سلامة بن عيذون الهذلي التونسي ، الذي ولد بتونس سنة ثمان وعشرين وأربعمائة[١٩٤] ، وكان من الأئمة المرموقين في اللغة ، حتى قيل إنه لم يكن في أيامه أعلم بها منه[١٩٥]. رحل إلى صقلية ، وأخذ عن ابن القطاع الصقلّي ، ولقي بها ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة[١٩٦].

ومن علماء الأنساب والأخبار:

القاسم بن معن ، وعبد الله بن عتبة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ،

---

(١٨٨) العقد الفريد ٢٠٦/١ .

(١٨٩) البغية ص٣٨٠٠ .

(١٩٠) معجم الادباء ١٨٩/١٨ .

(١٩١) البغية ص٣٤٦ .

(١٩٢) المرجع السابق ص٣٦ .

(١٩٣) مناهل العرفان ص٤٥٦ .

(١٩٤) معجم الأدباء ٨/١٤ وما بعدها.

(١٩٥) البغية ص٢٤٠ . القفطي ، انباه الرواة ٢٩٢/٢ .

(١٩٦) المرجع الاخير ٩٠/٣ .

وعون بن عبدالله بن عتبة .

ومن أهمهم قتادة بن عامر بن سدوس الذي كان عالماً ثقة في أنساب العرب وأيامها ، ويقول عنه السيوطي في المزهر : «لم يأتنا عن أحد من علم العرب شيء أصح مما أتانا عن قتادة »[١٩٧] .

وكذلك أبو بكر الهذلي الذي كان من مشاهير العلماء ، بأيام العرب وأنسابها ، وكان يروي هذا العلم عن قتادة[١٩٨]. وكان في خدمة البلاط العباسي على عهد السفاح والمنصور[١٩٩].

ومن علمائهم في التاريخ :

أهم هؤلاء « المسعوي » المؤرخ ، الرحالة ، البحاثة ، وهو من ولد عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود ، وصاحب كتاب « مروج الذهب » المعروف بين كتب التاريخ .

★ ★ ★

هذا ، والناظر في حياة من ذكرنا من هؤلاء العلماء يرى أن كثيرين منهم يجمعون أكثر من موهبة علمية واحدة .



---

(١٩٧) المزهر ٢/٢١٠ .

(١٩٨) المرجع السابق (الصفحة نفسها). انباه الرواة ٣/٣٥ .

(١٩٩) الابشيهي ، المستطرف ١/١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٩٨ .

الفصل الرابع

(١) أدب الهذليين
(٢) حول اللهجة الهذلية



١) أدب الهذليين

ليس المقصود بالحديث عن أدب الهذليين أن ندرس الجانب الفني في هذا الأدب ؛ لأن الإمعان فيه ليس مطلباً من مطالب هذا البحث في تاريخ هذيل ، وحياتها ، وأوجه النشاط المختلفة فيها ، فحسبنا أن نتحدث عن هذا الأدب في لمحات يتسنى عن طريقها التعريف به باعتباره جانباً حياً من جوانب الحياة لا يسوغ إهماله أو نسيانه مهما تكن طبيعة البحث ، وطابع الدراسة التي تتناوله ، فحسبنا إذن أن نكون وسطاً بين الإفراط والتفريط في هذا التناول :

أدب هذيل أكثره من الشعر الذي لفتت كثرته الأنظار فاتجهت إليه ، وأقله من النثر الذي دفعت قلته إلى عدم الانتباه إليه ؛ ولذلك لا يكاد يجد الباحث فيه ضالته بسبب قلّته أو ندرته بالقياس إلى الشعر كما أشرنا . ومع هذا لا يصح أن نهمله إهمالاً كما فعل غيرنا من الباحثين والدارسين الذين وضعوه دبر آذانهم ، فلم يشيروا إليه ، فمن واجبنا إذن ، ومن حق هذه الدراسة علينا أن نشير إلى هذا النثر في شيء من الإيجاز .

النثر

لم يكن للهذليين في العصر الجاهلي نثر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، فقد كان النثر في هذا العصر ، حين نستثني بعض المنافرات والحكم والأمثال ، نجده مقصوراً على الخطابة التي كانت في كثير من الأمر وقفاً على أفراد من كهان العرب في شكل مسجوع ، وقلما وجدنا بين الهذليين من

عرفوا بها في العصر الجاهلي، فالنثر عندهم لا تكاد تجده إلا في بعض ما أثر عنهم من جمل قصيرة، وعبارات موجزة، ومن ذلك تلبيتهم في الحج: «لبيك عن هذيل. قد أدلجوا بليل...»[1] واستمطارهم: «اللهم اجعلها عشية قَسْم من عندك، فقد تلوحت الأرض، فهي مثل مَجرّ الثوب تعوي وتنبح». وهو مثل لغبرة الأرض ووحشتها. والقسْم الغيث[2].

من سجع الكهان:

ولعلهم لم يؤثر عنهم كذلك في الإسلام نثر يؤبه له من حيث الكم. اللهم إلا بعض نقول، ومرويات قليلة، ومن أمثلة ذلك ما نسب الى بعض الهذليين في أول عهدهم بالإسلام من قول قاله تعقيباً على حكم الرسول في جنين أسقطه عدوان امرأة هذلية على امرأة أخرى: أنغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل هذا دمه يُطلّ» فلم يستحسن النبي منه هذا التنطع في الكلام، واعتبره ـ صلوات الله عليه ـ من سجع الكهان في الجاهلية[3].

أُصَيل:

وقد نسب إلى أصيل بن عبد الله الهذلي الصحابيّ وصف موجز لمكة، ذكّر الرسول بموطنه الأثير لديه، وهاج في نفسه كامن الشوق إليه، وذلك حين قدم من مكة ـ أو من موطنه قرب مكة ـ على الرسول ﷺ، فقال له: «يا أصيل، كيف عهدت مكة؟» قال: «عهدتها والله قد أخصب جنابها، وابيضت بطحاؤها، وأعذق إذخرها، وأسلب ثمامها، وأمشر سلمها». فقال الرسول الكريم: «حسبك يا أصيل. لا تحزنا!»[4].

(١) تاريخ اليعقوبي ص٣٩٦.
(٢) الزمخشري: أساس البلاغة ص٣٦٦. تاج العروس (قسم).
(٣) أسد الغابة ٤/١٥٧. الإصابة ٥/٢٧. صحيح مسلم ٥/١١٠.
(٤) أسد الغابة ٤/١٠١.

فهذا الوصف الموجز لأم القرى كان له ـ كما نرى ـ تأثيره البالغ في نفس الرسول ؛ لأن النفس الكريمة تواقة دائماً إلى موطنها ، كثيرة النزوع إليه ، ذلك النزوع الذي يثير فيها أمثال هذه الذكريات .

ثم إن من ينظر في هذا النص القصير يجده مع ما يتسم به من البساطة والإيجاز ـ مشرق العبارة ، ناصع الأسلوب ، له من البلاغة ، والقدرة على التأثير حظ كبير .

قصر الجمل :

ومن هذا القبيل من العبارات الموجزة التي لها في النفس وقعها وتأثيرها ما يرويه أبو سعيد السكري من أنه أقبل رجل من هذيل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليشكو أباه في قسوته وقطيعته ، فبعث عمر رضي الله عنه إلى أبيه فدعاه ، فقال : ما يقول ابنك؟ زعم أنك نفيته . فقال : « يا أمير المؤمنين ، غذوته صغيراً ، وعقّني كبيراً . أنكحته الحرائر ، وكفيته الجرائر ، فأخذ بلمتي ، وأظهر مشتمتي »[٥] .

فهذا الكلام الموجز كأشد ما يكون الإيجاز كان له أثره في نفس أمير المؤمنين ، فعزر ذلك الابن العاق[٦] تعزيراً شديداً .

أبو ذؤيب :

هذا ، وقد نقل عن أبي ذؤيب حديث طويل بشأن علمه ـ وهو في البادية ـ بمرض الرسول ﷺ ، هذا نصه[٧] :

« بلغنا أن رسول الله ﷺ مريض ، فاستشعرت حزناً ، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا يطلع نورها ، فظللت أقاسي طولها حتى إذا كان قريب السحر أغفيت فهتف بي هاتف يقول :

---

(٥) شرح أشعار الهذليين (تحقيق فراج) ٨٩٣/٢ . البقية ص٦٨ .

(٦) المرجعان السابقان .

(٧) أسد الغابة ٢٣٧/٥ .

خطب أجل أناخ بالإسلام　　بين النُّخيل ومقعد الآطام
قبض النبي محمد فعيوننا　　تذري الدموع عليه بالتسجام

قال أبو ذؤيب: فوثبت من نومي فزعاً، فنظرت إلى السماء فلما أر إلا سعداً الذابح[٨]، فتفاءلت ذبحاً يقع في العرب، وعلمت أن النبي ﷺ قد قبض، أو هو ميت من علته، فركبت ناقتي وسرت، فلما أصبحت طلبت شيئاً أزجر به، فعنّ لي شيهم[٩]، وقد قبض على صِلّ[١٠]، فهي تلتوي عليه، والشيهم يعضها حتى أكلها، فزجرت ذلك، فقلت الشيهم: شيء مهم، والتواء الصل: التواء الناس عن الحق، عن القائم بعد رسول الله ﷺ، ثم أولت أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعده على الأمر، فحثثت ناقتي حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر فأخبرني بوفاته، ونعب غراب سانح، فنطق بمثل ذلك، فتعوذت بالله من شر ما عنّ لي في طريقي، وقدمت المدينة، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحاج إذا أهلوا بالإحرام، فقلت مه؟ فقالوا: قبض رسول الله ﷺ، فجئت المسجد، فوجدته خالياً، وأتيت بيت رسول الله ﷺ فأصبت بابه مرتجاً، وقيل هو مسجّى، وقد خلا به أهله، فقلت أين الناس؟ فقالوا في سقيقة بني ساعدة صاروا إلى الأنصار، فجئت إلى السقيفة، فوجدت أبا بكر، وعمر، وأبا عبيدة بن الجراح، وسالماً، وجماعة من قريش، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة، وفيهم شعراؤهم: كعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وملأ منهم. فآويت إلى قريش. وتكلمت الأنصار فأطالوا الخطاب، وأكثروا الصواب. وتكلم أبو بكر فلله دره من رجل لا يطيل الكلام، ويعلم مواضع فصل الخصام، والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاذ له، ومال إليه، ثم تكلم بعده عمر بدون كلامه، ثم مد يده فبايعه وبايعوه، ورجع أبو بكر فرجعت معه، فشهدت الصلاة على محمد ﷺ وشهدت دفنه».

---

(٨) سعد الذابح: أحد منازل القمر.
(٩) الشيهم: القنفذ.
(١٠) الصل: الحية.

فأبو ذؤيب يحدثنا في هذا الحديث الطويل عن رحلته العاجلة إلى المدينة، ويصور شعوره نحو نبيه الذي أسلم ولم يره كما جاء في بعض الأخبار[11]، فقد وصل إلى المدينة غداة وفاة النبي، واتجه من فوره إلى المسجد وإلى بيت الرسول الكريم، ثم حضر سقيفة بني ساعدة، وشهد مساجلات المهاجرين والأنصار بشأن الخلافة حيث آل الأمر أخيراً الى أبي بكر، ثم شهد الصلاة على الرسول ﷺ، وحضر دفنه.

ويتبين من مساق هذا الحديث أنه كان لأبي ذؤيب ما كان لكثيرين من العرب من معرفة بالعيافة وزجر الطير. كما يتضح من سياقه أيضاً أن هذا الشاعر شاعر مخضرم أسلم، ولكن لم يتح له شرف الصحبة إذ كان من أولئك الذين أسلموا وهم في البادية يقيمون شعائر الدين التي عرفوها على يد بعض الدعاة الذين كان يبعث بهم الرسول الكريم ليعلموا أمثال هؤلاء من البدو شعائر الدين الحنيف.

★ ★ ★

ابن مسعود:

وقد تواردت على لسان ابن مسعود مرويات كثيرة من الآثار، والأحاديث الموقوفة التي أثرت عنه في كثير من المواقف الدينية والخلقية، والوصايا التي أثرت عنه، وتتسم جميعها بالصدق الكامل، والتأثير البالغ في النفوس، كقوله لرجل طلب إليه أن يعظه: «ليسعك بيتك، واكفف لسانك، وابك على ذكر خطيئتك»[12]. وقوله: «والله الذي لا إلٓه إلا هو ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان»[13]. وقوله: «من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه»[14]. وقد بلغ من تأثير هذه

(١١) أسد الغابة ٥/٢٣٧.

(١٢) أبو نعيم: حلية الأولياء ١/١٢٥.

(١٣) المرجع السابق ١/١٣٤.

(١٤) أبو طالب المكي: قوت القلوب ٢/١٠

الكلمة ـ وأمثالها ـ أن قال زبيد اليامي : « اسكتتني كلمة ابن مسعود هذه عشرين سنة ».

ومن قوله في حامل كتاب الله الكريم : « ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس يفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون . . وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً ، حكيماً حليماً ، عليماً سكيناً »(١٥) .

ومن هذا المجال ما يرويه الرواة أيضاً لابن مسعود في بعض المناسبات من كلمات موجزة أوفت على الغاية في الدقة والتسديد ، واتسمت بالصدق الكامل في التعبير عما سيقت له كقوله في عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر »(١٦) وقوله : « كان إسلام عمر فتحا ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة » .

فكلمة ابن مسعود هذه هي على إيجازها ـ كما يقول الدكتور طه حسين ـ أدق وصف يختصر حياة عمر منذ أسلم إلى أن توفي(١٧) .

هذا ، وقد رويت لابن مسعود خطب دينية نسوق منها هذه الخطبة التي أوردها الباقلاني في كتابه « إعجاز القرآن »(١٨) كما وردت في « البيان والتبيين » مع تغيير طفيف : وعند ابن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد » :أصدق الحديث كتاب الله ، وأصدق العرى كلمة التقوى ، خَير الملل ملة ابراهيم ، وأحسن السنن سنة النبي ﷺ . خير الأمور أوساطها ، وشر الأمور محدثاتها . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . خير الغنى غنى النفس ، وخير ما ألقي في القلب اليقين . الخمر جِماع الإثم . النساء حبالة

---

(١٥) حلية الأولياء ١٢٥/١ .

(١٦) الصبان على الأشموني ١٣١/٣ .

(١٧) الشيخان ص١١٩ .

(١٨) إعجاز القرآن (على هامش الإتقان) ١٩٤/١ العقد الفريد ١٩٠/٢ ، ١٩١ ، وانظر البيان والتبيين ٤٢/٢ .

الشيطان. الشباب شعبة من الجنون، حب الكفاية مفتاح العجزة من الناس، من لا يأتي الجماعة إلا دَبْراً، ولا يذكر الله إلا هُجراً، أعظم الخطايا اللسان الكذوب. سباب المؤمن فسق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية. من يتأل على الله يكذّبه. من يَغفر يُغفر له. مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عُفي عنه. الشقيّ من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره، الأمور بعواقبها. مِلاك العمل خواتيمه. أشرف الموت الشهادة. من يعرف البلاء يصبر عليه، ومن لا يعرف البلاء ينكره».

فهذه الخطبة - كما رأينا - من الخطابة الدينية، وهي تتفق والسمت الديني الذي عرف به ذلكم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود. وقد تناولت الكثير من المعاني، والاتجاهات الدينية، والاجتماعية، والخلقية، ففيها دعوة إلى التمسك بكتاب الله، وهدْي رسول الله، وأخذ النفس بالزهد واليقين، والتخلق بالأخلاق الفاضلة من حلم، وصدق، وعفو، وعلو همة، وبعد عن معاقرة الخمر، وتجاف عن الوقوع في حبائل الشيطان الذي يتخذ من بعض النساء فخاً لاصطياد الرجال، وفيها حث على الصبر، وحض على الجهاد..

وهذا كله أشبه شيء بابن مسعود أو ابن أم عبد - كما كان يسميه الرسول الكريم - فقد أبلى في الإسلام، وفي صحبة رسول الله ﷺ أحسن البلاء.

ومما تجدر بنا ملاحظته أن أسلوب الخطبة كلها هو أسلوب خبري لفظاً إنشائي معنى، فكل ما حوته من أمر ونهي جاء في ثوب الخبر الذي قد يكون له من الوقع والتأثير ما يفوق الأمر المباشر، والنهي الصريح.

والخطبة - إلى هذا - يقوم هيكلها وبناؤها على جمل متتابعة متساوقة تتضمن العديد من الحكم والآثار، وفيها كثير مما سماه البلاغيون بعدُ بالمطابقة، وما وسَمُوه بالازدواج.

ولعل من نافلة القول أن نشير - ونحن بصدد الصدر الأول للإسلام - إلى

سلامة هذا الكلام من التكلف، والزخرف، وهذا يكسبه من الرصانة والتأثير الشيء الكثير.

* * *

أبو صخر:

هذا وقد روي لأبي صخر الهذلي - الشاعر الإسلامي الذي أظله العصر الأموي - هجاء نثري، فقد كان هذا الشاعر من شعراء الدولة، وكان عظيم الولاء لملوك بني مروان، شديد التعصب لهم، وله في عبد الملك بن مروان، وأخيه عبد العزيز مدائح كثيرة تضمنتها كتب الأدب، كما ورد في شرح أشعار الهذليين كثير من شعره الذي يمدح فيه بعض أمراء الدولة الأموية ورجالاتها[١٩]، فهو شاعر خلصت لهذه الدولة نفسه، وعظم إخلاصه لها، وتفانيه في خدمتها.

ولما ظهر عبد الله بن الزبير في الحجاز، وغلب عليه بعد موت يزيد بن معاوية، وتشاغل بنو أمية في الحرب بينهم في مرج راهط وغيره - دخل أبو صخر هذا في عدد من بني قومه، ليقبضوا عطاءهم، وكان ابن الزبير عارفاً بأن هواه مع بني أمية؛ فمنعه عطاءه فقال:

«أتمنعني حقّاً لي، وأنا امرؤ مسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثاً، ولا أخرجت من طاعة يداً؟» فقال ابن الزبير:

«عليك ببني أمية فاطلب منهم عطاءك». فقال: «إذن أجدهم سبطة أكفهم، سمحة نفوسهم، بذّلا لأموالهم، وهابين لمجتديهم، كريمة أعراقهم، شريفة أصولهم، زاكية فروعهم، قريباً من رسول الله ﷺ نسبهم وسببهم، لهم السؤدد في الجاهلية، والملك في الإسلام، لا كمن لا يُعدّ في عيرها ولا نفيرها، ولا حكم آباؤه في نقيرها وقطميرها، ليس من أحلافها المطيبين، ولا من ساداتها المطعمين، ولا من هاشمها المنتخبين، ولا عبد شمسها المسوَّدين،

---

(١٩) شرح أشعار الهذليين تحقيق (فراج وشاكر)، ٩٥٤/٢ وما بعدها البقية ص٦٨.

وكيف تقاس الأرؤس بالأذناب ، وأين النصل من الجفن؟ وأين السنان من الزُّج؟ والذنابي من القدامى؟ وكيف يفضّل الشحيح على الجواد؟ والسوقة على الملوك؟ والجائع بخلاً على المطعم فضلاً؟ »[٢٠].

فهذا الهجاء النثري هو أشبه ما يكون بخطبة موجزة ، بليغة كأعظم ما تكون البلاغة ، قوية كأشد ما تكون القوة .

ولعل سر هذه القوة يرجع في كثير من الأمر إلى اعتمادها على حقائق التاريخ ، وواقع الحياة ، وإلى الصراحة التي لا تجد منها مواربة ولا مداجاة ، فصاحبها جريء القلب ، ثابت الجأش ، ذرب اللسان . يعقد الموازنات السريعة الخاطفة بين ما نُسب إلى عبد الله من بخْل ، وما اشتهرت به أمية من عطاء . ثم بين أمجاد سادات قريش ورجالاتها من هاشم وعبد شمس وغيرهما ، وحال ابن الزبير الذي ليس من أولئك ولا هؤلاء ، بل يؤول أعظم مجده ومجد ذويه من الزبيريين إلى النساء ، فهو يشير إلى أن حسب هؤلاء كان في أمهاتهم أكثر منه في آبائهم ؛ فالزبير كانت أمه عمة الرسول الكريم ، وابنه عبد الله الذي يجبهه أبو صخر بهذا الهجاء هو ابن أسماء ذات النطاقين .

أما فيما وراء ذلك ، فليس لابن الزبير كبير نسب في قريش ، وليس من حقه - في رأي أبي صخر - أن يجاري أو يباري ساداتها في الجاهلية والإسلام .

ثم إن هناك من السمات الأخرى التي تقرّب هذا الهجاء من الخطابة القوية : قصر الجمل ، وشدة وقعها وتأثيرها ؛ ولكن هذا التأثير ليس تأثير إقناع ، بل هو تأثير إقذاع ؛ فعباراتها متتابعة متلاحقة على أشد ما يكون في التلاحق من عنف ، فكأنها وقع المطارق ، أو لهيب السياط .

ولهذا كله كان أثرها على ابن الزبير شديداً ؛ فحبس أبا صخر عاماً كاملاً حتى استوهبته هذيل ، وبعض قريش .

---

(٢٠) الخزانة (المطبعة السلفية بمصر) ٣/٢٣٧ وما بعدها .

ولما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة ، وخرج إلى الحج لقيه أبو صخر ، فقرّبه وأدناه ، وقال له :

« إنه لم يخْف عليّ خيرك مع هذا الملحد ، ولا ضاع لديّ هواك ، ولا موالاتك » .

فقال أبو صخر :

« إنني إذ شفى الله منه نفسي ، ورأيته قتيل سيفك ، وصريع أوليائك ، مضلوباً ، مهتوك الستر مفرق الجماعة ، فما أبالي ما فاتني من الدنيا » .

ثم استأذنه في أن يمدحه ، فأجزل عبد الملك عطاءه .

وهكذا نرى أن أبا صخر لم يكن أدبه النثري بأقل منزلة من شعره . وإن كان من حيث الكم مقلاً في النثر مكثراً في الشعر الذي نجد الكثير منه - كما أشرنا - في مدح الأمويين ، ولا يخلو من هجاء الزبيريين .

هذه لمحة موجزة عن النثر عند الهذليين تليها لمحة أخرى عن شعرهم وشعرائهم .

* * *

الشعر

كثرة شعر الهذليين وشعرائهم :

كان حظ الهذليين - فيما يبدو - من الشعر والشعراء أكثر من حظ غيرهم من العرب ، فلم يتح لقبيلة عربية ما أتيح لهم من ذلك .

وهذا العدد الكبير من شعراء الهذليين - وما كان لهم من شعر كثير - لفت أنظار القدامى من الشعراء أنفسهم ، أو من النقاد واللغويين والرواة وغيرهم ، فقد جعلهم حسان بن ثابت أشعر أحياء العرب[٢١] ، وقال يونس

(٢١) العمدة ١/٥٥ . معجم الأدباء ١١/٨٦ . المزهر ٢/٣٠٠ . أسد الغابة ٥/١٨٩ وما بعدها

ابن حبيب: «ليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو»[٢٢]. ويقول الأصمعي: «إذا فاتك الهذلي أن يكون شاعراً أو ساعياً، أو رامياً، فلا خير فيه»[٢٣]. ويصف اليعقوبي هذيلاً بأنهم أصحاب فصاحة وشعر[٢٤].

وقد بلغ من تصوير القدامى للهذليين بأنهم قبيلة شاعرة ما ذكروا من أنه ربما كان للواحد منهم عشرة أبناء كلهم من الشعراء مثل بني مرة، وهم أبو خراش الشاعر المخضرم المعروف وإخوته[٢٥].

ويريد أبو سعيد السكري - وهو من أهم رواة أشعار الهذليين وشراحها - أن يصور كثرة شعر هذيل فيقول: «هذيل فيهم نيّف وثلاثون شاعراً، أو نحو ذلك، وبنو سنان مثلهم مرتين وليس فيهم شاعر واحد»[٢٦]، فهو يبغي من وراء هذه الموازنة أن يظهر ما لهذيل من تبريز في هذا المضمار.

وقد عد ابن حزم مشاهير شعراء هذيل نيّفاً وسبعين شاعراً[٢٧]. وأكثر من هذا ما يقوله بعض الأدباء والرواة من أنه «كان للهذليين مائة وثلاثون شاعراً ما فيهم إلا مُفلق»[٢٨].

ومع أن في هذا القول إسرافاً في وصف شعراء هذيل جميعهم بالتفوق والإجادة، فإنه - في أغلب الظن - أقرب إلى الواقع في التعبير عن كثرة شعر الهذليين، وشعرائهم، فلقد نجد من هؤلاء الشعراء أصحاب الشواهد في لسان العرب وحده ما يناهز هذا العدد. حقاً إنه قد يذكر بعض الشعراء مرة باسمه، ومرة أخرى بكنيته أو لقبه، وقد يكون هنالك أيضاً خطأ أو تزيد في نسبة بعض الشعراء إلى هذيل، ولكنا - مع ذلك - نجد كثرة من

- ابن سلام: طبقات الشعراء ص١١٠.

(٢٢) البيان والتبيين ١/٣٠٠.

(٢٣) الأغاني (ساس) ٢١/٣٨.

(٢٤) تاريخ اليعقوبي ص٣١٣.

(٢٥) ديوان الهذليين: القسم الثاني ص١٧٢.

(٢٦) المرجع السابق: القسم الثاني ص٣٨.

(٢٧) جمهرة أنساب العرب ص١٨٦، ١٨٧.

(٢٨) معجم الأدباء ١٦/١٤١. حاشية الأمير على المغني ٢/٤٦.

الشعراء تلفت النظر بحق؛ ولهذا فصاحب اللسان على حق حين يصف هذيلا بأنها قبيلة أعرقت في الشعر. وما يقوله ابن منظور وغيره لا يكاد يخالفه أحد من القدامى أو المحدثين الذين من شأنهم عادة تمحيص ما يقوله القدماء، وعدم التسليم به إلا بعد روية وطول نظر. وأنّى لهم، أن يُماروا في ذلك، وشعر الهذليين ماثل أمامهم يدفع كل خلاف أو مراء.

أهمية هذا الشعر واعتداد العلماء به واعتمادهم عليه:

ترجع أهمية الشعر الهذلي إلى أنه مجموعة كبيرة انتهت إلينا من شعر قبيلة بأسرها، وإلى أن هذه المجموعة هي المجموعة الوحيدة التي انحدرت إلينا من دواوين القبائل، ففيها إذن فرصة سانحة تمكن الباحثين من دراسة حياة هذه القبيلة دراسة أدبية، اجتماعية، تاريخية، لغوية قد لا تتيسر لهم إزاء قبيلة أخرى لم يصلنا من تراثها الأدبي ما وصلنا من تراث هذيل.

ولقد كان لشعر هذيل أهمية كبيرة عند اللغويين والنحاة والمفسرين وغيرهم من علماء الدراسات اللغوية والإسلامية، فليست أهمية هذا الشعر مقصورة على أنها مصدر أصيل لدراسة اللهجة الهذلية، أو لدراسة هذه القبيلة من الجوانب التي سبقت الاشارة إليها، وإنما نجد هذا الشعر - منذ تدوين اللغة - موئلاً يرجع إليه حفاظها ورواتها، ويستشهد به اللغويون، وأصحاب المعاجم على صحة مفرداتها وألفاظها، ويعتمد عليه علماء التفسير في إيضاح ما التبس من آيات الكتاب الكريم.

ونصيبه في ذلك كله هو النصيب الأوفى، وحظه هو الحظ الأوفر. ومن يتصفح كتب النحو والصرف، ومعاجم اللغة، وكتب التفسير، وغريب القرآن وغيرها يجد مصداق هذا واضحاً لا يحتاج إلى بيان.

ومن مظاهر الاهتمام بالشعر الهذلي ما روي من أن الشافعي لزم بادية هذيل - في أول عهده بالشباب - ردحاً من الزمن يتعلم كلامها، ويحفظ أشعارها، فلما رجع إلى مكة جعل ينشد الأشعار، ويذكر الآداب

والأخبار[٢٩]، وكان لذلك أثره في فصاحته ولغته[٣٠]. وقد روي أن الأصمعي ـ على ما كان له من منزلة في اللغة والرواية ودراسة الشعر ـ قرأ على الشافعي أشعار الهذليين[٣١]، ويبدو أن الشافعي كان لا يزال في شبابه المبكر حينذاك ولم تكن له بعدُ شهرته العلمية والفقهية المعروفة، فإننا نجد الأصمعي يقول ـ فيما يرويه ياقوت في معجمه ـ «صححت أشعار هذيل على فتى من قريش» يقال له محمد بن إدريس الشافعي»[٣٢]، ويروي ياقوت أيضاً عن عبدالرحمن بن أخي الأصمعي قوله: «قلت لعمي: يا عماه، على من قرأت شعر هذيل؟ فقال: قرأته على رجل من آل المطلب يقال له محمد ابن إدريس»[٣٣].

وإذا عرفنا دور الأصمعي في جمع الشعر الهذلي، وحفظه، وروايته، وشرحه أدركنا فضل الشافعي، وعرفنا أنه حلقة هامة في هذه السلسلة التي وصلتنا بشعر هذيل في منبعه الأصيل في البادية، وإذا كان هذا هو صنيع الأصمعي وغيره، فإن أبا سعيد السكري (٢١٢ ـ ٢٩٠ هـ)[٣٤] قد أخذ هذه الأشعار، وصنفها، وزاد عليها، وشرحها.

ويقول بروكلمان إنه كانت توجد قبل السكري نسخة من ديوان هذيل مكتوبة سنة ٢٠٠ هـ/٨١٦ م، وكانت لا تزال باقية لدى البغدادي صاحب الخزانة، ولكن السكري نقح الديوان من جديد بعد سنة ٢٧٥ هـ/٨٨٨ م[٣٥]، ورواه تلميذه وقريبه أحمد بن محمد الحلواني الذي روى كتبه، وأخذ عنه، ثم رواه عن هذا الأخير أبو الحسن علي بن عيسى

---

(٢٩) معجم الأدباء ١٧/٢٨٤.

(٣٠) المرجع السابق ١٧/٢٩٩.

(٣١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٣٠٥.

(٣٢) معجم الأدباء ١٧/٢٩٩.

(٣٣) المرجع السابق ١٧/٣١١.

(٣٤) البغية ص٢١٩.

(٣٥) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ١/٨٢.

النحوي المعروف بالرماني سنة ٣٨٤ هـ ، والحق أن هناك خطأ في التاريخ جعل بروكلمان يخطىء فيما قرره من أن النسخة التي كانت عند صاحب الخزانة كانت سابقة على السكري ونسخته ، فقد نسب صاحب الخزانة هذه النسخة لأبي بكر القاري ، وهو الحلواني (أحمد بن عاصم القارىء) راوي شرح أشعار الهذليين عن السكري ، وأغلب الظن أن هذه نسخة من شرح السكري نسبت إلى القارىء ، تجوزاً ، لأنه راويها[٣٦] ، إلى جانب أنه قد نسخها بخطه فيما يبدو[٣٧].

ولم يكن ديوان هذيل هو المجموعة الوحيدة التي جُمعت من بين دواوين القبائل العربية ، فإنه يروى أن أبا عمرو الشيباني جمع أشعار القبائل[٣٨] ، وأنه جمع من ذلك أكثر من ثمانين ديواناً[٣٩] ، ولكنها أهملت نظراً لاتجاه العناية بعد هذا إلى جمع المختار من شعر القبائل ، ودواوين الفحول فيها ، فأدى ذلك إلى إهمال دواوين القبائل ونسيانها ، ولم يبق من هذه الدواوين ، أو تلك المجموعات إلا مجموعة شعر هذيل ، فقد حاطها رواة الشعر بالعناية ، وخصها أساطين اللغة والأدب بالرعاية.

وإنا لنجد من مظاهر هذه العناية ما ألف من كتب في شرح أشعارهم كشرح السكري ، وشرح ابن جني[٤٠] ، وسنعود إليهما في شيء من التفصيل عند الحديث عن مجموعات ديوان هذيل ، ومن هذه الكتب أيضاً شرح المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١ هـ[٤١]. وهذا غير ما جاء في كتب اللغة من شرح اللغويين لشعر هذيل.

وممن كتبوا في شرح أشعار الهذليين أحمد بن علي المأموني النحوي

---

(٣٦) انظر مقدمة شرح أشعار الهذليين (تحقيق عبد الستار فراج) ص١٤.

(٣٧) الخزانة (بولاق) ١٥١/٣٠.

(٣٨) معجم الأدباء ٧٧/٦.

(٣٩) جولدتسيهر : دواوين القبائل (ترجمة حسين نصار).

(٤٠) الإصابة ٣٥/٥ - ١٠٣/٧.

(٤١) معجم الأدباء ١٧٥/٤.

اللغوي ، وله كتاب (أشعار الهذليين) في ثلاثة مجلدات كما يقول ياقوت[٤٢] ، وقد كانت هذه الأشعار موضع دراسة وتعليق كثير من العلماء والأدباء كابن فارس ، وابن العميد[٤٣] ، وأبي علي القالي ، وأبي عبيد البكري[٤٤] .

كما كان يهتم بحفظ هذه الأشعار كثير من الرواة واللغويين والنحاة حتى بعض المتأخرين منهم ، ومن هؤلاء الخضر بن ثروان النحوي البغدادي[٤٥] وغيره .

وقد كان هذا الشعر محور دراسات أخرى غير الدراسات النحوية واللغوية والأدبية ، فكثير ممن كتبوا في البلدان والأماكن العربية ، ومن كتبوا في الأخبار ، ولا سيما من كتب في أخبار الهذليين وجدوا في هذا الشعر معيناً لا ينضب .

وما لهؤلاء القدامى من جهد مشكور يتمثل في هذه المخطوطات الكثيرة لديوان هذيل وشروحه ، وهي منبثة في مكتبات العالم الآن . وسنشير إلى هذه المخطوطات بين مجموعات الشعر الهذلي .

مجموعات هذا الشعر :

أشرنا في هذا الفصل إلى ما كان للشعر الهذلي من حظوة كبيرة لدى علماء العربية وأدبائها ، وأنهم كانوا يعتدون به ، ويعتمدون عليه ، ويتدارسونه بينهم ، ويتولونه بالشرح والتعليق .

كما ذكرنا أن دواوين هذا الشعر تمثل مجموعة ضخمة انتهت إلينا من شعر هذه القبيلة ، كما كانت المجموعة الفريدة التي انحدرت إلينا من دواوين القبائل العربية ؛ ولهذا ينبغي لنا أن نتناول مجموعات هذا الشعر بالعرض السريع مخطوطة كانت أو مطبوعة ، فالتعريف بهذا الشعر ومادته

---

(٤٢) الخزانة (المطبعة السلفية) ١/٢٥١ .
(٤٣) القالي (الأمالي) ١/٢٦٧ .
(٤٤) معجم ما استعجم ١/٤٤٣ .
(٤٥) معجم الأدباء ١١/٥٩ . البغية ص٢٤١ .

الأصيلة من الأهمية بمكان .

والمخطوطات الآتية هي أهم المصادر المخطوطة للشعر الهذلي :

١) مخطوط الشنقيطي :

وهذه النسخة موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦ أدب ش) ، وهي قسم من مجموعة تشتمل على دواوين لشعراء آخرين غير شعراء هذيل ، وهذه المجموعة مصدرة بديوان حسان بن ثابت ، ويتلوها كتاب ديوان الهذليين ، (وعدد صفحاته ٦٤ صفحة من القطع المتوسط) ، ثم ديوان لبيد ، وديوان الشماخ ، وبعض الشعراء الآخرين ، وتضم هذه المجموعة شعراً لواحد وثلاثين من شعراء هذيل ، وبهامشها تعليقات كثيرة على الشعر الهذلي[٤٦] .

والنسخة كلها بما عليها من تعليقات هي بخط الشنقيطي نفسه ، وهي منقولة عن نسخة أخرى موجودة بالمدينة المنورة ، ولهذا يقول بروكلمان « إنها مكتوبة في المدينة سنة ١٢٨٤ هـ عن أصل مكتوب سنة ٨٨٢ هـ .

(٢) مخطوط ليدن :

وقد كتبه محمد بن علي العَتّابي عام ٥٢٩ أو ٥٣٩ هـ ، وهي نسخة منقولة عن عدة نسخ قوبل بعضها ببعض ، فهي تعد مرجعاً هاماً صحيحاً لبعض ما طبع من شعر هذيل ، وتحوي شعراً لعدد كبير من شعراء الهذليين إلى جانب ما ذكر فيها من أخبار القبيلة وأيامها . وبها ثلاث وسبعون ومائة قصيدة بين طويلة ومتوسطة ، وقصيرة ، وللسكري فيها مقدمات لكثير من القصائد وعليها تنبيهات لغوية ونحوية له .

وهذه النسخة هي الجزء الثاني من أشعار هذيل أما الجزء الأول فهو مفقود[٤٧] .

وهناك نسخة أخرى مخطوطة مضبوطة في ليدن كتبها محمد بن

(٤٦) تاريخ الأدب العربي ١/ ٨٣ .

(٤٧) مقدمة (شرح أشعار الهذليين) بالإنجليزية طبع سنة ١٨٥٤ م .

إبراهيم بن زِبْرِج المتوفى سنة ٥٥٦ هـ ، وهي التي اعتمد عليها يوسف هل في إخراج مجموعته[٤٨].

(٣) مخطوط باريس:

وهو تكملة لنسخة ليدن ، ويكاد خطه يشبه خطها ، ويبدأ بشعر العجلان بن خُليد الهذلي ، وقد قوبلت نسخته وصححت ، فتعد هي الأخرى مرجعاً هاماً مكملاً لسابقتها.

(٤) شرح ديوان هذيل لابن جني:

وهو كتاب « التمام » في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد السكري.

وهذا الكتاب هو الذي أشار إليه المؤلف أحياناً بقوله: « كتابنا في شعر هذيل »[٤٩] ، وأحياناً أخرى بقوله: « كتابي في ديوان هذيل »[٥٠] ، وقد جاء ذكره بعنوان « التمام » ، في الخزانة[٥١] ، وفي الخصائص أيضاً[٥٢] كما ذكره ابن جني في الإجازة التي رواها ياقوت[٥٣].

وهذا الكتاب عده بروكلمان ـ خطأً ـ من كتب ابن جني المفقودة ، وقد اعتمد على هذا ناشر كتاب الخصائص ، فذكر عند الحديث عن كتب ابن جني أنه لا يعلم لهذا الكتاب وجوداً في مكتبات العالم[٥٤] ، وبعد هذا عثر عليه الدكتور محمد أسعد طلس في مكتبة الأوقاف ببغداد ، وهو نسخة بخط أسعد بن المعالي بن إبراهيم بن عبد الله الكاتب ، وقد أتم نسخها في شهور

---

(٤٨) مقدمة كتاب التمام ص٤.
(٤٩) الخصائص ١٢٤/١.
(٥٠) المرجع السابق ١٥١/١.
(٥١) الخزانة (بولاق) ١٥٣/٣.
(٥٢) الخصائص ١٥٣/١.
(٥٣) معجم الأدباء ١٠٩/١٢.
(٥٤) مقدمة كتاب الخصائص ٦١/١.

سنة ثمان وخمسمائة للهجرة ، وقد صور المجمع العلمي ببغداد هذه النسخة ، وحفظها في مكتبته(٥٥).

(٥) ديوان أبي ذؤيب وشرحه:

وهو محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٩ أدب ش) ، وقد كتب هذا المخطوط في أول ذي الحجة سنة ١٣٠٥ هـ ، وعدد أوراقه ١٤٤ ورقة من القطع المتوسط.

وهذه النسخة مصدرة بما يفيد ملكيتها ووقفها بخط الشنقيطي ، ولكنها مكتوبة بخط مغاير لخط الشنقيطي ، وهو خط النسخ المعتاد ، وفي أثنائها بياض عن الأصل المنقولة عنه ، وعلى هامشها تعليقات طفيفة.

وهناك نسخة أخرى محفوظة بدار الكتب أيضاً برقم (٢٦٤ شعر تيمور) فهي إحدى نسخ الخزانة التيمورية بهذه الدار. وهي منقولة عن نسخة الشنقيطي السابقة ، ومصدرة بخط مغربي يبدو أنه خط الشنقيطي نفسه ، ومكتوبة من الداخل بخط قريب من خط النسخ ، وعدد صفحاتها ٣١٠ ، وتاريخ نسخها سنة ١٣١٤ هـ.

هـذا أهم مـا عرف من مخطوطـات الشعر الهـذلي إلى الآن. ويـذكر بروكلمان أن هناك نسخاً أخرى حديثة بعضها في الفاتيكان(٥٦).

وقد كانت هنالك مخطوطات لديوان هذيل لا وجود لها الآن ـ فيما نعلم ـ ومن بين هذه المخطوطات النسخة القديمة التي سبقت الإشارة إليها عند صاحب الخزانة(٥٧) ، ويروي صاحب الخزانة أيضاً أنه رأى نسخة من شرح أشعـار هـذيـل للسكري ، وهي النسخـة التي قرأهـا ابن فـارس عـلى ابن العميد ، وعليها خطهما ، كما رأى أيضاً مخطوط «شرح أشعار الهذليين»

---

(٥٥) مقدمة كتاب التمام ص٤.

(٥٦) تاريخ الأدب العربي ٨٣/١.

(٥٧) الخزانة (بولاق) ٣٩٧/٢. تاريخ الأدب العربي ٨٢/١.

للإمام المرزوقي[٥٨].

★ ★ ★

المطبوعات :

واعتماداً على هذه المخطوطات أخرج لنا الباحثون المحدثون من ديوان هذيل عدة مطبوعات جديرة بالتقدير نعرضها في إيجاز لما لذلك من أهمية في الإلمام بمادة الشعر الهذلي ومصادره.

المجموعة الأولى:

شرح ديوان الهذليين، وقد نشره المستشرق الإنجليزي Godfrey Kosgarten سنة ١٨٥٤ م، ومهد له بمقدمة قصيرة بالإنجليزية.

وهذه المطبوعة تمثل القسم الأول من مخطوط ليدن الذي أراد جودفري إخراجه للناس في أقسام ثلاثة، فأخرج القسم الأول وحده.

المجموعة الثانية:

هي (شرح أشعار الهذليين ما بقي منها في النسخة اللغدونية «أي الليدنية» غير مطبوع) أي ما تركه جودفري من نسخة ليدن دون طبع بعد أن أخرج كتابه السابق؛ ولهذا تسمى بقية أشعار الهذليين، أو «البقية» اختصاراً للتسمية، ويسميها بروكلمان «القسم الأخير من شرح أشعار الهذليين»[٥٩]. وهذه التسمية هي الترجمة العربية لعنوان هذه النسخة بالألمانية Lietzter Teil Der Lieder Der Hudhaibten.

وقد تم طبعها في برلين على يد المستشرق الألماني فلهاوزن سنة ١٨٨٤ كما يقرر بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي»[٦٠].

---

(٥٨) الخزانة (السلفية) ١/٢٥١.

(٥٩) تاريخ الأدب العربي ١/٨٣.

(٦٠) المرجع السابق ١/٨٤.

ويوجد من هذه المجموعة نسختان محفوظتان بدار الكتب المصرية: إحداهما برقم (١٧٨١ أدب)، والأخرى برقم (١٣٩ أدب).

المجموعة الثالثة:

مجموعة دواوين من أشعار الهذليين، وهي جزءان:

١) الجزء الأول منها «ديوان أبي ذؤيب». نشره المستشرق الألماني يوسف هل، وطبعه في هانوفر سنة ١٩٢٦م.

٢) الجزء الثاني هو دواوين ساعدة بن جؤية، وأبي خراش، والمتنخِّل، وأسامة بن الحارث مع شرح لشعرهم، وقد نشره يوسف هل أيضاً، وطبع بمدينة ليبزج سنة ١٩٣٣م.

وقد طبعت هذه المجموعة بجزأيها ـ عن نسخة خطية قديمة مضبوطة ـ في ليدن، كتبها ابن زبرج المتوفى سنة ٥٥٦ هـ، وقد سبقت الإشارة إليها، وهي غير النسخة التي اعتمد عليها كل من جودفري وفلهاوزن في إخراج مجموعته.

المجموعة الرابعة:

ديوان الهذليين (طبع دار الكتب)، وقد أخذت هذه النسخة عن النسخة الشنقيطية مع الاستعانة بشرح ديوان أبي ذؤيب، وبعض المراجع الأخرى.

وقد أخرج هذا الديوان في أقسام ثلاثة، ويشتمل على شعر لثلاثة وثلاثين شاعراً من شعراء هذيل. ويحتوي كذلك بعض أشعار لغير الهذليين ممن كانت لهم صلة بشعراء هذيل. وقد ظهرت هذه المجموعة من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٠.

المجموعة الخامسة:

«التمام» في تفسير أشعار هذيل ـ مما أغفله أبو سعيد السكري ـ لأبي

الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ.

وقد أخرج هذا الكتاب بعض الباحثين العراقيين في بغداد سنة ١٩٦١ م.

واعتمدوا في إخراجه على النسخة الوحيدة الموجودة بمكتبة الأوقاف ببغداد، والتي اكتشفت أخيراً على النحو الذي أشرنا إليه[٦١].

ولكن يبدو أن هذا الكتاب (والمخطوط الذي اعتُمد عليه في إخراجه) لا يمثل إلا جزءاً من كتاب التمام كما ألفه ابن جني[٦٢].

المجموعة السادسة:

«شرح أشعار الهذليين للسكري»، وهي آخر ما ظهر من شعر الهذليين مطبوعاً، وتقع في أجزاء ثلاثة، وقد قام بتحقيقها الأستاذ عبد الستار أحمد فراج.

ويوحي عنوان هذه المجموعة أنها جميعها من شرح السكري، ولكنها - في واقع الأمر - تشتمل على قصائد لبعض الشعراء المشهورين في هذيل وهم: أبو كبير، وساعدة بن جؤية، وأبو خراش، والمتنخِّل، وأسامة بن الحارث.

وهؤلاء لم يعثر محقق المجموعة على شرح السكري لأشعارهم، فاضطر إلى أن يسوق أشعارهم مصحوبة بشرح آخر لعالم مشهور من علماء اللغة، وراوية من أهم رواتها، وهو الأصمعي الذي كان أيضاً من رواة الشعر الهذلي، والمهتمين به، وهذه الأشعار (أي أشعار أولئك الشعراء الخمسة) هي نفسها من رواية الأصمعي، وكان قد تم نشرها سنة ١٩٣٣ على يد المستشرق يوسف هل كما سبق أن أشرنا.

ويشير الأستاذ المحقق في المقدمة إلى أنه أخر قصائد هؤلاء الشعراء الخمسة إلى آخر الكتاب؛ ليكون ما عمله السكري متصلاً. وقد ذكر في

---

(٦١) سبقت هذه الإشارة ص١٦٩ من هذا الفصل، وانظر مقدمة كتاب التمام ص٤.

(٦٢) راجع نقد د. حسين نصار للكتاب (مقال منشور «بالمجلة» عدد مارس ١٩٧٣، ص٩٦)

شرح أشعارهم ما عثر عليه من ذلك منسوباً للسكري في كتب اللغة وغيرها.

ويذكر في هذه المقدمة أيضاً أن كثيراً من الباحثين الذين لم يقابلوا بين ما أخرجته دار الكتب، وبين مجموعات الشعر الهذلي التي سبق ظهورها يحسبون أن ديوان الهذليين الصادر عن الدار كله من شرح السكري، وأنه يشتمل على جميع أشعار الهذليين كما يوحي بذلك ما جاء في مقدمة الجزء الثالث من طبعة هذه الدار مما يوهم أن ما صدر عنها أوفى وأتم من جميع ما سبق ظهوره. ثم يعقد موازنة بين ما أخرجته دار الكتب وبين شرح أشعار الهذليين الذي قام بتحقيقه موضحاً ما وقع من خطأ أو نقص في ديوان الهذليين الصادر عن الدار، ويسوق في هذا الصدد الحقائق التالية:

١) جميع ما في الديوان طبعة الدار ليس بشرح السكري، وأصله ثمانية أقسام، خمسة منها بشرح الأصمعي، وثلاثة ملفقة.

٢) عدد القصائد والمقطوعات فيها: ١٧٠
وعددها فيما حققه ٣٨٠

٣) عدد من رويت لهم أشعار فيها: ٣٣
وعددهم فيما حققه أكثر من: ١٢٠

٤) عدد الأبيات والمشطورات فيها: نحو ٢٣٠٠
وعددها فيما يحققه: نحو ٤٦٠٠
وذلك عدا ما يذكر في أثناء شرح السكري من شواهد كثيرة.

٥) بعض الشعراء المذكورين في طبعة الدار لم تذكر لهم قصائد بأكملها، أو تذكر بعض القصائد ناقصة.

* * *

هذه أهم مجموعات الشعر الهذلي مخطوطة ومطبوعة، وهي تعطينا متعاونة مجموعة ضخمة من الشعر الهذلي يمكن الإفادة منها، والاعتماد عليها في كثير من الدراسات الأدبية واللغوية.

* * *

من شعرائهم :

تلك إشارة إلى أشعارهم ، وأهميتها ، ومصادرها . أما شعراؤهم فمنهم في الجاهلية : أبو قلابة ، وابن أخيه المتنخل ، وأبو ضب ، والأسود بن مرة ، وعروة بن مرة ، وخويلد بن واثلة بن مطحل ، ومعقل بن خويلد ، وعمرو ذو الكلب ، وأخته جنوب ، وغيرهم .

ومن المخضرمين : أبو ذؤيب ، وأبو خراش وأبو كبير ، وساعدة بن جؤية . . .

ومن الإسلاميين : البُريق ، وأبو صخر ، وأمية بن أبي عائذ ، وأبو العيال ، وبدر بن عامر ، وعبد الله بن أبي ثعلب ، ومسلم بن جندب ، وعبد الله بن مسلم بن جندب ، والقاسم بن معن بن عبد الرحمن ، وعون بن عبد الله بن عتبة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وغيرهم .

والخصائص الفنية لشعر هؤلاء الشعراء ليس موطنها هذا البحث ؛ ولهذا سأتعهدها بالكتابة في غيره من الأبحاث .

★ ★ ★

٢) حول اللهجة الهذلية

لا نعني بالحديث عن اللهجة الهذلية أن نتناول بالدراسة ما كانت تتسم به هذه اللهجة من خصائص وسمات كالظواهر الصوتية ، أو ظواهر البنية والدلالة ، أو غيرها من الخصائص اللغوية واللهجية ؛ فهذه الدراسة ليس لها مكان في مثل هذا البحث ، وقد أفردنا لها بحثاً آخر أسميناه « لغة هذيل » .

فنحن حين نقصد الكلام حول هذه اللهجة في هذا المقام إنما نريد أن نتناولها تناولاً سريعاً يلم بها كالسياج من حولها ، فيكون أقرب إلى سمت هذا البحث الذي هو أقرب إلى التاريخ منه إلى اللغة .

اللهجة الهذلية أو ـ كما يسميها القدماء ـ لغة هذيل هي إحدى اللهجات التي كان لها منزلتها بين أخواتها من لهجات العرب، فهي من أقرب اللهجات إلى قريش جواراً ونسباً، وهي لهجة خالصة من الأوشاب، بعيدة عن التأثر بلغات الأمم المجاورة في الشمال والجنوب، في حين أننا نجد الأمر على غير هذا عند بعض القبائل الأخرى كلخم، وجذام، وقضاعة، وعند المناذرة والغساسنة في جوارهم للفرس والروم، وعند سكان جنوب الجزيرة العربية في جوارهم للأحباش.

ولهذا عدّ اللغويون لغة هذيل مصدراً من المصادر التي عنها يأخذون، وموردا من الموارد التي منها ينهلون. ومما ينقله في ذلك صاحب المزهر عن أبي نصر الفارابي من أن «الذين نقلت عنهم العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس، وتميم وأسد... ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم»[٦٣].

فهم قد ارتضوا هذيلاً إلى ما ارتضوه من هذه القبائل لفصاحتها وخلوص لغتها أو لهجتها.

وانظر أيضاً إلى قول صاحب العمدة: «أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السروات وهن ثلاث: الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن، فأولها هذيل، وهي التي تلي السهل من تهامة، ثم بجيلة بالسراة الوسطى، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها، ثم سراة الأزد...»[٦٤].

ولفصاحة هذيل في نطقها استحب عثمان رضي الله عنه في الجمع الثاني للقرآن أن يجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف[٦٥].

وقد جاء بصدد الكلام عن الأحرف السبعة أن القرآن نزل على سبع

---

(٦٣) السيوطي، المزهر ١٢٨/١.

(٦٤) ابن رشيق، العمدة (٥٥/١).

(٦٥) المزهر ١٢٧/١.

لغات ذُكر بينها لغة هذيل[٦٦].

ويسوق ابن الجزري أنها خمس لغات في أكناف سعد وثقيف وكنانة وهذيل وقريش. ولغتان على جميع ألسنة العرب[٦٧].

وقد أعطى النحاة واللغويون هذه اللهجة شيئاً من عنايتهم يتصل أغلبها بعنايتهم بأشعار أصحابها، أو قلْ إن هذه العناية وصلتنا مظاهرها من خلال العناية بهذه الأشعار.

فالنحاة تناولوها في شذرات منثورة في أبواب النحو عندما يشيرون إلى بعض ما خرجت فيه اللهجات عن قواعدهم وأقيستهم.

ومن ذلك قولهم - في معرض حروف الجر - إن متى يجر بها في لغة هذيل كقولهم: «أخرجها متى كمه». والنحاة يسوقون لذلك أيضاً شاهداً من شعر هذيل هو قول أبي ذؤيب:

تروّت بمـــا البحر ثم ترفّعـــت ... مـــتى لجـج خضر لهن نئيـح[٦٨]

وشاهداً آخر من شعرهم هو قول ساعدة بن جؤية:

أخيل برقا متى حاب له زجل

ويثيرون خلافاً حول معنى «متى» في بيت أبي ذؤيب فقيل إنها بمعنى «مِن» وقيل بمعنى وسط، وقيل بمعنى «في»[٦٩].

كما يثيرون هذا الخلاف نفسه في قول ساعدة فيقولون إن «متى» بمعنى «في» أو بمعنى «وسط»[٧٠].

---

(٦٦) لسان العرب (حرف).

(٦٧) النشر ١/٢٤.

(٦٨) ابن عقيل مع حاشية الخضري ١/٢٢٦.

(٦٩) المغني ٢/٢٠. الخزانة ٣/١٩٣. المخصص ١٢/٦٩.

(٧٠) المغني ٢/٢٠.

وهي - كما نرى - تخرج في بعض هذه المعاني عن أن تكون حرفاً للجر .

ومن هذا القبيل ما يقوله النحاة بصدد الاسم الموصول « الذين » حين يقولون بأن نطقه بالواو لغة هذيل أو عقيل ويسوقون لذلك شاهداً هو قول الشاعر :

نحن اللــذون صبحوا الصبــاحــا يومَ النُّخيــل غــارة ملحــاحــا(٧١)

وهذا شاهد ليس من شعر الهذليين ، بل هو منسوب إلى عقيلي هو « أبو خرب بن الأعلم » مع خلاف كثير ، ولكنا لسنا بصدد الإيغال في مناقشتهم في ذلك .

بل إنهم يوغلون فيقولون إن بعض هذيل يقولون « اللاءون » لجماعة الذكور رفعاً ، واللائين نصباً مستشهدين ببيت ينسبونه لشاعر هذلي ، هو قوله :

همُ الــلاءون فكوا الغــل عــني بمر الساجات وهم جناحي(٧٢)

ومن إشاراتهم هذه ما ينسبونه إلى هذيل من فتح العين في جمع بيضة ، وجوزة ، وعورة ، وروضة وأمثالها على بيَضات ، وجوَزات ، وعوَرات ، وروَضات بفتح عينه بدلاً من سكونها(٧٣) .

ومع هذا فأمثال هذه الظواهر قليلة ، ومع قلتها نجد من المحدثين من ينكرها عليهم - لا سيا فيا يتصل بالإعراب - ويعدونها من صناعة هؤلاء النحاة حين يشتد بينهم الجدل ويحاول كل فريق منهم أن يأتي بجديد في قواعد الإعراب ، مدعوماً بالشواهد المفتعلة ، ومنسوباً إلى لهجة من اللهجات .

---

(٧١) الأشموني ١٤٩/١ .

(٧٢) المغني ٥٧/٢ .

(٧٣) مختصر الشواذ ص١٠٣ . شرح المفصل ٣٠/٥ . التصريح على التوضيح ١٣٠١/٢ .

واللغويون (وأكثرهم من النحاة أنفسهم) نجدهم يتناولون من هذه اللهجة ما تناوله النحاة. ولكنهم يزيدون على ذلك ما نجده في معاجمهم بشأنها عند الحديث عن المادة اللغوية، وما يندرج تحتها من ألفاظ تختلف معانيها باختلاف لهجات العرب، وهم يخصون - في هذا - هذيلاً بالكثير من العناية، وينصبّ أغلب كلامهم على الدلالة اللغوية، أي الدلالة المادية والمعنوية للألفاظ منسوبة إلى هذيل.

ونجد مثل هذا الاهتمام عند هؤلاء العلماء عندما يتجهون إلى تفسير غريب القرآن فهم يعرضون كثيراً من الألفاظ التي ينسبونها إلى هذيل، ويفسرون في ضوئها ما هم بصدده من الغريب.

ولكنا - مع ذلك - إذا استثنينا ما عساه أن يكون قد كتب عن اللهجة الهذلية قديماً، ولم يصلنا،مثل كتاب «لغات هذيل» لعزيز بن الفضل الهذلي - يمكننا القول بأن تناول هؤلاء العلماء من أسلافنا لهذه اللهجة إنما هو تناول جزئي، فهو - حتى مع التسليم بصحته جميعه - ليس مقصوداً به عقد دراسة خاصة بهذه اللهجة الهذلية؛ ولهذا كان من واجبنا أن نهتم نحن بمثل هذه الدراسة.

ودراسة هذه اللهجة الهذلية - شأنها شأن غيرها من اللهجات - يتطلب منهجاً سليماً يقوم على أسس علمية صحيحة.

فينبغي بادىء ذي بدء أن نعرف مواطن القبائل العربية، ونتتبع حركاتها وانتقالها، وظعنها وإقامتها، وتأثرها بغيرها وتأثيرها في سواها.

وهذه الدراسة تعتمد كذلك اعتماداً كبيراً على قراءة كتب التراث مخطوطة ومطبوعة كموسوعات اللغة ومعاجمها، وكتب النحو والأدب وما إليها من المراجع التي هي مظنة وجود نقول وروايات تتصل بهذه اللهجة.

ولكنها تعتمد قبل ذلك على دواوين شعر هذيل، فهي المصادر الأولى في هذه الدراسة، وإطالة النظر فيها تهدي إلى الشيء الكثير من سمات هذه اللهجة، وتهيء الوصول إلى خصائصها وميزاتها، ومفرداتها التي ربما تكون

قد أغفلتها كتب اللغة والأدب وغيرها.

ولأن قراءات القرآن الكريم لها أهميتها في هذا الشأن، يجب أن تعطي من العناية ما يناسب أهميتها، ولا سيما قراءة عبد الله بن مسعود، فله مصحفه وقراءاته التي تتراءى فيها لهجة قومه هذيل؛ فقراءته وقراءة تلاميذه من قراء الكوفة لها أهمية خاصة في دراسة هذه اللهجة.

وإذا كان ما كتب قديماً في اللهجة الهذلية مثل كتاب «لغات هذيل» لعزيز بن الفضل الهذلي قد فقد فيما ضاع من تراثنا كما سبقت الإشارة، فإن هنالك ما قد يعوض هذا النقص ككتاب «اللغات في القرآن» لإسماعيل بن عمرو المقرىء، ورسالة ما ورد في القرآن من لغات العرب لأبي القاسم بن سلام، وما جمعه السيوطي في الإتقان خاصاً بلهجات القبائل ممثلة في القرآن، وكتاب «مميزات لغات العرب» لحفني ناصف...

هذا وينبغي عدم إغفال ما كتب حديثاً في اللغة واللهجات مثل كتاب «اللغة» لفندريس، و«العربية» ليوهان فك، و«فقه اللغة» للدكتور علي عبد الواحد، وفي اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس، والأصوات اللغوية للمؤلف نفسه...

كذلك ينبغي تتبع الروايات التي تنبئنا أن بعض أسلافنا قد اتصل بهذيل نوعاً من الاتصال يمكن الاعتماد عليه في الوصول إلى شيء مفيد في مثل هذه الدراسة، ومن ذلك ما طالعنا به ياقوت في معجم الأدباء من أن الشافعي مكث في بادية هذيل بضعة عشر عاماً، وأنه حفظ أشعارها وتعلم لهجتها. فمثل هذه الرواية ينبغي أن تلفتنا إلى النظر في بعض تراث الشافعي، والاطلاع على مؤلفاته لنرى مدى أثر هذه اللهجة في نطقه، وما يمكن أن تقدمه لنا كتبه عن طريق عبارته وألفاظه، لا سيما أن الإمام الشافعي قد أثر عنه بعض ما هو غير مألوف في الفصحى، ولكن العلماء يعتبرونه حجة فيما نطق به؛ لما هو معروف من فصاحته. وقد كتب بعض علماء اللغة كالأزهري صاحب التهذيب كتاباً في غرائب لغة هذا الإمام سماه «الزاهر».

وقد يحس الناظر في كتب الشافعي توافقاً مع نطق هذيل لبعض الألفاظ «كالقران» بدلاً من القرآن، و «النسيّة» في موضع النسيئة... وهكذا.

ولعل الاهتمام بجمع المادة غير كاف في هذا مهما كان البذل في سبيله، فيجب ألا تؤخذ مأخذ التسليم، بل نضعها قيد الدراسة الفاحصة، حتى يتضح الصحيح من الزيف على أسس علمية دقيقة.

وكذلك ينبغي تتبع الروايات العامة التي تنسب بعض اللهجات إلى بيئة أكثر شمولاً من هذيل، كقول اللغويين: هذه لغة تهامة، وتلك لغة الحجاز، أو لغة العالية، أو لغة السراة.

فأمثال هذه الإشارات العامة يقضينا البحث أن نخصها بشيء من الدراسة المستأنية؛ حتى نعرف ما إذا كانت هذه - كلها أو بعضها - لهجة لهذيل هي الأخرى باعتبارها من القبائل الحجازية، أو لأن بعض بطون هذه القبيلة كان ينزل تهامة، وبعضها من مواطنه جبال السراة في جزء منها يسمى سراة هذيل كما عرفنا من خلال هذه الدراسة.

فهذا الوجه من وجوه البحث والدرس هو من ألزم الأمور لتمحيص هذه الروايات، وتخصيص ما تتسم به من عموم هو أقرب شيء إلى الإبهام والإيهام.

كذلك ينبغي ألا يقتصر الجهد على ما نص أصحاب المراجع على أنه لغة هذيل، بل يجب أن نجيل النظر في أفق أوسع من هذه الدائرة الضيقة، فننظر في الشواهد المستقاة من الشعر الهذلي، والتي أوردها علماء اللغة والنحو والصرف؛ لكي يؤيدوا بها دعواهم في أن هذه الكلمة أو تلك إنما هي لغة من لغات العرب دون أن ينصوا - هم أو غيرهم - على أنها لهجة لهذيل، أو غيرها من القبائل، ولكنهم ساقوا إلينا من هذه الشواهد قدراً كبيراً، لا يمكن أن يمر بنا دون درس وتمحيص، فقد نصل من وراء ذلك إلى أن كثيراً من هذه الألفاظ لهجة لهذه القبيلة مع غيرها من اللهجات

الحجازية ، أو لهجات بعض جيرانها من القبائل الأخرى ، وقد نجدها لهجة لهذيل وحدها من دون أخواتها الحجازيات ، وإن لم ينسبها اللغويون إليها مكتفين بإيراد الشواهد من الشعر الهذلي مع غيره حيناً ، ومن الشعر الهذلي وحده في كثير من الأحيان .

ويجب أن ننتبه إلى تأثير البيئة ؛ فهذه القبيلة مع كونها حجازية ، لا نستطيع أن ننسب إليها كل ما ننسبه إلى الحجازيين ، فهم إذا كانوا في كثير من الأمر يتبعون أصلهم الحجازي ، فإنهم مع هذا ـ بحكم موقعهم وجيرانهم ـ يجمعون بين خصائص البدو في وسط الجزيرة ، وخصائص إخوتهم من الحجازيين ، وإن كانوا أقرب ميلاً إلى أصلهم الحجازي في كثير من الظواهر اللغوية .

ولنضرب لذلك مثلاً إحدى ظواهر اللغة كالإدغام والإظهار ، فإن الإدغام مثل شُدَّ ورُدَّ ، ولم يشدّ ، ولم يردّ ، هو في عمومه من سمات القبائل البدوية التي قد يصعب عليها النطق بالحروف المتجاورة إذا كانت متماثلة أو متقاربة ، فنجد عندهم اختلاطاً وتداخلاً في نطقها .

وقد أدرك قدامى اللغويين ذلك ، فذكروا أن وجه الإدغام هو التخفيف ، وأنه ثقل الالتقاء بين المتجانسين على ألسنتهم ؛ فعمدوا بالإدغام إلى ضرب من الخفة »[٧٤] .

كما ذكروا في إدغام الحرفين المتقاربين أن سببه تقريب الأصوات بعضها من بعض »[٧٥] .

وهذا كلام نجد مصداقه عند البدو غالباً ، أما مثل الحجازيين أو بعضهم ، فمن شأنهم نطق الألفاظ في أناة ، وتمييز الحروف بعضها من بعض تمييزاً يتسنى معه الإظهار ، وفصل الحروف . ولهذا فإن من نسب الإظهار

---

(٧٤) ابن يعيش ، شرح المفصل ١٠/١٢١ .
(٧٥) المرجع السابق ١٠/١٢٤ .

إلى قريش هو أكثر دقة ممن نسبه إلى الحجازيين جميعاً، لأن قريشاً قبيلة حضرية، أما غيرها من قبائل الحجاز فأكثرهم من البدو.

والهذليون - وهذا بيت القصيد في الموضوع - يجمعون أحياناً بين خصائص البدو في وسط الجزيرة، وإن كانوا أقرب ميلاً إلى الإظهار في المضعّف، وهذا يتفق وطبيعتهم الحجازية. ولكنهم حين يجمعون بين ظاهرتين متضادتين هكذا، فإنما يكون ذلك راجعاً إلى وضعهم الذي أشرنا إليه.

وهكذا كلما رأينا ظاهرتين مختلفتين في نطق بعض الألفاظ عند بعض البطون الهذلية تكون إحداهما أشبه بالبدو من قيس وأسد ومن إليهما، والأخرى أنسب للحضريين كقريش - كان واجبنا أن ننظر إلى ذلك نظرة قائمة على أساس سليم، وأن نعرف أن ناموس التأثير والتأثر لا يمكن إهماله؛ فهذيل ببطونها المترامية تقع قريباً من الحضر الحجازي من جهة، والبدو في وسط الجزيرة من جهة أخرى. فهي إذن في طبيعتها وطريقة نطقها حلقة وسطى بين الحضر من الحجازيين، وبين البدو الموغلين في البداوة من الأعراب الضاربين بجرانهم في وسط الجزيرة العربية.

ولو قد أدرك القدامى من علمائنا هذه الحقيقة لحلت أمامهم مشكلات كثيرة.

وإذا كنا نهتم بالبيئة وأثرها، فيجب ألا نعني بذلك البيئة الطبيعية وحدها؛ فإن هذا قد يبعد بنا عن الجادة؛ فالبيئة المعنوية هي الأخرى لها أثرها الذي لا يمكن جحده وإنكاره، فقد نجد مثلاً عند قراء الكوفة اتجاهاً لهجياً خاصاً بهذيل، نقلته إليهم قراءة ابن مسعود التي كانوا يعتزون بها اعتزازاً كبيراً - فنرى بعض الباحثين من المحدثين يعزو ذلك إلى البيئة الكوفية التي ينتشر فيها بنو أسد وبنو تميم ويقول إن معظم القراء قد تأثروا ببيئتهم[٧٦]. ونحن لا نماري أصلاً في تأثير البيئة الطبيعية في

---

(٧٦) د. أنيس، في اللهجات العربية ص٥٢.

أصحابها. ولكن أغلب الظن أن القراء، بما يلتزمونه من تحفظ في الأداء، واحتياط فيما يتصل بقراءات القرآن الكريم، يكوّنون بيئة معنوية خاصة لها تأثير كبير في نفوسهم، ويؤيد هذا ما قيل بحق من أن القراءة سنة متبعة.

وإذا كنا نضع في اعتبارنا أثر البيئة ـ مادية ومعنوية ـ في أصحابها، ونعطي قانون التأثير والتأثر حقه من الاهتمام ـ فإنه ينبغي لنا أيضاً ألا نُغفل ناموس التطور الذي هو ظاهرة واضحة في الحياة، تقتضيها طبائع الأشياء، فنحن نجد مثلاً أن علماء اللغة يكادون يُجمعون على أن الفتح لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وقيس وأسد[٧٧]، والمحدثون يتبعون القدامى في هذا التقسيم الذي هو في حاجة إلى كثير من الدقة والتحديد، ومع هذا نستطيع في ضوئه أن نقول من حيث المبدأ بأن الإمالة من خصائص البدو، والفتح من سمات الحضر.

وإذا اعتبرنا الإمالة مرحلة وسطاً من مراحل التطور في اللهجات العربية كما يقول علماء الأصوات تأسيساً على القوانين الصوتية في مختلف اللغات، وعلى المشاهدة الحسية في اللهجات العامية التي يسمونها باللهجات الحديثة، وما نجده لدى القدامى من لمحات مشرقة في كثير من الأحيان، منها ما يشير إلى أن الياء كانت طوراً سابقاً على الألف[٧٨]، فكانت بداية طيبة لما وصل إليه المحدثون من نتائج ـ فإنه من المعقول جداً أن تكون قبيلة حضرية كقريش قد وصلت إلى المرحلة الأخيرة من مراحل هذا التطور، وهي «الفتح»، وأن الإمالة قد تكون معدومة عند هذه القبيلة، موجودة في قلة عند بعض القبائل البدوية، ولو كانت حجازية كبني سعد وهذيل، فاشية في كثير من القبائل الأخرى كلما توغلنا شرقاً في قبائل أسد وقيس وتميم...

---

(٧٧) الإتقان ١/٩١. شرح الشافية ٣/٤.

(٧٨) المرجع الأخير ٣/١١.

ويمكن الاستدلال على أن الإمالة كانت طوراً سابقاً على الفتح بما سبق ذكره من أن الإمالة كانت شائعة في البيئات البدوية التي هي أكثر محافظة على القديم، واستعصاء على التطور السريع في النطق وغيره من مظاهر الحياة.

ففي ضوء ناموس التطور نستطيع أن نقول بأن الإمالة كانت طوراً سابقاً للفتح في اللغة العربية. وليس المحدثون هم الذين ينفردون بهذا القول بل سبقهم إليه بعض قدمائنا فيما لمسناه لديهم من لمحات كانت ـ كما أشرنا ـ أساساً لهؤلاء المحدثين في أبحاثهم، ومن ذلك ما رواه الرضي في شرح الشافية نقلاً عن كتاب سيبويه «وكره بعض العرب إمالة نحو رَمَى؛ لكراهة أن يصيروا إلى ما فروا منه، يعني أنهم قلبوا الياء ألفاً أولاً، فلم يقلبوا الألف ياء بعد ذلك»[٧٩].

ومعنى ذلك أننا انتهينا إلى الألف بصورة واضحة في البيئات الحضرية من غرب الجزيرة العربية، وبقيت الإمالة شائعة بين القبائل الموغلة في البداوة في وسط الجزيرة، وفي شرقيها، وكان منها إثارة في بعض القبائل البدوية الحجازية كبني سعد وهذيل.

وعلى هذه الأسس نستطيع أن نصحح بعض المفاهيم التي أخطأ فيها أسلافنا على ما لهم علينا، وعلى التراث العربي كله من فضل.

فهم مثلاً عندما وجدوا صيغة كصيغة المقصور مضافاً إلى ياء المتكلم مثل عصاي، فتاي، بشراي... واستقامت لهم هذه الصيغة في اللغة الفصحى، ثم اصطدموا بعد ذلك بما يخالف هذا الاتجاه كأن وجدوا عصيّ بدلاً من عصاي، وفتيّ بدلاً من فتاي، وبشريّ بدلاً من بشراي... وذلك في لهجة قبيلة كهذيل نراهم يقولون إن الألف في هذه اللهجة قد انقلبت إلى الياء. وهم يريدون بذلك أن يردوها في يسر إلى الصيغة التي ألفوها.

ولكن قولهم هكذا يخالف كل المخالفة ما أشرنا إليه من قول سيبويه

---

(٧٩) شرح الشافية ٢/١١. الكتاب ٢/٢٦٣.

بصدد الإمالة: «وكره بعض العرب إمالة نحو رمي لكراهة ان يصيروا إلى ما فروا منه، يعني أنهم قلبوا الياء ألفاً أولاً، فلم يقلبوا الألف ياء بعد ذلك». فالقول إذن بأن الألف قلبت ياء عند هذيل قد يوهم أن الألف هي الأصل القديم، والياء تطور لها، والحق إن العكس هو الصحيح، فالأصل هو وجود الواو والياء في كثير من الكلمات قبل ان تتطور كل منهما إلى الألف، ومن ذلك قولهم «أفعَوْ» يريدون أفعَى، و«قَفْي» يريدون قفا[٨٠]. ولا شك أن هذا هو الطور الأول من أطوار النطق في مثل اللفظ الذي تطور في اللهجة القرشية الى الألف فصار «أفعى وقفا» ولكنه وقف عند كثير من القبائل البدوية لم يتطور، فعصا كانت تنطق عندهم «عصْو» وهدَى: هَدْي، وبشرَى: بشرَىْ وهكذا.

وعند الإضافة الى ياء المتكلم كان لا بد اذن من أن تدغم الياء في الياء في مثل بشرَيْ فتصير بشريّ. وأن تقلب الواو في (عصوْ) لما قالوا به هم أنفسهم من اجتماع الواو والياء في كلمة وسبْق إحداهما بالسكون، ثم تدغم الياء في الياء.

وهذا هو التعليل الصحيح لهذه الظاهرة اللغوية.

ومن أمثال هذا التساهل عندهم أحياناً أنهم عندما رأوا ابن مسعود يقرأ قوله تعالى: ﴿ونادَوا يا مالك﴾: «يا مالُ» بالترخيم - يروي الرواة، واهمين، أن ابن عباس لم يُسغ هذه القراءة تأسيساً على أن أهل النار سيكونون في شغل شاغل عن هذا الترخيم[٨١]، وأغلب الظن أن هذا القول مدسوس عليه، أو هو وهم من الرواة كما أشرنا، ولو صحّت نسبته اليه لما كان الحق في جانبه، لأن هذه لهجة عربية، وقراءة من القراءات يقرؤها ابن مسعود، وهي لهجة قومه، فلا شأن لها بأهل النار، وما سيكونون فيه.

وإذا كان قد نسب إلى ابن عباس - خطأ أو عمداً - عدم استحسان

---

(٨٠) خزانة الأدب (السلفية) ٤/٣٢٦.
(٨١) مختصر الشواذ ص١٣٦.

الترخيم في هذا الموطن ، فقد حسّنه ابن جني ، وذكر أن علة ذلك هي ضعف أهل النار عن إتمام الاسم[٨٢]. وهذا التعليل هو الآخر تعليل متكلف كسابقه. ويعلق الطيبي على كلام ابن جني بأن هذا اعتذار منه لقراءة ابن مسعود حيث ردها ابن عباس بقوله : « ماأشغل أهل النار عن الترخيم ».

والحق انه لا وجه لهذا الجدال ، ولا لذلك الاعتراض ، ولا هذا الاعتذار، فإنما هي لهجة لهذيل كما ذكرنا.

ولا نريد أن نسترسل في ذلك فليست الإطالة فيه من مطالب هذا البحث ولكنا نريد أن نقول إن مثل هذا الذي نجده ليس مقصوراً على أسلافنا بل نجده حتى عند المحدثين الذين توفرت لديهم إمكانات البحث وعدته ، وذلك حين ينظرون نظرة سطحية إلى بعض ظواهر اللغة. وذلك ما فعله المستشرق الإنجليزي «Rabin»[٨٣] حينما وجد أن هذيلاً تقول في الجواب « نعِم » بكسر العين بدلاً من فتحها ، فإنه بادر إلى القول بأن لهجة هذيل لم يصبها شيء من الميل الشرقي إلى تجانس الأصوات ، وربما دفعه إلى ذلك أن هذيلاً من قبائل غرب الجزيرة التي سبق له أن قال بأن الاحتفاظ بهذه الصيغة فيها هو انعدام الميل إلى التناسق الصوتي[٨٤].

والواقع ان هذيلاً ، وإن كانت قبيلة حجازية ، فهي بدوية تجاور في بعض بطونها قبائل وسط الجزيرة. وهذا ـ كما سبق أن أشرنا قد جعلها شيئاً وسطاً بين القبائل الغربية أو الحجازية ، وبين غيرها ممن كانوا ينزلون في وسط الجزيرة أو شرقها ، فإذا كان (رابن) يريد بتناسق الأصوات انسجام الحركات في الكلمة الواحدة ، فكيف يمكن أن يقول مع هذا بأن هذيلاً لم يصبها منه شيء مع أنه يوجد في لهجات الحجازيين شيء من هذا الانسجام في مثل « عُنُق » بضم العين والنون بدلاً من « عنْق » بسكون النون عند تميم. وكذلك « براء » بفتح الباء والراء بدلاً من بريء...

---

(٨٢) المنصف ١٨٦/٢.

(٨٣) Ancient West Arabia. p. 79.

(٨٤) Ancient West Arabia. p. 13.

وقد تنبه اللغويون والنحاة إلى أن ضم النون في لهجة الحجاز إنما هو للاتباع(٨٥)، وهذا الاتباع في حقيقته هو الانسجام الذي يعنيه (رابن)، ويقصده سائر المحدثين.

وإنا لنلمس هذا الانسجام الصوتي عند هذيل في توالي الضمتين في مثل نُجُد وعُمُد...، وتوالي الكسرتين في مثل «نِعِمات» بكسر العين، وقد تنبه القدامى الى ذلك فقالوا إن الإتباع فيه لأهل الحجاز(٨٦)، كما ورد في مثل «ابن» بكسر الباء بدلاً من «ابْن» بسكونها، وقد ذكر ذلك (رابن)(٨٧) نفسه في كتابه.

★ ★ ★

فكما عرفنا أن الدراسة الجزئية للظواهر اللغوية لا تؤدي بنا إلى نتائج كلية، فكذلك وجدنا أن الدراسة السطحية التي لا تعتمد على منهج سليم لا تسلمنا إلى حكم صحيح.

فالجمع بين الأشباه والنظائر، وإلقاء الضوء على الساحة كلها، وإعمال الفكر استنتاجاً واستنباطاً في ظل القوانين والنواميس هو الاتجاه الأمثل في مثل هذه الدراسة.

★ ★ ★

وبعد، فلعلنا قد وفينا الآن هذه القبيلة حقها من الدرس في حدود القدرة والطاقة. وأسأل الله سبحانه أن يمنحني من عونه وتوفيقه ما يساعدني على مواصلة البحث إنه خير مسؤول!.

---

(٨٥) العدوى، فتح الجليل ص٦٩.

(٨٦) ابن سيده المحكم «على» ٢/١٢٩.

(٨٧) Ancient West Arabia. p 80.

أهم مراجع الكتاب

١) الآمدي — المؤتلف والمختلف (تحقيق عبد الستار فراج).
٢) إبراهيم أنيس — (دكتور) في اللهجات العربية الطبعة الثانية ١٩٥٨.
٣) إبراهيم رفعت — مرآة الحرمين الطبعة الأولى. دار الكتب.
٤) الأبشيهي — المستطرف مطبعة الاستقامة بالقاهرة.
٥) ابن الأثير — أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٢٨٦ هـ.
٦) ابن الأثير — المثل السائر ١٢٨٦ هـ.
٧) ابن البتاني الجزائري — محادثة أهل الأدب ط. القاهرة ١٩٥١ م.
٨) ابن بليهد النجدي — صحيح الأخبار (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد) ١٩٥٠ م.
٩) ابن الجزري — النشر في القراءات العشر طبع مصر.
١٠) ابن جني — التام في تفسير أشعار هذيل، طبع بغداد.
١١) الخصائص، طبع دار الكتب.
١٢) سر صناعة الإعراب، طبع الحلبي (مصر).
١٣) المحتسب في شواذ القراءات مخطوط (دار الكتب) قراءات ٢٥٢.
١٤) المنصف (شرح كتاب التصريف)، ط. الحلبي. مصر.
١٥) ابن حجر — الإصابة في تمييز الصحابة، ط. مصطفى محمد بالقاهرة. ١٩٣٩ م.
١٦) ابن حجر — تعجيل المنفعة، طبع حيدر آباد.
١٧) ابن حزم — جمهرة أنساب العرب (نشر وتحقيق ليفي بروفنسال).
١٨) ابن خالويه — مختصر الشواذ (نشر برجستراسر) مصر ١٩٣٤ م.

١٩) ابن خلدون — المقدمة، المطبعة الأميرية، بولاق مصر.
٢٠) — تاريخه، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر.
٢١) ابن خلكان — وفيات الأعيان، ط. سنة ١٩٤٨م.
٢٢) ابن رشيق — العمدة في صناعة الشعر ونقده الطبعة الأولى ١٩٠٧م.
٢٣) ابن سعد — الطبقات الكبرى (ط ليدن).
٢٤) ابن سلام — طبقات الشعراء، بيروت ١٩١٢م.
٢٥) ابن سيده — المحكم والمحيط الأعظم في اللغة (تحقيق عبد الستار فراج) ١٩٥٨م.
٢٦) ابن سيده — المخصص، الطبعة الأولى، بولاق. مصر.
٢٧) ابن عبد الحكم — فتوح مصر، طبع ليدن.
٢٨) ابن عبد ربه — العقد الفريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر. مصر.
٢٩) ابن عقيل — شرح الألفية (مع حاشية الخضري) ١٩٤٠م.
٣٠) ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب.منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت
٣١) ابن فارس — الصاحبي في فقه اللغة، القاهرة ١٩١٠م.
٣٢) ابن فضل الله العمري — مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، طبع دار الكتب. مصر.
٣٣) ابن قتيبة — الشعر والشعراء الطبعة الأولى.
٣٤) ابن الكلبي — الأصنام، طبع دار الكتب. مصر.
٣٥) ابن المجاور — صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، طبع ليدن ١٩٥١م.
٣٦) ابن منظور — لسان العرب، طبع بولاق. مصر.
٣٧) ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب، الطبعة الأولى.
٣٨) ابن هشام (المعافري) — السيرة النبوية، الطبعة الأولى.
٣٩) ابن يعيش — (شرح المفصل) المطبعة المنيرية بالقاهرة.
٤٠) أبو حنيفة الدينوري — الأخبار الطوال الطبعة الأولى (ط. السعادة بمصر).
٤١) أبو زيد القرشي جمهرة أشعار العرب، الطبعة الأولى.
٤٢) أبو سعيد السكري شرح أشعار الهذليين (تحقيق عبد الستار فراج).

٤٣) شرح بقية أشعار الهذليين طبع برلين ٨٨٤م.
٤٤) شرح ديوان أبي ذؤيب مخطوط ١٩ أدب إش. دار الكتب.
٤٥) أبو الفرج الأصفهاني الأغاني (ساسى)
٤٦) أبو القاسم بن سلام رسالة ما ورد في القرآن من لغات القبائل (هامش الجلالين). الطبعة الثالثة ١٩٥٤م.
٤٧) أحمد أمين فجر الإسلام (الطبعة السابعة) لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٤٨) أحمد بن المنير الاسكندري الانتصاف (هامش الكشاف) ١٩٤٨م.
٤٩) الإدفوي: الطالع السعيد (تحقيق سعد محمد حسن) ١٩٦٦م.
٥٠) الأزهري التهذيب (مخطوط) دار الكتب رقم ٩ لغة.
٥١) الأزهري الزاهر في غرائب ألفاظ الإمام الشافعي، مخطوط دار الكتب ٣٥١ لغة.
٥٢) إسماعيل بن عمرو المقرئ لغات القرآن (تحقيق ونشر صلاح المنجد) ط. الرسالة.
٥٣) الإصطخري: مسالك الممالك ط. ليدن ١٩٢٧.
٥٤) الأصمعي رواية ديوان الهذليين، ط. دار الكتب. القاهرة.
٥٥) الأصمعي كتاب أسماء الوحوش وصفاتها (ط. فيينا) ١٨٨٨م.
٥٦) الأصمعي النبات مخطوط دار الكتب ٦ مجاميع ش.
٥٧) الألوسي بلوغ الأرب في أحوال العرب، طبع بغداد.
٥٨) الببتانوني الرحلة الحجازية، الطبعة الثانية.
٥٩) البغدادي خزانة الأدب، طبع بولاق، وط. السلفية.
٦٠) البلاذري فتوح البلدان (الطبعة الأولى)، مصر ١٩٠١م.
٦١) الجاحظ البيان والتبيين الطبعة الرابعة. الاستقامة بالقاهرة.
٦٢) جلال الدين السيوطي الإتقان في علوم القرآن، الطبعة الثانية ١٩٢٥م.
٦٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، الطبعة الأولى.
٦٤) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط. صبيح

بالأزهر . مصر .

٦٥) لب اللباب في تحرير الأنساب . مخطوط دار الكتب . مصر .

٦٦) جمال الدين بن ظهيرة القرشي — الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف . ط . عيسى الحلبي ١٩٣٨م .

٦٧) جواد علي (دكتور) — تاريخ العرب قبل الإسلام طبع بغداد ١٩٥١م .

٦٨) حفني ناصف — مميزات لغات العرب . الطبعة الثانية (السعادة بمصر) .

٦٩) الخضري — حاشيته على شرح ابن عقيل ١٩٤٠م .

٧٠) الذهبي — تجريد أسماء الصحابة (طبع الهند) .

٧١) رضي الدين الاستراباذي — شرح شافية ابن الحاجب (مطبعة حجازي بالقاهرة)

٧٢) الزَّبيدي — تاج العروس ، القاهرة ١٢٨٦ .

٧٣) الزُّبيدي — طبقات النحويين واللغويين (تحقيق محمد أبو الفضل) ط . الأولى .

٧٤) الزمخشري : — أساس البلاغة الطبعة الأولى ١٩٥٣م

٧٥) — الجبال والأمكنة والمياه طبع ليدن ١٨٥٥م .

٧٦) سعيد الأفغاني — أسواق العرب في الجاهلية والإسلام (دار الفكر بدمشق) .

٧٧) السهيلي — الروض الأنف ، مطبعة الجمالية بمصر ١٩١٤م .

٧٨) السويدي — سبائك الذهب طبع النجف .

٧٩) سيبويه — الكتاب (الطبعة الأولى) بولاق .

٨٠) الطبري — تاريخ الأمم والملوك ، الطبعة الأولى .

٨١) عريب بن سعد القرطبي — صلة تاريخ الطبري ط . ليدن ١٨٩٧م .

٨٢) علي عبد الواحد (دكتور) . — فقه اللغة الطبعة الخامسة ١٩٦٢م .

٨٣) علي مبارك — الخطط التوفيقية ، طبع بولاق . مصر .

٨٤) عمر رضا كحالة (دكتور) — معجم قبائل العرب القديمة

والحديثة ، ط. دمشق ١٩٤٩ م.

٨٥) فؤاد حمزة	قلب الجزيرة العربية (المطبعة السلفية. مصر) ١٩٢٣.

٨٦) القفطي	إنباه الرواة على أنباه النحاة ، طبع دار الكتب.

٨٧) القلقشندي	نهاية الأرب في أنساب العرب (تحقيق الإبياري) الطبعة الأولى.

٨٨) المبرد	نسب عدنان وقحطان (لجنة التأليف والترجمة والنشر).

٨٩) المسعودي	مروج الذهب (طبعة قديمة) مكتبة جامعة القاهرة.

٩٠) مصطفى صادق الرافعي	تاريخ آداب العرب (مطبعة الاستقامة بالقاهرة).

٩١) المقريزي	البيان والإعراب عمن حل بأرض مصر من الأعراب. الطبعة الأولى ١٩٦١ م.

٩٢) الهمداني	صفة جزيرة العرب (نشر محمد بن بليهد النجدي) ١٩٥٣ م.

٩٣) ياقوت :	معجم الأدباء (نشر مرجليوث) ١٩٢٢ م.

٩٤) ياقوت :	معجم البلدان (الطبعة الأولى) ط. السعادة بمصر.

٩٥) ياقوت :	المقتضب من جمهرة أنساب العرب (مخطوط) دار الكتب ، ١٠٥ تاريخ.



الفهرس

الفصل الثالث

حياة الهذليين

الفصل الرابع
أدب الهذليين

انتهــى طبــع هــذا الـكـتــاب
فى شعبان١٤٠٢ / جوان ١٩٨٢ بمطبعة
الشــركة التــونسية لفنــون الــرســم
٢٠ نهــج المنجــى سليــم ـ تــونــس
تحت عدد ٩٨ / ٨٢ الايداع القانونى
الثــلاثــة الاشهــر الثانــيــة لـ ١٩٨٢

عــدد النــاشر ١٥ ـ ٤٨ ـ ١٠٠

